شبهات حول عصمة الملائكة

والرد عليها

دراسة تحليلية نقدية

للدكتور

فتحي محمد الزغبي

أستاذ العقيدة والأديان

بجامعة الشارقة

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

شبهات حول عصمة الملائكة

والرد عليها

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
website: www. dar-albashaer.com
email: info@dar-albashaer.com \ bashaer@cyberia.net.lb

الإهــــــداء

إلى أستاذي الكبير:

فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الشاذلي

عميد كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، فرع شبين الكوم سابقاً،

وأستاذ العقيدة والفلسفة المتفرغ بكلية أصول الدين جامعة الأزهر فرع طنطا

فقد تتلمذت على يديه في مرحلتَي (الإجازة العالية والدراسات العليا)، وشُرِّفت بإشرافه على رسالتي للماجستير في عامها الأول، ومشاركته في لجنة ترقيتي إلى درجة أستاذ مساعد (مشارك) في العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر، وانتفعت كثيراً بمحاضراته العلمية، ودروسه الدينيّة، ومؤلفاته القيّمة، وبخاصة موسوعاته في «التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة» و«الاستشراق والمستشرقين» و«علم الكلام والمتكلمين».

وأسأل الله ﷻ أن يمتّعه بالصحة والعافية، وأن ينفع بعلمه وخلقه، وأن يجعل كل ما قدّمه للإسلام والمسلمين في ميزان حسناته، وصحائف أعماله، يوم الدين، آمين يا رب العالمين.

المؤلف

فتحي محمد الزغبي

محتويات الكتاب

توطئة: أهمية البحث في عصمة الملائكة والإشارة إلى اختلاف العلماء فيها.

التمهيد: التعريف بالملائكة، والإيمان بهم، وبيان أصنافهم ووظائفهم.

الفصل الأول: الشبهة الأولى: وتدور حول سؤال الملائكة لربهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾.

الفصل الثاني: الشبهة الثانية: في أن إبليس كان من الملائكة.

الفصل الثالث: الشبهة الثالثة: قصة هاروت وماروت.

الفصل الرابع: استدلالات جمهور العلماء على عصمة جميع الملائكة.

توطئة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد،،،

فإنه قد لوحظ أن البحث في عصمة الملائكة عليهم السلام لم يلق العناية الكافية، ولم يحظ بالاهتمام اللائق به، بمثل ما لقي وحظي به مثلاً البحث في عصمة الأنبياء عليهم السلام من عناية واهتمام.

وربما يكون منشأ هذا هو ما اعتقده البعض من أن عصمة الملائكة قد تقل في الأهمية بالنسبة للبشر عن عصمة الأنبياء، ومن ثم رأى هؤلاء أن البحث فيها يأتي في مرتبة النوافل ولا يرقى إلى مرتبة الضرورات.

بل إن بعض شيوخ القاضي عياض رحمه الله قد أشاروا إليه بأنه لا حاجة بالفقيه إلى الكلام في عصمة الملائكة، كما يقول[1].

والحقيقة أن عصمة الملائكة ينبغي أن تكون على نفس القدر من الأهمية مثلها في ذلك مثل عصمة الأنبياء، فهما ـ أي: الملائكة والأنبياء ـ يحتلان منزلة واحدة في عقيدة المسلم.

حيث يجب علينا الإيمان بالملائكة مثلما يجب علينا الإيمان بالأنبياء والرسل.

---

(١) راجع كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ٢/ ٨٥٣، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.

بل إن الإيمان بالملائكة مقدم في كثير من آيات القرآن الكريم ـ إن لم يكن في كلها ـ على الإيمان بالرسل.

يذكر الإمام الرازي أن من الناس من قال: «الكلام في الملائكة ينبغي أن يكون مقدماً على الكلام في الأنبياء لوجهين:

الأول: أن الله تعالى قدم ذكر الإيمان بالملائكة على ذكر الإيمان بالرسل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولقد قال ﷺ: «**ابدؤوا بما بدأ الله به**»(١).

الثاني: أن الملك واسطة بين الله وبين الرسول في تبليغ الوحي والشريعة فكان مقدماً على الرسول(٢).

ويرى القاضي عياض أن الأسباب الداعية للكلام في عصمة الملائكة، والفوائد المترتبة عليها هي نفس الأسباب الداعية إلى الكلام في عصمة الأنبياء، ونفس الفوائد المترتبة عليها(٣)، فإنهم وسائط بين الله ورسله ونسبتهم للرسل كنسبة الرسل لأممهم، فلو لم يكونوا معصومين لم يحصل الوثوق للرسل بما بلغوه ويسري ذلك لنا فلا فرق إذن بين الأنبياء والملائكة في هذا الشأن.

---

(١) ورد في حديث طويل رواه الأئمة: مسلم وأبو داود والنسائي: عن جابر بن عبد الله، وهو يخبر عن حجة رسول الله ﷺ يقول: «فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، **أبدأ بما بدأ الله به**. فبدأ بالصفا. راجع: «جامع الأصول في أحاديث الرسول» لابن كثير ٣/ ٤٥٩ وما بعدها، الطبعة الأولى ١٩٧٠م، مكتبة الحلواني وغيرها، بيروت.

(٢) راجع تفسير ذلك في: «التفسير الكبير» ٢/ ١٦٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

(٣) استثنى القاضي عياض من هذه الفوائد فائدة الكلام في الأقوال والأفعال حيث ذكر أنها ساقطة هنا ـ أي: في حق الملائكة عليهم السلام، لعدم اطلاعنا على كلامهم وأفعالهم، ولسنا مكلفين باتباعهم فيها كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام. راجع: «نسيم الرياض» للخفاجي ٤/ ٢٣٠.

ومن هذه الفوائد وتلك الأسباب أن من يجهل ما يجب للملائكة عليهم السلام أو يجوز عليهم ولا يعرف صور أحكامهم، لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هي عليه، ولا ينزههم عما يجب أن يضاف إليهم، فيهلك من حيث لا يدري ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار؛ إذ ظَنُّ الباطل بهم، واعتقادُ ما لا يجوز عليهم يحل بصاحبه دار البوار.

ومنها أيضاً ما يحتاج إليها الحاكم والمفتي فيمن أضاف إلى الملائكة عليهم السلام شيئاً من هذه الأمور، ووصفهم بها، فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليهم، وما وقع الإجماع فيه والخلاف، كيف يصمم الفتيا في ذلك، ومن أين يدري هل ما قاله فيهم نقص أو مدح، فإما أن يجترئ على سفك دم مسلم حرام، أو يسقط حقاً، أو يضيع حرمة الملائكة عليهم السلام[1].

وجاء في «البحر المحيط» لأبي حيان أن عصمة الملائكة من المعاصي والاعتراض تعد من القواعد الشرعية والعقائد الإسلامية، وأنها مسألة من المسائل الخاصة بأصول الدين[2].

ومن أجل ذلك فقد عني علماء الكلام إلى حد ما في البحث في عصمة الملائكة، حيث أفرد لها كثير منهم مبحثاً خاصاً يأتي غالباً بعد البحث في عصمة الأنبياء، ولكنهم ـ كما أشرت من قبل ـ لم يعنوا بالبحث فيها بمثل عنايتهم بالبحث في عصمة الأنبياء، حيث عرضوا لها بإيجاز واقتضاب شديدين، رغم توسع الكثير منهم في الحديث عن عصمة الأنبياء.

ومن هنا فإنني أردت أن أسهم ولو بجهد ضئيل في هذا المجال،

---

(١) راجع كتابه: «الشفا» ٢/٨٤٩ ـ ٨٥١، ١٠٩٧ ـ ١١٠١، وراجع أيضاً: «الحبائك في أخبار الملائك» للسيوطي ص٢٠٩، ٢١٠، صححه وعلّق حواشيه أبو الفضل عبد الله الصديق، نشر مطبعة دار التأليف.

(٢) راجع: «تفسير البحر المحيط» ١/١٤٣.

فوقع اختياري على البحث في «شبهات حول عصمة الملائكة والرد عليها».

فقد تحدث علماء الكلام عن عصمة الملائكة باعتبارها مسألة اختلف فيها العلماء، حيث أثبت الجمهور العصمة لجميع الملائكة على اختلاف أصنافهم، المرسلين منهم وغير المرسلين، وتمسك طائفة من العلماء باقتصار العصمة على المرسلين والمقربين من الملائكة دون غيرهم، ولذلك فإنهم ينكرون عصمة جميع الملائكة.

يذكر القاضي عياض أنه قد أجمع المسلمون على أن الملائكة مؤمنون فضلاء، واتفق أئمة المسلمين على أن حكم المرسلين منهم حكم النبيين سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه(١)، وأنهم في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم.

ثم يذكر أن هؤلاء الأئمة قد اختلفوا في غير المرسلين منهم، حيث ذهبت طائفة إلى عصمة جميعهم عن المعاصي، بينما ذهبت طائفة أخرى إلى أن هذه العصمة خاصة بالمرسلين منهم والمقربين.

ويرى الإمام الرازي أن الذين اتفقوا على عصمة كل الملائكة من جميع الذنوب هم الجمهور الأعظم من علماء الدين وأن من خالف في ذلك هم الحشوية(٢).

وقد أطلق على هؤلاء الحشوية أنهم هم النافون لعصمة جميع

---

(١) راجع ما كتبه عن عصمة الأنبياء في الجزء الثاني من كتابه «الشفا» ص٦٩٤ ـ ٨٥١، وقد سبق أن بحثت في عصمة الأنبياء وذلك من خلال كتابي «تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود» حيث عقدت مبحثاً كاملاً عن عصمة الأنبياء عموماً وعصمة نبي الله داود ﷺ ص٢٠٦ ـ ٢٤٧، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، والطبعة الثانية، دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠٠٩م.

(٢) راجع في ذلك: «تفسير الفخر الرازي» ص١٧٠؛ راجع أيضاً: «البحر المحيط» ١/١٤٣.

الملائكة، بينما أطلق على الجمهور أنهم هم المثبتون(١).

وقد اعتمد النافون لعصمة جميع الملائكة في ما ذهبوا إليه على ثلاث من الشبهات احتجوا بها واستندوا عليها، وتتمثل هذه الشبهات الثلاث في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الشبهة الأولى: حيث رأوا أن الملائكة قد اعترضوا على الله سبحانه في سؤالهم له: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾، بالإضافة إلى ما يشير إليه هذا القول من غيبة للخليفة وتزكية لهم واعتماد على الظن.

الفصل الثاني: الشبهة الثانية: حيث ذهبوا إلى أن إبليس كان من الملائكة، ثم إنه عصى الله تعالى بعد ذلك وكفر وذلك يدل على صدور المعصية من جنس الملائكة.

الفصل الثالث: الشبهة الثالثة: حيث تمسكوا بما أورده القصاص من افتراءات في حق هاروت وماروت وهما من الملائكة، فاستدلوا بها على جواز صدور الذنوب منهم.

ثم يجيء **الفصل الرابع** لبيان استدلالات جمهور العلماء على عصمة جميع الملائكة، لكنه كان من الضروري أن أخصص تمهيداً للحديث بإيجاز عن الملائكة والإيمان بهم عليهم السلام.

ولذلك جاء الكتاب في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول. وأسأل الله سبحانه التوفيق والسداد في القول والعمل إنه سميع قريب.

فتحي محمد الزغبي

الشارقة

في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١٠م

---

(١) راجع: «شرح المواقف» للسيد الشريف ٣/٢١٦، ٢١٧، نسخة مصورة عن طبعة ١٣١١هـ؛ و«شرح المقاصد» ٢/١٤٧، نسخة مصورة عن طبعة ١٢٧٧هـ.

التمهيد

التعريف بالملائكة والإيمان بهم، وبيان أصنافهم ووظائفهم

تعريف الملائكة في اللغة:

الملائكة جمع مفرده «ملك»، أو «ملاك»، مأخوذ من «ألك»؛ أي: أرسل، وملك أصله مألك، وقيل: هو مقلوب عن ملأك، والمألك والمألكة والألوك بمعنى الرسالة ومنه ألكني إلى فلان برسالة؛ أي: أبلغه رسالتي؛ أي: كن رسولي إليه، وألك بين القوم: كان رسولاً بينهم، واستألك إلى فلان مألكة: حمل إليه رسالة، والملك مشتق منه، وأصله مألك من الألوكة، ثم تصرفوا في لفظه لتخفيفه، فقالوا: ملأك، ثم نقلوا حركة الهمزة إلى اللام وحذفوا الهمزة، فقالوا: ملك، وجمعها ملائك وملائكة، جاء في «لسان العرب»: أن الهمزة قلبت إلى موضع اللام فقيل: ملأك، ثم خففت الهمزة بأن أقيمت حركتها على الساكن الذي قبلها فقيل: ملك، وقد يستعمل متمماً والحذف أكثر:

فلستَ لإنسيٍّ لكن ملأَكٍ   تنزَّل من جوِّ السماء يَصُوب[1]

يقول تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ

---

(١) راجع: «المفردات في غريب القرآن» للأصفهاني ص٨٢، دار القلم بدمشق ١٩٩٧م؛ لسان العرب ١٠/ ٣٩٤؛ المعجم الوسيط، مادة: (ألك) مجمع اللغة العربية، القاهرة.

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

يذكر الإمام ابن القيم أن لفظ: الملك، يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر لله الواحد القهار وهم ينفذون أمره ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧، ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولا تتنزل إلا بأمره ولا تفعل شيئاً إلا من بعد إذنه فهم عباد له مكرمون منهم الصافون ومنهم المسبحون ليس منهم إلا من له مقام معلوم لا يتخطاه وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده سبحانه ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وفي الاصطلاح:

الملائكة عالم غيبي غير محسوس لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى وإن كان البعض قد قام بتعريفهم بأنهم: «مخلوقات لطيفة نورانية، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة في أشكال حسنة، شأنها الطاعة التامة والتسبيح الدائم»[2] فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وهم ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

---

(١) راجع: «إغاثة اللهفان» لابن القيم ٢/ ١٢٧، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، تحقيق محمد حامد الفقي؛ راجع أيضاً: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي ١/ ٣٣٦، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٣٩١هـ.

(٢) راجع: «شرح المقاصد» للتفتازاني ٥/ ٦٢، تحقيق د. عبد الرحمٰن عميرة، عالم الكتب، بيروت؛ و«شرح البيجوري على الجوهرة» ص١٦٢، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

وهناك من عرّفهم بأنهم: مخلوقات غير محسوسة، خلقت من نور، كرام أتقياء، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، مبرؤون من الآثام والشهوات الحيوانية.

الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، بل إنه هو الركن الثاني بعد الإيمان بالله ﷻ، وذلك من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ. يقول تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ويقول رسول الله ﷺ في حديث جبريل المشهور حينما سأله عن الإيمان: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١).

وهذا يدل على عظم منزلة الإيمان بهم، ومكانتهم ضمن الأركان الستة، فالإيمان بهم ثابت بالقرآن الكريم، والسُّنة النبوية، والإجماع، ولذلك فإن منكر وجود الملائكة كافر بالإجماع، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

فلا بد من الإيمان بوجودهم، وإنزالهم منازلهم، وأنهم عباد الله وخلقه، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، وأن منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، ومن ثم فإنه لا يصح إيمان العبد ما لم يؤمن بهم.

يذكر الفخر الرازي أن القسم الثاني من الأصول المعتبرة في الإيمان، الإقرار بالملائكة كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على

---

(١) متفق عليه. رواه البخاري رقم (٥٠)، واللفظ لمسلم رقم (٨) باب من الإيمان والإسلام... ١/ ٣٦.

سبيل الإجمال، وأخرى على طريق التفصيل. أما الإجمال فقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾، وأما بالتفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله. قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، ومنها أنها مدبرات لهذا العالم. قال تعالى: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، ومنها حملة العرش قال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ومنها الحافون حول العرش قال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥]، ومنها خزنة النار قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، ومنها الكرام الكاتبون قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، ومنها المعقبات قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الرعد: ١١]، وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين.

ويرى أن الإيمان بالملائكة يتحقق من أربعة مراتب:

أولها: الإيمان بوجودها والبحث عن أنها روحانية محضة أو جسمانية أو مركبة من القسمين، وبتقدير كونها جسمانية فهي أجسام لطيفة أو كثيفة، فإن كانت لطيفة فهي أجسام نورانية أو هوائية، وإن كانت كذلك فكيف يمكن أن تكون مع لطافة أجسامها بالغة في القوة إلى الغاية القصوى؟! فذاك مقام العلماء الراسخين في علوم الحكمة القرآنية والبرهانية.

والمرتبة الثانية: في الإيمان بالملائكة العلم بأنهم معصومون مطهرون: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، فإن لذتهم بذكر الله وأنسهم بعبادة الله، وكما أن حياة كل واحد منا بنَفَسِه الذي هو عبارة عن استنشاق الهواء فكذلك حياتهم بذكر الله تعالى ومعرفته وطاعته.

والمرتبة الثالثة: أنهم وسائط بين الله وبين البشر فكل قسم منهم متوكل على قسم من أقسام هذا العالم كما قال سبحانه: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾ [الصافات: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١، ٢].

والمرتبة الرابعة: أن كتب الله المنزلة إنما وصلت إلى الأنبياء بواسطة الملائكة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، فهذه المراتب لا بد منها في حصول الإيمان بالملائكة فكلما كان غوص العقل في هذه المراتب أشد كان إيمانه بالملائكة أتم[(١)].

خلق الملائكة وطبيعتهم وكثرتهم:

خلق الله الملائكة من نور، كما خلق آدم من طين، وكما خلق الجان من نار، حيث ورد في «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[(٢)].

ومن خلال آيات القرآن الكريم، يتبين لنا أن الله عز وجل قد خلقهم قبل أن يخلق الإنسان، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢٦/ ٢٣٥، ٢٣٦، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه»، الزهد، ١٠، ح(٢٩٩٦)، ٤/ ٢٢٩٤.

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩]، ومعنى ذلك: أنهم كانوا موجودين قبل أن يخلق الله الإنسان؛ لأنه سبحانه خاطبهم بشأن خلقه، فهم إذاً متقدمون في الخلق على خلق الإنسان.

طبيعة الملائكة:

تختلف طبيعة الملائكة عن طبائع الإنس والجن، فهم مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومبرؤون من الميول النفسية، ومنزهون عن الآثام والخطايا، وهم أيضاً لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتناسلون، ومن أجل ذلك فإنهم لا يوصفون بذكورة أو أنوثة، ومن وصفهم بالأنوثة فقد كفر؛ لأنه قال بقول الكفار الذين يقول ﷻ عنهم: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، ومن وصفه بالذكورة فقد فسق؛ لأنه قال فيهم قولاً بغير علم.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥]، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٤]، ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١ ـ ٣]، فإن معنى جمع التأنيث في ذلك كله الفرق والطوائف والجماعات التي مفردها فرقة وطائفة وجماعة[١].

كثرتهم:

الملائكة أعظم جنود الله تعالى، وما يعلم عددهم إلا الله، قال

---

(١) راجع: «شرح الطحاوية» ١/ ٣٣٧.

تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، فلا يعلم عدد الملائكة إلا الله ﷻ، ولكن وردت أحاديث تبين مدى كثرتهم، حيث يقول ﷺ: «**أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله**»(١)، وفي رواية: «**موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع**»، وجاء في حديث الإسراء المطول والمخرج في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال بعد أن عُرج به إلى السماء السابعة: «**فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه**»(٢).

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ﴾؛ أي: خزانها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾؛ أي: زبانية غلاظاً شداداً وذلك رد على مشركي قريش حين ذكروا عدد الخزنة، فقال أبو جهل: يا معشر قريش أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟! فقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾؛ أي: شديدي الخلق لا يقاومون ولا يغالبون وقد قيل: إن أبا الأشدين، واسمه كلدة بن أسيد بن خلف قال: يا معشر قريش اكفوني منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه. قال السهيلي: وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته، وقال: إن صرعتني آمنت بك فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن. قال ـ أي ابن كثير ـ: وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، قلت: ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه»، الزهد، ٩، ح(٢٣١٢)، ٤/٥٥٦ وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) متفق عليه. البخاري (٣٠٣٥)؛ ومسلم (١٦٢) واللفظ له، باب الإسراء برسول الله ﷺ ١/١٤٥.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس، ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ أي: يعلموا أن هذا الرسول حق فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله، وقوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾؛ أي: إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: من المنافقين ﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؛ أي: يقولون ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾؛ أي: من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة(١).

ثم يذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين، ومن شايعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة(٢) والنفوس التسعة التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقد ثبت في حديث الإسراء المروي في «الصحيحين» وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة: **«فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما**

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٤/ ٤٤٥.

(٢) راجع تفصيل الكلام على نظرية العقول العشرة في بحث «نظرية الفيض: ذروة التفاعل الفكري مع الفلسفة الإغريقية» بحث قدّمته إلى المؤتمر الدولي الخامس عشر للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (إبريل ٢٠١٠) وطبع في كتاب المؤتمر.

عليهم»، وعن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون؛ أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أصبع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى**»، فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد![1][2].

أصناف الملائكة ووظائفهم:

يذكر الإمام ابن القيم أن القرآن الكريم مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم وأعمالهم ومراتبهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٤] إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ في سورة القدر [الآية: ٤]، وما بين هاتين السورتين من سور القرآن، بل لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة تصريحاً أو تلويحاً أو إشارة.

وأما ذكرهم في الأحاديث النبوية فأكثر وأشهر من أن يذكر، ولهذا كان الإيمان بالملائكة عليهم السلام أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٢)؛ وابن ماجه (٤١٩٠)، من حديث إسرائيل، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٤/ ٤٤٥، ٤٤٦.

ويذكر أن كل حركة في السمٰوات والأرض من حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسمٰوات والأرض كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾، وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام، وأما المكذبون للرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم.

وقد دلّ الكتاب والسُّنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكّل بالجبال ملائكة، ووكّل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكّل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظه وملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكّل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكّل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل الأنهار فيها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله تعالى ومنهم: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾، ومنهم: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، ومنهم: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾، ومنهم: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وملائكة قد وكّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السمٰوات بالصلاة والتسبيح والتقديس إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله تعالى[١].

---

(١) راجع: «شرح العقيدة الطحاوية» ١/ ٣٣٥، ٣٣٧؛ راجع أيضاً: «إغاثة اللهفان» ٢/ ١٢٦، ١٢٧.

رؤساء وأكابر الملائكة:

أما رؤساؤهم وأكابرهم فهم كما يقول كل من ابن القيم وشارح الطحاوية: الأملاك الثلاث: جبريل وميكائيل وإسرافيل وكان النبي ﷺ يقول: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»، فتوسل النبي ﷺ إليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الأملاك الثلاثة الموكلين بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه لما في ذلك من الحياة النافعة(١).

أوصاف جبريل عليه السلام:

جبريل عليه السلام رئيس الملائكة، قد خصّه الله عز وجل بمنزلة خاصة حيث ورد ذكره بعد ذكر الملائكة: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] من باب عطف الخاص على العام؛ لأهميته وعلو منزلته، وورد ذكره باسمه في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ووصفه الله بالأمانة والطهر فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ووصفه بعدة أوصاف فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾

---

(١) راجع: «إغاثة اللهفان» ٢/١٢٨.

[التكوير: ١٩ - ٢١]، وقال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥، ٦] ورآه رسول الله ﷺ بصورته الملائكية فقال: «**فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض**»(١)، وفي رواية أخرى في «الصحيحين» أنه «**رأى جبريل له ستمائة جناح**»(٢).

وكان يتنزل عليه في صورة بشرية مثلما ورد في حديث جبريل في «الصحيحين»: «طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد...»، وأحياناً أخرى في صورة دحية الكلبي، مثلما كان يتنزل على الأنبياء السابقين، حيث نزل ومعه ملكان على الخليل إبراهيم عليه السلام كرجال ظنهم الخليل أنهم ضيوف، فقدم لهم الطعام، لكنهم لم يأكلوا ولم يشربوا كما ورد في قصة ضيف إبراهيم في القرآن الكريم، وتنزل على نبي الله لوط عليه السلام كذلك، مثلما تنزل على الصديقة مريم عليها السلام. يقول تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

يذكر الفخر الرازي أن الله تبارك وتعالى وصف جبريل عليه السلام بأمور:

الأول: أنه صاحب الوحي إلى الأنبياء قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

الثاني: أنه تعالى ذكره قبل سائر الملائكة في القرآن: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٧]؛ لأن جبريل صاحب الوحي والعلم، وميكائيل صاحب الأرزاق والأغذية، والعلم الذي هو الغذاء الروحاني أشرف من الغذاء الجسماني فوجب أن يكون جبريل عليه السلام أشرف من ميكائيل.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»، انظر الحديث رقم (٤)، باب كيف كان بدء الوحي ١/ ٥.

(٢) متفق عليه. البخاري (٣٠٦٠)، ومسلم (١٧٤) عن ابن مسعود، باب في ذكر سدرة المنتهى ١/ ١٥٨.

وقالت اليهود للنبي: من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة، فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك بالخبر؟ قال: هو جبريل. قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال! ذاك عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالنبات والقطر والرحمة! فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨].

الثالث: أنه تعالى جعله ثاني نفسه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

الرابع: سماه روح القدس قال في حق عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

الخامس: ينصر أولياء الله ويقهر أعداءه مع ألف من الملائكة مسومين.

السادس: أنه تعالى مدحه بصفات ست في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، فرسالته أنه رسول الله ﷺ إلى جميع الأنبياء فجميع الأنبياء والرسل أمته، وكرمه على ربه أنه جعله واسطة بينه وبين أشرف عباده وهم الأنبياء، وقوته أنه رفع مدائن قوم لوط إلى السماء وقلبها، ومكانته عند الله أنه جعله ثاني نفسه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكونه مطاعاً أنه إمام الملائكة ومقتداهم، وأما كونه أميناً فهو قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤][(١)].

---

(١) «التفسير الكبير» ٢/ ١٥٠.

ويذكر ابن القيم أن الله سبحانه قد أثنى على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢١]، فهذا جبريل؛ فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه، وأنه مطاع في السمٰوات، وأنه أمين على الوحي، فمن كرمه على ربه أنه أقرب الملائكة إليه.

قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك، ومن قوته أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه ثم قلبها عليهم، فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به غير عاجز عنه إذ تطيعه أملاك السمٰوات فيما يأمرهم به عن الله تعالى. قال ابن جرير في «تفسيره» عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح: أمين على أن يدخل سبعين سرادقاً من نور بغير إذن.

ووصفه بالأمانة يقتضي صدقه ونصحه وإلقاءه إلى الرسل ما أمر به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان وقد جمع له بين المكانة والأمانة والقوة والقرب من الله.

وقال تعالى في وصفه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥، ٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما ذو منظر حسن. وقال قتادة: ذو خلق حسن. وقال ابن جرير: عنى بالمرة صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قوياً، والمرة واحدة المرر، وإنما أريد به ذو مرة سوية ومنه قول النبي: **«لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي»**.

قلت: هذا حجة من قال: المرة: القوة في الآية، وهو قول مجاهد وابن زيد وهو قول ضعيف؛ لأنه قد وصفه قبل ذلك بأنه شديد القوى. ولا ريب أن المرة في الحديث هي القوة لا المنظر الحسن، فإما أن

يقال: المرة تقال على هذا وعلى هذا، وإما أن يقال وهو الأظهر: إن المرة هي الصحة والسلامة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم كمال الخلقة وحسنها وجمالها، فإن العاهة والآفة إنما تكون من ضعف الخلقة والتركيب فهي قوة وصحة تتضمن جمالاً وحسناً والله تعالى أعلم(١).

بعض أصناف الملائكة:

أحدها: حملة العرش وهو قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وثانيها: الحافون حول العرش على ما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وثالثها: ملائكة الجنة قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

ورابعها: ملائكة النار قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣١]، ورئيسهم مالك وهو قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وأسماء جملتهم الزبانية، قال تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨].

وخامسها: الموكلون ببني آدم لقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١].

---

(١) «إغاثة اللهفان» ٢/ ١٢٨، ١٢٩.

وسادسها: كتبة الأعمال وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

يقول الإمام الطحاوي: ونؤمن بالكرام الكاتبين فإن الله قد جعلهم علينا حافظين، ويشرح الإمام ابن أبي العز ذلك بقوله: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]. وفي «الصحيح» عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذي كانوا فيكم، فيسألهم والله أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وفارقناهم وهم يصلون**». وفي الحديث الآخر: «**إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم**».

جاء في «التفسير»: اثنان: عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وواحد أمامه فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً؛ حافظان وكاتبان. وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي لكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**» الرواية بفتح الميم من «فأسلمَ»، ومن رواه «فأسلمُ» برفع الميم فقد حرّف لفظه، ومعنى «فأسلم»؛ أي: فاستسلم وانقاد لي في أصح القولين، ولهذا قال: فلا يأمرني إلا بخير، ومن قال: إن الشيطان صار مؤمناً فقد حرّف معناه، فإن الشيطان لا يكون مؤمناً، ومعنى: يحفظونه من أمر الله.

قيل: حفظهم له من أمر الله؛ أي: الله أمرهم بذلك يشهد لذلك قراءة من قرأ «يحفظونه بأمر الله».

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية لأنها فعل القلب فدخلت في عموم ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**قال الله ﷻ: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا همّ عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً**»، وقال رسول الله ﷺ: «**قالت الملائكة: ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به، فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائي**» خرّجاهما في «الصحيحين» واللفظ لمسلم(١).

وسابعها: الموكلون بأحوال هذا العالم وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الصافات: ١]، وبقوله: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ [الذاريات: ١ ـ ٤]، وبقوله: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النازعات: ١]. وعن ابن عباس قال: «إن لله ملائكة سوى الحفظة يكتبون ما يسقط من ورق الأشجار، فإذا أصاب أحدكم حركة بأرض فلاة فليناد: أعينوا عباد الله، يرحمكم الله!».

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» ١/ ٤٣٩، ٤٤٠.

وثامنها: ملك الموت وأعوانه. يقول الطحاوي: ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين، وجاء في «شرح الطحاوية»: قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] ولا تعارض هذه الآية قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها، ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب يتولونها بعده؛ كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره، فصحت إضافة التوفيِّ إلى كل بحسبه[١].

يذكر الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾: الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث البراء، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور. قاله قتادة وغير واحد، وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث: أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت[٢].

وهكذا فإن القرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم وصلاته بصلاتهم ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له ومراتبهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص؛ قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٣]. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]،

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» ١/ ٤٤١. (٢) «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٩.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧٥]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١١]، ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٨].

وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

والمقصود أن الله سبحانه وكّل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره.

فلهذا يضيف التدبير إلى الملائكة تارة لكونهم هم المباشرين للتدبير؛ كقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، ويضيف التدبير إليه كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ فهو المدبر أمراً وإذناً ومشيئة والملائكة المدبرات مباشرة وامتثالاً.

وهذا كما أضاف التوفي إليهم تارة كقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، وإليه تارة كقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] ونظائره.

والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر، فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور وتصويره وحفظه في أطباق الظلمات الثلاثة، وكتابة رزقه وعمله وأجله وشقاوته

وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله والمعلمون له ما ينفعه والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره وما يحبه ليقوى قلبه ويزداد شكراً، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه وينهونه عن الشر ويحذرونه منه فهم أولياؤه وأنصاره وحفظته ومعلموه وناصحوه والداعون له والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه وعند موته ويوم بعثه، وهم الذين يزهدونه في الدنيا ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل ويثبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته.

فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده، يتنزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت بهم السماء وحق لها أن تئط: ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد، ويدخل البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم[1].

(١) «إغاثة اللهفان» ٢/ ١٣٠، ١٣١.

الفصل الأول

الشبهة الأولى:
سؤال الملائكة لربهم بشأن الخلافة

زعم النافون لعصمة الملائكة أن الملائكة عليهم السلام قد ارتكبوا عدداً من المعاصي التي تنافي عصمتهم وتخل بها، وذلك في ردهم على الله سبحانه حينما عرض عليهم استخلاف آدم عليه السلام يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقبل أن أعرض للوجوه التي طعن بها المخالفون أو النافون لعصمة جميع الملائكة، واستنبطوها من هذه الآية الكريمة ينبغي أن أبيِّن باختصار معنى الآية، والمراد بما ورد فيها حتى يتسنى لنا الفهم الصحيح.

المبحث الأول

المراد بالخليفة

في هذه الآية الكريمة يخبرنا ربنا تبارك وتعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، حيث يعلن للملائكة عن قيامه باستخلاف آدم وبنيه في الأرض.

وقد اختلف في المراد بالخليفة على قولين:

القول الأول:

حيث يرى البعض أن المراد به هو سيدنا آدم عليه السلام وأنه سمي خليفة، إما لأنه سيخلف قوماً من الجن كانوا يسكنون الأرض من قبله حسبما روي عن الإمام ابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

وإما لأنه يخلف الله في الحكم بين المكلفين من خلقه، حيث ورد عن ابن عباس أيضاً، وعن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أن الله جل ثناؤه قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً.

فمعنى الآية على هذه الرواية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ متى يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، يقول الإمام الطبري:

وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه ومن غير آدم ومن قام مقامه في عباد الله؛ لأنهما أخبرا أن الله جل ثناؤه قال لملائكته إذ سألوه: ما ذاك الخليفة؟ إنه خليفة يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، فأضاف الإفساد وسفك الدماء بغير حقها إلى ذرية خليفته دونه وأخرج منه خليفته[(٢)].

وهذا الرأي متأكد بقوله تعالى لسيدنا داود عليه السلام: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً

---

(١) حيث ورد عنه أن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً، ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فمعنى خليفة في الآية؛ أي: يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها، وهذا الرأي مردود ومستبعد وخاصة أن هذه الرواية ـ كما سأبين بعد ذلك ـ قد أعلها علماء الحديث. راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٥٠؛ و«تفسير ابن كثير» ١/ ٧٠؛ و«تفسير الرازي» ١/ ١٦٥.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٥١، ٤٥٢؛ و«مفاتيح الغيب» ٢/ ١٦٥.

فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [صَ: ٢٦].

يذكر الزمخشري أن آدم كان خليفة الله في أرضه، وكذلك كل نبي جاء بعده[١].

ويرى البغوي أن الصحيح في ذلك أن آدم خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ قضاياه[٢].

القول الثاني:

يذهب الحسن البصري رضي الله عنه إلى أن المراد بالخليفة هو ولد آدم، وسماهم الله خليفة؛ بمعنى: أنهم يخلف بعضهم بعضاً. حيث روي عنه أنه قال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً﴾؛ أي: خلفاً يخلف بعضهم بعضاً، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله[٣].

وهذا الرأي يؤكده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ويمكن الجمع بين هذين القولين، وذلك بأن يكون المراد بالخليفة هنا آدم وذريته، لكن سفك الدماء والفساد في الأرض ينسب إلى من يفعل ذلك من ذريته، وأما ذريته فلم تذكر هنا حيث استغنى عنها بذكر آدم عليه السلام.

يذكر الحافظ ابن كثير أن المراد ههنا بالخليفة ليس آدم عليه السلام فقط كما يقول طائفة من المفسرين، وإنما الظاهر أنه لم يرد آدم عيناً، إذ لو كان

---

(١) راجع: «الكشاف» ١/ ٦١؛ و«مفاتيح الغيب» ٢/ ١٦٥، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي ١/ ٤٥.

(٢) راجع: «معالم التنزيل» ١/ ٦٠، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٣) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٥١؛ و«التفسير الكبير» ٢/ ١٦٥، ١٦٦.

ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾.

فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك[1].

وجاء في «تفسير الألوسي» وغيره أن الخليفة هو آدم وذريته، ويؤيده ظاهر قول الملائكة، فإلزامهم حينئذ بإظهار فضل آدم عليهم لكونه الأصل المستتبع من عداه، وهذا كما يستغنىٰ بذكر أبي القبيلة عنهم في قولهم: «مضر» و«هاشم»[2].

لكن التساؤل الذي يثور في الأذهان هو: لماذا أخبر الله الملائكة بذلك؟ وقد أجاب العلماء على ذلك بجوابين:

أولهما: أنه تعالى أخبرهم حتى يسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيبوا به، فيعرفوا حكمة استخلاف بني آدم قبل كونهم؛ صيانة لهم عن اعتراض الشبهة في وقت استخلافهم.

وثانيهما: ليعلم عباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على ثقاتهم ونصحائهم، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة[3].

المبحث الثاني

عرض الشبهة ونقدها

أما فيما يتعلق بالوجوه التي طعن بها المخالفون والنافون لعصمة الملائكة والتي كوّنت لديهم هذه الشبهة التي تدور حول سؤال الملائكة لربهم حين ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٦٩.

(٢) راجع: «روح المعاني» ١/ ٢٢٠؛ و«الكشاف» ١/ ٦١؛ و«تفسير البيضاوي» ١/ ٤٥.

(٣) راجع: «الكشاف» ١/ ٦١؛ و«تفسير الرازي» ٢/ ١٦٦؛ و«روح المعاني» ١/ ٢٢١؛ و«البحر المحيط» ١/ ١٤١؛ و«أنوار التنزيل» ١/ ٤٥.

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ فإنها أربعة زعم هؤلاء النافون أنها من المعاصي التي تخل بعصمتهم.

الأول: اغتيابهم للخليفة حيث طعنوا فيه ورموه بالإفساد في الأرض وسفك الدماء.

الثاني: تزكيتهم لأنفسهم بعد أن اغتابوا الخليفة حيث قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾.

الثالث: أن قولهم في حق الخليفة بأنه مفسد في الأرض، وسفاك للدماء يعد من قبيل الرجم بالظن فإنه لم يكن قد وجد بعد حتى يقع منه ما رموه به.

الرابع: أن قولهم هذا في حق خليفة الله في الأرض وردهم بهذا السؤال على الله سبحانه يعد اعتراضاً منهم على ربهم وإنكاراً لما أراد أن يقوم به.

ولا شك أن هذه الوجوه التي استنبطها هؤلاء النافون لعصمة الملائكة لو كانت صحيحة كما زعموا لنالت حقاً من عصمة الملائكة، ولكنها أوهام توهّموها ليشكلوا بها هذه الشبهة، وسيتبين لنا ذلك من خلال عرض هذه الوجوه ومناقشتها وجهاً بعد وجه.

الوجه الأول: ما زعموا أنه اغتياب للخليفة:

يذكر النافون لعصمة جميع الملائكة أنهم طعنوا في بني آدم وذريته بالفساد والقتل بقوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وفي ذلك اغتياب للخليفة والغيبة من كبائر الذنوب[1].

وقد أجاب العلماء على هذا حيث بيَّن الإمام الرازي أن محل الإشكال في خلق بني آدم إقدامهم على الفساد والقتل.

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢/١٦٨؛ و«شرح المقاصد» ٢/١٤٧.

ومن أراد إيراد السؤال وجب أن يتعرّض لمحل الإشكال لا لغيره، فلهذا السبب ذكروا من بني آدم هاتين الصفتين، وما ذكروا منهم عبادتهم وتوحيدهم لأن ذلك ليس محل الإشكال[1].

ويذكر كل من البيضاوي وأبي السعود أن سؤال الملائكة لربهم لم يكن طعناً في سيدنا آدم عليه السلام ولا في ذريته على وجه الغيبة فإن منزلتهم أعلى ومنصبهم أجلّ من أن يظن بهم أمثال حيث يقول تعالى عنهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، لكنهم قالوا ذلك كأنهم شعروا بما في بني آدم من القوة الشهوية التي رذيلتها الإفراطية الفساد في الأرض، والقوة الغضبية التي رذيلتها الإفراطية سفك الدماء، وكأنهم علموا أنهم ذوو ثلاث قوى عليها مدار أمرهم: الشهوية والغضبية والعقلية، فذكروا أن الشهوية والغضبية تؤديان إلى الفساد وسفك الدماء وأن العقلية تدعوه إلى المعرفة والطاعة، ونظروا إليها مفردة وقالوا: ما الحكمة في استخلافه وهو باعتبار هاتين القوتين لا تقتضي الحكمة إيجاده فضلاً عن استخلافه وغفلوا عن فضيلة كل واحدة من القوتين إذا صارت مهذبة مطواعة للعقل متمرنة على الخير؛ كالعفة والشجاعة ومجاهدة الهوى والإنصاف، ولم يعملوا أن التركيب يفيد ما يقصر عنه الآحاد؛ كالإحاطة بالجزئيات واستنباط الصناعة من الاستخلاف، وإليه أشار تعالى إجمالاً بقوله: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦][2].

وأجاب العلّامة الإيجي وشارحه السيد الشريف بما جاء في «شرح المواقف»: «والغيبة إظهار مثالب المغتاب، وذلك لا يتصور لمن لا يعلمه، والله سبحانه عالم بجميع الأشياء؛ ما ظهر منها وما بطن فلا

(١) راجع: «تفسير الفخر الرازي» ٢/ ١٦.

(٢) راجع: «تفسير البيضاوي» ١/ ٤٦؛ و«تفسير أبي السعود» ١/ ٨٢، ٨٣.

غيبة هناك»[1].

وكذلك العلامة التفتازاني بيَّن أن الاغتياب إنما يكون حيث الغرض إظهار منقصة الغير ولا يتصور ذلك بالنسبة إلى علام الغيوب[2].

وعليه؛ فإن ما قاله الملائكة لا يمكن أن يطلق عليه غيبة؛ لأن المغتاب ـ دائماً ـ يكون هدفه الإهانة والتحقير لمن يغتابه، ولم يكن هذا أبداً هو غرض الملائكة، وإنما غرضهم ـ كما سيتبين لنا بعد ذلك ـ هو استفسارهم عن الحكمة في اختيار هذا الخليفة.

الوجه الثاني: ما زعموه من أن قولهم هذا فيه تزكيتهم لأنفسهم:

يذكر المعترضون على عصمة جميع الملائكة، أنهم بعد أن طعنوا في بني آدم بالفساد والقتل بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قاموا بمدح أنفسهم، وذلك بقولهم بعد ذلك: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وهذا ـ كما يذكر الرازي ـ يشبه العجب وهو من الذنوب المهلكة حيث قال ﷺ: «**ثلاث مهلكات**» وذكر فيها: «**إعجاب المرء بنفسه**»، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[3].

وجاء في «شرح المواقف»: أن قولهم ذلك فيه العجب وتزكية للنفس بذكر مناقبها[4].

وقد أجاب العلماء أيضاً على هذه النقطة، فذكر الإمام الرازي أن مدح النفس غير ممنوع مطلقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

واستشهد بقول الإمام علي رضي الله عنه حينما سئل عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم فقالوا له: فحدثنا عن نفسك فقال: مهلاً، فقد

---

(١) راجع: «شرح المواقف» ٣/٢١٦.
(٢) راجع: «شرح المقاصد» ٢/١٤٧.
(٣) راجع: «تفسير الرازي» ٢/١٦٦.
(٤) ٣/٢١٦.

نهى الله عن التزكية، فقيل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١٠] فقال: فإني أحدث: كنت إذا سئلت أعطيت، وإذا سكت ابتديت، وبين الجوانح علم جم فاسألوني[(١)].

ولذلك فإن العلّامة أبا حيان يرى أن في قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] إشارة إلى جواز التمدح إلى من له الحكم في التولية ممن يقصد الولاية إذا أمن على نفسه الجور والحيف ورأى في ذلك مصلحة، ولهذا جاز ليوسف على نبينا وعليه السلام طلبه الولاية، ومدح نفسه بما فيها فقال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٦][(٢)].

وعلى فرض أن سيدنا يوسف في ذلك القول يكون قد مدح نفسه[(٣)].

فإن مدح النفس إنما يكون مذموماً إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل، فأما على غير هذا الوجه فلا نسلم أنه محرم، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٢٣] المراد منه تزكية النفس حال ما يعلم كونها غير متزكية، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أما إذا كان الإنسان عالماً بأنه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه[(٤)].

ولذلك فإن ابن العربي والقرطبي يذهبان إلى أن قول سيدنا يوسف هذا صار مستثنى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[(٥)].

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢/١٦، ٣١/٢٢٠.
(٢) راجع: «البحر المحيط» ١/١٤٤.
(٣) راجع تفصيل البحث في ذلك في: «تفسير القرطبي» ٩/٢١٢ ـ ٢١٧؛ وابن العربي في «أحكام القرآن» ٣/١٠٩١، ١٠٩٢.
(٤) راجع: «تفسير الرازي» ١٨/١٦٠، ١٦١.
(٥) راجع: «الأحكام» ص١٠٩٢؛ و«الجامع» ٩/٢١٦، ٢١٧.

وإذا كان قد أجيب على هذا الاعتراض بافتراض أن هذا مدح للنفس ولكنه غير ممنوع كما تبين، فإن الرازي يجيب أيضاً بأن ما قالته الملائكة ليس المراد به مدح النفس، بل المراد بيان أنهم يقولون إن هذا السؤال ما أوردناه لنقدح به في حكمتك يا رب، فإنا نسبح بحمدك ونعترف لك بالإلٰهية والحكمة، فكأن الغرض من ذلك بيان أنهم ما أوردوا السؤال للطعن في الحكمة الإلٰهية بل لطلب وجه الحكمة على سبيل التفصيل[1].

كذلك فإن العلّامة التفتازاني قد أجاب على هذا أيضاً بأن التزكية تكون حيث يكون الغرض إظهار منقبة النفس وذلك لا يتصور بالنسبة إلى علام الغيوب، بل كان غرض الملائكة التعجب والاستفسار عن حكمة استخلاف من يتصف بما لا يليق بذلك مع وجود الأولى والأليق[2].

فقوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ جملة حالية مقررة للتعجب السابق جهة الإشكال ومؤكدة له على طريقة قول من يجد في خدمة مولاه، وهو يأمر بها غيره: أتستخدم العصاة وأنا مجتهد في خدمتك؟! وكقولك: أتحسن إلى أعدائك وأنا الصديق المحتاج القديم؟! والمعنى: أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك!

وليس المقصود من قول الملائكة هنا هو العجب والتفاخر والتزكية، وإنما المقصود هو عرض أحقيتهم بالخلافة والاستفسار عما رجحهم مع ما هو متوقع منهم من الموانع على الملائكة المعصومين في الاستخلاف[3].

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢/ ١٦٩.

(٢) راجع: «شرح المقاصد» ٢/ ١٤٧؛ راجع أيضاً: «شرح المواقف» ٣/ ٢١٦.

(٣) راجع: «أنوار التنزيل» للبيضاوي ١/ ٤٥، ٤٦؛ و«إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» لأبي السعود ١/ ٨٢.

يذكر الإمام الألوسي أن قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ حال من ضمير الفاعل في ﴿أَتَجْعَلُ﴾ وفيه تقرير لجهة الإشكال؛ والمعنى: تستخلف من ذكر ونحن المعصومون، وليس المقصود إلا الاستسفار عن المرجح، لا العجب والتفاخر حتى يضر بعصمتهم كما زعمت الحشوية(١).

والذي يتأمل في تعبير الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يدرك جيداً أنهم لم يقولوا هذا إظهاراً للمنة، ولا تمدحاً بما يفعلون، وإنما بياناً للواقع كما يقوله العلامة أبو السعود، فالتسبيح تنزيه الله تعالى وتعبيده، اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجنابه، وكذلك التقديس، ويقال: قدس: إذا طَهَّرَ؛ لأن مطهر الشيء مبعد له عن الأقذار، والباء في قوله: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ وقع حالاً من الضمير؛ والمعنى: أننا ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك المتلبسين بحمدك على ما أنعمت به علينا حيث ألهمتنا معرفتك، ووفقتنا لتسبيحك، فتداركوا به ما أوهم إسناد التسبيح إلى أنفسهم، ومعنى ﴿نُقَدِّسُ لَكَ﴾؛ أي: نطهر نفوسنا عن الذنوب لأجلك كأنهم قابلوا الفساد الذي أعظمه الإشراك بالتسبيح، وسفك الدماء الذي هو تلويث النفس بأقبح الجرائم وأعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفس عن الآثام(٢).

الوجه الثالث: ما زعموه من أن قول الملائكة هذا رجم بالظن:

احتج الناقدون لعصمة جميع الملائكة أيضاً بأن في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ نوعاً من اتباع للظن ورجماً بالغيب فيما لا يليق، ثم يذكرون أن الاتباع للظن في مثل ذلك غير جائز.

---

(١) راجع: «روح المعاني» ١/ ٢٢٢.

(٢) راجع: «تفسير أبي السعود» ١/ ٨٣؛ و«تفسير البيضاوي» ١/ ٤٦.

يقول الرازي مصوراً رأيهم: «فثبت أنهم قالوا عن الاستنباط والظن، والقدح في الغير على سبيل الظن غير جائز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾»[1].

وكان الإمام الطبري قد عرض لهذا الاعتراض فقال:

«إن قال لنا قائل: كيف قالت الملائكة لربها إذ أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ ولم يكن آدم بعد مخلوقاً ولا ذريته فيعلموا ما يفعلون عياناً؟ أعلمت الغيب فقالت ذلك، أم قالت ما قالت من ذلك ظناً؟ فذلك شهادة منها بالظن، وقول بما لا تعلم وذلك ليس من صفتها. أم ما وجه قيلها ذلك لربها؟»[2].

فقد اعتمد المعترضون على خبر مروي عن ابن عباس وغيره مؤداه: أن الملائكة قاموا بالقياس على حال الجن الذين كانوا قبل آدم عليه السلام في الأرض.

روى ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إياها فلذلك قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال هذا للملائكة الذين كانوا مع إبليس، بعد أن اغتر إبليس في نفسه وقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، فاطلع الله على ذلك من قبله، ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه.

فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كما أفسدت الجن وسفكت الدماء وإنما بعثنا عليهم لذلك،

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢/ ١٦٧؛ راجع أيضاً: «شرح المواقف» ٣/ ٢١٦؛ «شرح المقاصد» ٢/ ١٤٧.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٥٤.

فقال: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: إني قد اطلعت من قلب إبليس على ما لا تطلعوا عليه من كبره واغتراره. . . .

ثم قال الله للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين كانوا في السماوات: اسجدوا لآدم. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى واستكبر، لما كان حدث به نفسه من كبره واغتراره، فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه وأكبر سناً، وأقوى خلقاً، خلقتني من نار وخلقته من طين. . . قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله ـ أي: آيَسه من الخير كله ـ وجعله شيطاناً رجيماً عقوبة لمعصيته، ثم علم آدم الأسماء كلها، ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة ـ يعني: الملائكة الذين كانوا مع إبليس، الذين خلقوا من نار السموم ـ وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، إن كنتم تعلمون أني لم أجعل خليفة في الأرض.

قال: فلما علمت الملائكة مؤاخذة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذي لا يعلمه غيره، الذي ليس لهم به علم، قالوا ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره ـ تبنا إليك، ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾، تبرياً منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علمت آدم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ يقول: أخبرهم بأسمائهم، ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ ـ أيها الملائكة خاصة ـ ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يعلمه غيري ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ ـ يقول: ما تظهرون ـ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ـ يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية؛ يعني: ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار(١).

وقد عقب الإمام الطبري على هذه الرواية فذكر أنها تنبئ عن أن

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٧؛ و«تفسير القرآن العظيم» ١/ ٧٥، ٧٦.

قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ خطاب من الله جل ثناؤه لخاص من الملائكة دون الجميع[1]، وأن الذين قيل لهم ذلك من الملائكة كانوا قبيلة إبليس خاصة ـ الذين قاتلوا معه جن الأرض قبل خلق آدم ـ وأن الله إنما خصهم بقيل ذلك امتحاناً منه لهم وابتلاء، ليعرفهم قصور علمهم وفضل كثير ممن هو أضعف خلقاً منهم من خلقه عليهم، وأن كرامته لا تنال بقوى الأبدان وشدة الأجسام، كما ظنه إبليس عدو الله، ومصرّحاً بأن قيلهم لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كانت هفوة منهم ورجماً بالغيب، وأن الله جل ثناؤه أطلعهم على مكروه ما نطقوا به من ذلك، ووقفهم عليه حتى تابوا وأنابوا إليه مما قالوا ونطقوا من رجم الغيب بالظنون، وتبرؤوا إليه أن يعلم الغيب غيره، وأظهر لهم من إبليس ما كان منطوياً عليه من الكبر الذي قد كان عنهم مستخفياً.

ثم ذكر الطبري رواية أخرى عن ابن عباس تختلف في كثير من محتوياتها عن الرواية الأولى، وانتهى إلى نقض هذه الرواية الأولى وبيَّن

---

(١) اختلف العلماء في ذلك حيث روي عن ابن عباس أن الخطاب موجه إلى الملائكة الذين كانوا محاربين مع إبليس، لكن الأكثرين من الصحابة والتابعين يذهبون إلى أن الخطاب كان لجميع الملائكة من غير تخصيص؛ لأن لفظ الملائكة يفيد العموم فيكون التخصيص خلاف الأصل.
وكذلك الأمر في الأمر الموجه إليهم من الله بالسجود لآدم حيث رأى الأكثرون من العلماء أن الملائكة جميعاً كانوا مأمورين بالسجود واحتجوا على ذلك بوجهين:
الأول: أن لفظ الملائكة صيغة الجمع وهي تفيد العموم لا سيما وقد وردت هذه اللفظة مقرونة بأكمل وجوه التأكيد في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.
الثاني: هو أنه تعالى استثنى إبليس منهم، واستثناء الشخص الواحد منهم يدل على أن ما عدا ذلك الشخص كان داخلاً في ذلك الحكم. راجع تفاصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ٢/ ١٦٥، ٢٣٨؛ و«تفسير القاسمي» ٢/ ١٠٢، ١٠٣.

الخطأ في سياقها، ورفض الاستدلال بها على ما ذهب إليه هؤلاء المعترضون، حيث بيّن ارتيابه في إسنادها[1].

وقد نقل الحافظ ابن كثير هذه الرواية وعلق عليها بقوله: «هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها» ثم ذكر رواية أخرى مشابهة لها رواها السدي عن ابن عباس أيضاً وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ ثم قال: «فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في «تفسير السدي» ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة»[2].

ويرى الشيخ برهان الدين البقاعي أن ما يقال (من أنه كان قبل آدم عليه السلام في الأرض خلق يعصون قاس عليهم الملائكة عليهم السلام حال آدم عليه السلام) كلام لا أصل له، وانتهى إلى أن آدم عليه السلام كان هو أول ساكنيها بنفسه كما أنه خاتمهم بأولاده، فعليهم تقوم الساعة[3].

ويبدو أن فكرة وجود خلائق في الأرض قبل آدم قد سرت إلى القائلين بها من خرافات الفرس وأساطيرهم[4].

وهناك من العلماء من يرى أن الملائكة قالوا لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بناء على ما فهموه من الطبيعة البشرية، بعد أن أخبرهم الله سبحانه بأنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون.

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٥٨ ـ ٤٦٣؛ وتعليق الشيخ أحمد شاكر على هذه الرواية في هوامش ١٥٦ ـ ١٦٠/ ٤٦١، ٤٦٢.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٧٥، ٧٦.

(٣) راجع: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» ١/ ٢٦٢، ٢٦٣، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

(٤) راجع تفاصيل ذلك في: «تفسير المنار» ١/ ٢١٥؛ و«تفسير التحرير والتنوير» ١/ ٣٩٩.

يذكر الرازي أن الملائكة عرفوا خلقته، وعرفوا أنه مركب من هذه الأخلاط الأربعة، فلا بد وأن تتركب فيه الشهوة والغضب، فيتولد الفساد عن الشهوة وسفك الدماء عن الغضب[١].

ويرى التفتازاني أنهم قالوا قولهم هذا بعد مقايسة بين الجن والإنس بمشاركتهما في الشهوة والغضب المفضيين إلى الفساد وسفك الدماء[٢].

وهناك من يرى أن الملائكة قالوا لربهم هذا القول لما فهموه من لفظ ﴿خَلِيفَةً﴾ أنه هو الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم.

يذكر القرطبي أن الملائكة لما سمعوا لفظ ﴿خَلِيفَةً﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فهموا أن في بني آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكنهم عمموا الحكم على الجميع بالمعصية، فبيّن الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد، فقال تطييباً لقلوبهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وحقق ذلك بأن علّم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه[٣].

ويرى أبو حيان أنهم استنبطوا ذلك من لفظ ﴿خَلِيفَةً﴾ إذ الخليفة من يكون نائباً في الحكم وذلك يكون عند التظالم[٤].

يقول الرازي: إذا كان معنى الخليفة من يكون نائباً لله تعالى في الحكم والقضاء، والاحتجاج إلى الحاكم والقاضي إنما يكون عند التنازع والتظالم؛ كان الإخبار عن وجود الخليفة إخباراً عن وقوع الفساد والشر بطريق الالتزام[٥].

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢/ ١٧٠؛ «تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٩.

(٢) راجع: «شرح المقاصد» ٢/ ١٤٧.

(٣) راجع: «تفسير القرطبي» ١/ ٢٧٤؛ و«تفسير ابن كثير» ١/ ٦٩.

(٤) راجع: «البحر المحيط» ١/ ١٤٢. (٥) «التفسير الكبير» ٢/ ١٧٠.

ولذلك؛ فإن القرطبي قد استحسن هذا الرأي ورجحه فذكر أنه حسن جداً؛ لأن فيه استخراج العلم واستنباطه من مقتضى الألفاظ وذلك لا يكون إلا من العلماء[(١)].

والمقصود من هذا كله أن الملائكة عليهم السلام لم يقولوا لربهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا...﴾ بناء على الظن أو رجماً بالغيب كما يظن المعترضون وإنما كان بناءً على استنباط قائم على معلومات صحيحة.

ويرى كثير من العلماء أن الملائكة حينما قالوا لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ لم يقولوه على سبيل الظن والرجم بالغيب، ولا من طريق الاستنباط، وإنما كان على سبيل اليقين حيث علموا بذلك بعلم خاص، أو أن الله سبحانه قد أنبأهم به.

ثم ذكروا فيه وجوهاً:

الوجه الأول: يرى كثير من العلماء أن حكم الملائكة على الإنسان بالإفساد والسفك لم يكن بناء على الظن والتخمين ولكن بإخبار من الله تعالى، لكن القرآن لم يقص علينا فيما حكى عنهم اكتفاء بدلالة الجواب عليه للإيجاز كما هو عادة القرآن، ويؤيد ذلك ما روي في بعض الآثار أنه تعالى لما قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالوا: ربنا ما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقاتل بعضهم بعضاً، فعند ذلك قالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[(٢)].

وقد ارتضى الإمام الطبري هذا الرأي فذكر أن أولى التأويلات بالآية ـ بعد أن عرض لكثير من هذه التأويلات ـ هو: أن الله سبحانه

---

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ١/ ٢٧٥.

(٢) راجع: «تفسير الفخر الرازي» ٢/ ١٧٠؛ و«تفسير القرآن العظيم» ١/ ٧٦؛ و«روح المعاني» ١/ ٢٢٢.

أخبر الملائكة بأن ذرية خليفته في الأرض يفسدون فيها ويسفكون فيها الدماء، فمن أجل ذلك قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، بعد أن أعلمها الله أن ذلك كائن من ذرية الخليفة الذي يجعله في الأرض(١).

فإن قال قائل: فأين ذكر إخبار الله إياهم في كتابه بذلك؟

يجيب الطبري بقوله: اكتفى بدلالة ما ظهر من الكلام عليه عنه.

كما يقول الشاعر:

فلا تدفنوني، إن دفني محرم عليكم، ولكن خامري أم عامر

فحذف قوله: «دعوني للتي يقال لها عند صيدها: خامري أم عامر»، إذ كان فيما أظهر من كلامه دلالة على معنى مراده، فكذلك في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ لما كان فيه دلالة على ما ترك ذكره بعد قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، من الخبر عما يكون من إفساد ذريته في الأرض، اكتفى بدلالته وحذف، فترك ذكره كما ذكرنا من قول الشاعر، ونظائر ذلك في القرآن وأشعار العرب وكلامها أكثر من أن يحصى، فلما ذكرنا من ذلك اخترنا ما اخترنا من القول في تأويل قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾(٢).

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٧١؛ ويقول الطبري مؤكداً لما ارتضاه: «وأما وصف الملائكة من وصفت ـ في استخبارها ربها عنه ـ بالفساد في الأرض وسفك الدماء، فغير مستحيل فيه ما روي عن ابن عباس وابن مسعود من القول الذي رواه السدي ووافقهما عليه قتادة ـ من التأويل: وهو أن الله جلّ ثناؤه أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة تكون له ذرية يفعلون كذا وكذا، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ على ما وصفت من الاستخبار». راجع: ١/ ٤٧٠.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٧١، ٤٧٢.

ثانياً: روي أنه تعالى كان قد أعلم الملائكة أنه إذا كان في الأرض خلق عظيم أفسدوا وسفكوا الدماء(١).

فقد روى هذا عن قتادة والحسن البصري حيث قالا: قال الله لملائكته: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قال لهم: إني فاعل - فعرضوا برأيهم، فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه لا يعلمونه، فقالوا بالعلم الذي علمهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ - وقد كانت الملائكة علمت من علم الله أنه لا ذنب أعظم عند الله من سفك الدماء...(٢).

ثالثاً: ما قاله ابن زيد من أن الله سبحانه لما خلق النار، ذعرت منها الملائكة ذعراً شديداً، وقالوا: ربنا لم خلقت هذه النار؟ ولأي شيء خلقتها؟ قال: لمن عصاني من خلقي. قال: ولم يكن لله خلق يومئذ إلا الملائكة، والأرض ليس فيها خلق، إنما خلق آدم بعد ذلك، وقرأ قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

ثم قال: قالت الملائكة: يا رب، أوَ يأتي علينا دهر نعصيك فيه؟ - لا يرون له خلقاً غيرهم - قال: لا، إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً، وأجعل فيها خلقاً يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وقد اخترتنا فاجعلنا نحن فيها، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، ونعمل فيها بطاعتك، وأعظمت الملائكة أن يجعل الله في الأرض من يعصيه فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ فقال: فلان وفلان. قال: فلما رأوا ما أعطاه الله من العلم أقروا لآدم بالفضل عليهم، وأبى الخبيث

---

(١) راجع: «تفسير الفخر الرازي» ٢/ ١٧٠؛ و«تفسير القرطبي» ١/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) راجع الرواية بأكملها في: «تفسير الطبري» ١/ ٤٦٣، ٤٦٥.

إبليس أن يقر له، قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ قال: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾[(١)].

رابعاً: هناك من العلماء من يذكر أنه لما كتب القلم في اللوح المحفوظ ما هو كائن إلى يوم القيامة، فلعل الملائكة طالعوا اللوح فعرفوا ذلك[(٢)].

وبهذه الوجوه الأربعة يكون الملائكة قد أطلعهم الله سبحانه على ما سيقع من ذرية آدم بأن أعلمهم بذلك وأخبرهم، أو يكونوا هم الذين اطلعوا من اللوح المحفوظ على ذلك.

وسواء أكان الله سبحانه قد أخبرهم دون أن يسألوا، أو أجابهم بذلك بعد أن سألوا واستفسروا عن ذرية هذا الخليفة، **فإن ما أقصد إليه هنا** هو أنهم لم ينطقوا بقولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بناء على الظن أو رجماً بالغيب كما يظن المعترضون، وإنما كان بناء على علم علموه من الله سبحانه مباشرة، أو علموه من اطّلاعهم على ما دون في اللوح المحفوظ.

قال أهل التحقيق: والقول بأنه كان هذا الإخبار عن مجرد الظن باطل؛ لأنه قدح في الغير بما لا يأمن أن يكون كاذباً فيه، وذلك ينافي العصمة والطهارة[(٣)].

فقد جاء في «شرح المواقف»: «ولا رجم بالظن وقد علموا ذلك بتعليم الله، ـ إذ قد يكون فيه حكمة لا نعرفها ـ أو بغيره كقراءتهم ذلك

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٦٦، ٤٦٧؛ و«تفسير الرازي» ٢/ ١٧٠؛ و«تفسير القرطبي» ١/ ٢٧٤.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٢/ ١٧٠؛ «تفسير البحر المحيط» ١/ ١٤٢؛ و«شرح المواقف» ٣/ ٢١٦؛ و«شرح المقاصد» ٢/ ١٤٧؛ و«روح المعاني» ١/ ٢٢٢.

(٣) راجع: «تفسير الفخر الرازي» ٢/ ١٧٠.

من اللوح»[1].

ويقول «شارح المقاصد»: «وإنما علموا ذلك من الله تعالى أو مشاهدة من اللوح»[2].

وجاء في «أنوار التنزيل» للبيضاوي: أن الملائكة إنما عرفوا ذلك بإخبار من الله تعالى، أو بتلق من اللوح[3]، وذكر مثله أبو السعود في «تفسيره»[4].

الوجه الرابع: ما زعموه من أن قول الملائكة فيه اعتراض على الله وإنكاره لما يفعله:

احتج النافون لعصمة جميع الملائكة بما قالته الملائكة لربهم بعد أن أخبرهم بأنه جاعل في الأرض خليفة ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ حيث فسروا هذا القول بأنه اعتراض على الله، واستبعاد لفعله تعالى بحيث يشبه صورة الإنكار؛ بمعنى أنه لا ينبغي أن يكون! وذلك من أعظم الذنوب[5].

يقول التفتازاني على لسانهم: «وفيه أيضاً إنكار على الله فيما يفعله وهو من أعظم المعاصي»[6].

وقد أجمع كثير من العلماء على أن قول الملائكة ليس فيه أدنى إشارة إلى الاعتراض أو الإنكار على الله تعالى، وإن كانوا قد اختلفوا في توجيه كلامهم بعيداً عن ذلك.

---

(١) راجع: «شرح المواقف» ٣/ ٢١٦.
(٢) راجع: «شرح المقاصد» ٢/ ١٤٧.
(٣) راجع: «تفسير البيضاوي» ١/ ٤٥.
(٤) راجع: ١/ ٨٢.
(٥) راجع: «تفسير الرازي» ٢/ ١٦٦؛ و«شرح المواقف» ٣/ ٢١٦.
(٦) راجع: «شرح المقاصد» ٢/ ١٤٧.

فها هو الألوسي بعد أن ذكر اختلاف العلماء في الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ﴾ يقول: «وعلى كل تقدير ليست الهمزة للإنكار كما زعمته الحشوية مستدلين بالآية على عدم عصمة الملائكة لاعتراضهم على الله تعالى وطعنهم في بني آدم»(١).

ويذكر الرازي أنه لم يكن غرض الملائكة من ذلك السؤال تنبيه الله على شيء كان غافلاً عنه، فإن من اعتقد ذلك في الله فهو كافر، ولم يكن غرضهم أيضاً الإنكار على الله تعالى في فعل فعله، بل المقصود من ذلك السؤال أمور(٢).

ثم ذكر منها عدة أجوبة قال بها العلماء ضربت عنها صفحاً(٣). واخترت منها هذا الجواب الذي يقول فيه: «إن الإنسان إذا كان قاطعاً بحكمة غيره ثم رأى أن ذلك الغير يفعل فعلاً لا يقف على وجه الحكمة فيه، فيقول له: أتفعل هذا! كأنه يتعجب من كمال حكمته وعلمه، ويقول: إعطاء هذه النعم لمن يفسد، من الأمور التي لا تهتدي العقول فيها إلى وجه الحكمة، فإذا كنت تفعلها وأعلم أنك لا تفعلها إلا لوجه دقيق وسر غامض أنت مطلع عليه فما أعظم حكمتك وما أَجَلَّ علمك!

فالحاصل: أنَّ قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ كأنه تعجب من كمال علم الله تعالى وإحاطة حكمته بما خفي على كل العقلاء(٤).

فهو كما يقول «صاحب المواقف» وشارحه: «استفسار عن الحكمة

---

(١) راجع: «روح المعاني» ١/ ٢٢١.
(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٢/ ١٦٨.
(٣) راجع: المصدر السابق ٢/ ١٦٨، ١٦٩، حيث ذكر جواب المعتزلة وجواب الحكماء وغيرهم وفي هذه الأجوبة كثير من التكلف، وهناك أجوبة ذكرها القرطبي في «تفسيره» ١/ ٢٧٤، ٢٧٥.
(٤) راجع: «التفسير الكبير» ٢/ ١٦٨.

الداعية إلى خلقهم لا إنكار على الله في خلقهم»[1].

ويذكر «شارح المقاصد» أن الغرض من قول الملائكة هذا هو التعجب والاستفسار عن حكمة استخلاف من يتصف بما لا يليق بذلك مع وجود الأَولى والأليق[2].

ويرى العلامة البيضاوي أن قول الملائكة لربهم راجع إلى تعجبهم من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية، واستكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها، فاستخبروا عما يرشدهم ويزيح شبهتهم، كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[3].

وبذلك فإن سؤال الملائكة لم يكن اعتراضاً على فعل الله سبحانه باستخلافه لمن أراد في الأرض، ولم يكن نابعاً من شك في اشتمال هذا الفعل على الحكمة والمصلحة إجمالاً، وذلك لأن مدار تعجبهم ليس خلق من يفسد في الأرض. كيف لا وأن ما يعقبه من الجملة الحالية الناطقة بدعوى أحقيتهم منه يقضي ببطلانه حتماً، إذ لا صحة لدعوى الأحقية منه بالخلق وهم مخلوقون، بل مدار هذا التعجب أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها بإجراء أحكام الله تعالى وأوامره، أو يستخلف مكان المطبوعين على الطاعة مَنْ مِنْ شأن بني نوعه الإفساد وسفك الدماء، وآدم عليه السلام وإن كان منزّهاً عن ذلك إلا أن استخلافه مستتبع لاستخلاف ذريته التي لا تخلو عنه غالباً.

---

(١) راجع: «شرح المواقف» ٣/٢١٦.

(٢) راجع: «شرح المقاصد» ٢/١٤٧.

(٣) راجع: «أنوار التنزيل» ١/٤٥.

وعليه؛ فإن الملائكة أظهروا تعجبهم استكشافاً عما خفي عليهم من الحكم التي بدت على تلك المفاسد وألغتها، واستخباراً عما يزيح شبهتهم ويرشدهم إلى معرفة ما فيه عليه السلام من الفضائل التي جعلته أهلاً لذلك؛ كسؤال المتعلم عما ينقدح في ذهنه(١).

ولذلك فإن الإمام الألوسي يذكر أن سؤال الملائكة كان استكشافاً عن الحكمة الخفية وعما يزيل الشبهة وليس استفهاماً عن نفس الجعل والاستخلاف؛ لأنهم قد علموه قبل، فالمسؤول عنه هو الجعل ولكن لا باعتبار ذاته بل باعتبار حكمته ومزيل شبهته(٢).

وقد اختار الإمام الطبري هذا الجواب، فبعد أن عرض لعدد من أقوال وآراء المفسرين في توجيه قول الملائكة وسؤالهم لربهم عز وجل ذكر أن «أولى هذه التأويلات بقول الله جلّ ثناؤه مخبراً عن ملائكته قيلها له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ هو تأويل من قال: إن ذلك استخبار لربها، بمعنى: يا ربنا أجاعل أنت في الأرض مَنْ هذه صفته، وتارك أن تجعل خلفاءك منا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟! لا إنكاراً منها لما أعلمها ربها أنه فاعل، وإن كانت قد استعظمت لما أخبرت بذلك أن يكون لله خلق يعصيه»(٣).

حيث يرى أن قوله تعالى بعد ذلك للملائكة ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ينبئ عن أن الملائكة حينما قالت لربها: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم» ١/ ٨٢.

(٢) راجع: «روح المعاني» ١/ ٢٢١.

(٣) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٤٦٩، ٤٧٠، ويذكر الطبري أن بعض أهل العربية قال: «قول الملائكة... على غير وجه الإنكار منهم على ربهم، وإنما سألوا ليعلموا، وأخبروا عن أنفسهم أنهم يسبحون، وقال: قالوا ذلك لأنهم كرهوا أن يعصى الله». راجع: المصدر السابق ص٤٦٩.

فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قد استفظعت أن يكون لله خلق يعصيه، وعجبت منه إذ أخبرت أن ذلك كائن[1].

ويذكر الحافظ ابن كثير أن قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول؛ أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً وأنهم سيفسدون، ـ وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في استخلاف هؤلاء الخلق فيقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؛ أي: ولا يصدر منّا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟

ولكن الله ﷻ يقول مجيباً لهم عن هذا السؤال:

﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم فإني سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء والعاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى والمتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم[2].

---

(١) راجع: المصدر السابق ص٤٧٩، ويذكر القرطبي نقلاً عن ابن زيد وغيره أن الملائكة قالوا هذه المقالة إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان الله من يستخلفه في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما عن طريق الاستعظام والإكبار للأمرين معاً: الاستخلاف والعصيان، ويذكر الرازي أن سؤالهم كان على وجه المبالغة في إعظام الله تعالى فإن العبد المخلص لشدة حبه لمولاه يكره أن يكون له عبد يعصيه. راجع: «تفسير القرطبي» ١/ ٢٧٤؛ و«تفسير الرازي» ٢/ ١٦٨.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٦٩.

فقد روي عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: فكان في علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة(١).

ولذلك فإن الإمام الرازي يجيب على من يقول: كيف يصلح أن يكون قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ جواباً عن السؤال الذي ذكره الملائكة؟ فيذكر الإمام الرازي أن السؤال كان للتعجب فيكون قوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ جواباً له من حيث إنه قال تعالى: لا تتعجبوا من أن يكون فيهم من يفسد ويقتل، فإني أعلم مع هذا بأن فيهم جمعاً من الصالحين والمتقين وأنتم لا تعلمون(٢).

فليس المراد بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ إذن؛ بيان أنه تعالى يعلم ما لا يعلمه الملائكة من الأشياء كائناً ما كان ـ كما قد يتوهم ـ فإن ذلك مما لا شبهة لهم فيه حتى يفتقروا إلى التنبيه عليه لا سيما بطريق التوكيد، بل بيان أن في المستخلف ﷺ وبنيه معاني مستدعية لاستخلافهم، إذ هو الذي خفي عليهم، وبنوا عليه ما بنوا من التعجب والاستبعاد، فـ﴿مَا﴾ موصولة كانت أم موصوفة عبارة عن تلك المعاني. والمعنى: إني أعلم ما لا تعلمونه من دواعي الخلافة(٣).

فبيّن الله سبحانه للملائكة بذلك القول على وجه الإجمال والإبهام أن فيه فضائل غائبة عنهم ليستشرفوا إليها، ثم أبرز لهم طرفاً منها ليعاينوه

---

(١) راجع: المصدر السابق ١/ ٧١؛ و«تفسير الطبري» ١/ ٤٧٩.
وقد ثبت في «الصحيح» أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون. يذكر الحافظ ابن كثير أن قولهم هذا هو من تفسير قول الله سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾. راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٦٩.
(٢) راجع: «التفسير الكبير» ٢/ ١٧٤.
(٣) راجع: «إرشاد العقل السليم» ١/ ٨٣.

جهرة، ويظهر لهم بديع صنعه وحكمته، وينزاح شبهتهم بالكلية، حيث شعر في تفصيل ما أجمله من الجواب فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١].

يذكر الرازي أن الملائكة لما سألوا عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته وإسكانه تعالى إياهم في الأرض، وأخبر الله تعالى عن وجه الحكمة في ذلك على سبيل الإجمال بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أراد تعالى أن يزيدهم بياناً، وأن يفصل لهم ذلك المجمل فبيّن تعالى لهم من فضل آدم عليه السلام ما لم يكن من ذلك معلوماً لهم، وذلك بأن علّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم عليهم ليظهر بذلك كمال فضله وقصورهم عنه في العلم، فيتأكد ذلك الجواب الإجمالي بهذا الجواب التفصيلي[(١)].

فما كان من الملائكة عليهم السلام إلا أن أعلنوا لربهم خاشعين ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وقد احتج نفاة العصمة عن الملائكة بذلك الذي قالته الملائكة فرأوا أنه عبارة عن توبة[(٢)]. حيث زعموا أنهم بعد أن أتوا بالمعصية في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ رجعوا وتابوا واعتذروا عن خطئهم بعد أن عرفوا خطأهم فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢/ ١٧٥؛ و«تفسير أبي السعود» ١/ ٨٣.

(٢) يرى البعض أن قولهم يشبه التوبة ولكن لا عن ذنب مخل بالعصمة بل عن ترك أولى بالنسبة إلى علو شأنهم ورفعة مقامهم، إذ اللائق بحالهم على العلات أن يتركوا الاستفسار ويقفوا مترصدين؛ لأن يظهر حقيقة الحال. راجع: «أنوار التنزيل» ١/ ٤٧؛ و«روح المعاني» ١/ ٢٢٦، ٢٢٧.

لكن العلماء الذين يثبتون عصمة الملائكة وينفون عنهم المعصية ذكروا في ذلك وجهين:

الوجه الأول: أنهم إنما قالوا ذلك على وجه الاعتراف بالعجز والتسليم بأنهم لا يعلمون ما سئلوا عنه، وذلك لأنهم قالوا: إنا لا نعلم إلا ما علمتنا فإذا لم تعلمنا ذلك فكيف نعلمه.

الوجه الثاني: أن الملائكة إنما قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ لأن الله تعالى أعلمهم ذلك فكأنهم قالوا: إنك أعلمتنا أنهم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء فقلنا لك: أتجعل فيها من يفسد فيها، وأما هذه الأسماء فإنك ما أعلمتنا كيفيتها فكيف نعلمها؟![1].

فالغرض إذن من جواب الملائكة هو: الاعتراف بالعجز عن أمر الخلافة، والقصور عن معرفة الأسماء على أبلغ وجه، كأنهم قالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا، ولم تعلمنا الأسماء فكيف نعلمها؟

وفي الجواب أيضاً إشعار بأن سؤالهم لربهم لم يكن اعتراضاً وأنه لم يكن إلا استفساراً، إذ لا علم لهم إلا من طريق التعليم، ومن جملته علمهم بحكمة الاستخلاف مما تقدم ـ فهو بطريق التعليم أيضاً ـ فالسؤال المترتب عليه هو سؤال مستفسر لا معترض.

وفيه أيضاً ثناءٌ عليه سبحانه بما أفاض عليهم، وشُكْرٌ لنعمته بما عرفهم وكشف لهم ما اعتقل عليهم، مع غاية التواضع ومراعاة الأدب وترك الدعوى، ولهذا كله لم يقولوا: لا علم لنا بالأسماء، مع أن مقتضى الظاهر ذلك، لكنهم فوّضوا العلم كله إليه، وقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية ـ وهذه إشارة إلى تحقيقهم لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ـ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المحكم

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» للرازي ٢/ ٢٠٩؛ و«تفسير البحر المحيط» لأبي حيان ١/ ١٤٨.

لمبدعاته ومصنوعاته، الفاعل لها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة(١).

ويرى العلّامة أبو السعود أن قولهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هو تعليل لما سبق من قصر علمهم بما علمهم الله تعالى، وما يفهم من ذلك من علم آدم عليه السلام بما خفي عليهم، فكأنهم قالوا: أنت العالم بكل المعلومات التي من جملتها استعداد آدم عليه السلام لما نحن بمعزل من الاستعداد له من العلوم الخفية المتعلقة بما في الأرض من أنواع المخلوقات التي عليها يدور فلك خلافة الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، ومن جملته تعليم آدم عليه السلام ما هو قابل له من العلوم الكلية والمعارف الجزئية المتعلقة بالأحكام الواردة على ما في الأرض وبناء أمر الخلافة عليها(٢).

---

(١) راجع: «أنوار التنزيل» للبيضاوي ١/ ٤٧؛ و«إرشاد العقل السليم» لأبي السعود ١/ ٨٥؛ و«روح المعاني» للألوسي ١/ ٢٢٦.

(٢) راجع: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ١/ ٨٥، ٨٦.

الفصل الثاني

الشبهة الثانية:
في أن إبليس كان من الملائكة

احتج النافون لعصمة الملائكة بأن إبليس كان من الملائكة المقربين ثم إنه عصى الله وتعالى وكفر، وذلك يدل على صدور المعصية من جنس الملائكة، وهذا الأمر لم يتفق عليه حتى يتم الاحتجاج به.

فقد اختلف العلماء في هذه المسألة:

يذكر الرازي أن كثيراً من الفقهاء ذهبوا إلى أن إبليس كان من الملائكة، وأن بعض المتكلمين ولا سيما المعتزلة ذهبوا إلى أنه لم يكن منهم، وإنما كان من الجن[1]. ولذلك فإنه ينبغي أن أعرض لهذين القولين:

المبحث الأول

القول الأول:
القائلون بأن إبليس كان من الملائكة

يذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أن ﴿إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتصل؛ لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور: ابن عباس

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢/ ١٦٨، ٢٢٩؛ راجع أيضاً: «الشفا» للقاضي عياض ٢/ ٨٥٨.

وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب، وقتادة وغيرهم، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن وورجحه الطبري وهو ظاهر الآية[1].

يقول الطبري: «وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الله جلّ ثناؤه خلق أصناف ملائكته من أصناف من خلقه شتى: فخلق بعضاً من نور، وبعضاً من نار، وبعضاً مما شاء من غير ذلك، وليس في ترك الله جلّ ثناؤه الخبر عما خلق منه ملائكته وإخباره عما خلق منه إبليس ما يوجب أن يكون إبليس خارجاً عن معناهم؛ إذ كان جائزاً أن يكون خلق صنفاً من ملائكته من نار؛ كان منهم إبليس، وأن يكون إفراد إبليس بأن خلقه من نار السموم دون سائر ملائكته»[2].

وقد اعتمد الطبري في هذا القول هو ومن تابعه على عدة آثار وردت عن عدد من الصحابة والتابعين الذين أشار إليهم القرطبي من قبل.

فقد روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم: «الجن» خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت.

وقال الضحاك عن ابن عباس أيضاً: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان السماء

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ١/ ٢٩٤؛ راجع أيضاً: «البحر المحيط» لأبي حيان ١/١٥٣ وقد ذكر أنه على هذا يكون إبليس ملكاً ثم أُبلِس وغُضِب عليه ولُعِن فصار شيطاناً.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٥٠٨.

الدنيا، وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله، واستخرج الله ذلك الكبر من حيث أمره بالسجود لآدم فاستكبر وكان من الكافرين.

وقال سعيد بن جبير ـ ناقلاً عن ابن عباس أيضاً ـ: هو من خزان الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا.

وقال سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس: قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً، فلذلك دعاه إلى الكبر وكان من حي يسمونه جناً، ونقل عنه ابن جريج قوله: «إن من الملائكة قبيلة من الجن وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى فسخط الله عليه فمسخه شيطاناً رجيماً لعنه الله ممسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترْجُه، وإذا كانت في معصية فارْجُه»[(١)].

وقال السدي في «تفسيره» عن أبي مالك عن ابن عباس، وعن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم: الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خزّان الجنة، وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره، وقال: ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي على الملائكة، فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك فقال الله للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالوا: وما يكون

---

(١) راجع تفصيل هذه الروايات في: «تفسير الطبري» ١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٦؛ و«تفسير القرطبي» ١/ ٢٩٤، ٢٩٥؛ و«تفسير القرآن العظيم» ١/ ٧٥ ـ ٧٧، ٣/ ٨٨، ٨٩.

ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم البعض، ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ يعني: من شأن إبليس، إلخ ما ورد في هذا الأثر(١).

ومن الواضح أن الذين رجحوا كون إبليس من الملائكة قد اعتمدوا في ترجيحهم على هذه الآثار وتلك المرويات، فاعتقدوا صحتها، وقاموا بتأويل ما ورد من الآيات حتى تتفق مع ما ذهبوا إليه، ونادوا بترجيحه.

ولكن الحافظ ابن كثير رحمه الله قد عقب على رواية السدي الأخيرة بقوله: «فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة»(٢).

وإذا كان هذا هو رأيه في هذه الرواية والذي ذكره في الجزء الأول من تفسيره، فإنه قد عقب أيضاً على الروايات السابقة التي ذكرتها، في الجزء الثالث من تفسيره(٣).

حيث يقول: «وقد روي في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذا الأمة من الأئمة

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٧٦.

(٢) راجع: المصدر السابق ١/ ٦٧ - ٧٧.

(٣) وذلك في تفسيره لقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقّاد، والحافظ الجياد الذين دوّنوا الحديث وحرروه وبيّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال.

كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل!(١).

وبذلك فإن الروايات التي اعتمد عليها القائلون بأن إبليس كان من الملائكة، لا يجوز الاستشهاد بها ولا يصح الاعتماد عليها؛ لأنها كما يقول الخبراء في هذا المجال عبارة عن إسرائيليات مكذوبة ومنكرة.

ومن ثم تكون قد فقدت قيمتها العلمية، ولا بد من الاستغناء عنها والاكتفاء بما ورد من ذلك في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة والمعتمدة.

لكن بقي أن أشير إلى أن أصحاب هذا القول قد اعتمدوا بجانب تلك الروايات المذكورة على بعض الآيات القرآنية حيث فهموا منها أنها ترجح القول بأن إبليس كان من الملائكة.

حيث يذكر الطبري أن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، يثبت أن كلمة الجن تطلق على الملائكة، ويفسر هذه الآية الكريمة بقول قريش: إن الملائكة بنات الله، فيقول الله: إن تكن الملائكة بناتي فإبليس منها، وقد جعلوا بيني وبين إبليس وذريته نسباً!!

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ٨٩.

وبناءً عليه، فإنه يفسر قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ أي: كان من الملائكة، وذلك أن الملائكة اجتنوا فلم يروا[1].

كذلك فإنه يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. على أن إبليس كان من الملائكة حيث استثناه الله منهم.

يذكر الطبري أن الله سبحانه يخاطب بهذه الآية اليهود[2]. الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ من بني إسرائيل معدداً عليهم نِعَمِهِ، ومذكرهم آلاءه فيقول: اذكروا فعلي بكم إذ أنعمت عليكم فخلقت لكم ما في الأرض جميعاً، وإذ قلت للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة فكرّمت أباكم آدم بما آتيته من علمي وفضلي وكرامتي، وإذ أسجدت له ملائكتي فسجدوا له، ثم استثنى من جمعهم إبليس، فدل باستثنائه إياه منهم على أنه منهم، وأنه ممن قد أمر بالسجود معهم كما قال جل ثناؤه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: ١١، ١٢].

فأخبر جل ثناؤه أنه قد أمر إبليس فيمن أمره من الملائكة بالسجود لآدم، ثم استثناه جلّ ثناؤه مما أخبر عنهم أنهم فعلوه ـ للسجود لآدم ـ، فأخرجه من الصفة التي وصفهم بها من الطاعة لأمره، ونفى عنه ما أثبته لملائكته من السجود لعبده آدم»[3].

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٥٠٥.

(٢) من الواضح أن خطاب الله سبحانه لليهود في هذه الآية مستبعد جداً ولولا أن هذا خارج عن موضوع البحث لقمت بتحقيقه.

(٣) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٥٠١، ٥٠٢.

المبحث الثاني

القول الثاني:

القائلون بأن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة

أشار الإمام الطبري إلى القول الثاني الذي ذهب القائلون به إلى أن إبليس لم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن فذكر عدة روايات منها ما ورد عن الحسن أنه قال: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس».

وروىٰ عن قتادة أنه قال: كان الحسن يقول في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ ألجأه إلى نسبه، فقال الله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾﴾، وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم.

ونقل عن شهر بن حوشب أنه قال في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، ونقل عن أبي وهب قوله: قال ابن زيد: إبليس أبو الجن، كما آدم أبو الإنس(١).

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/٥٠٦، ٥٠٧.

من العجيب أن الإمام الطبري قد تحمس للقول الأول حيث يرى أن إبليس كان من الملائكة في «تفسيره»، لكنه في كتابه «التاريخ» أشار إلى اختلاف السلف من الصحابة والتابعين في هذه المسألة، ثم عرض للأقوال المختلفة وانتهى إلى أن أولى الأقوال في ذلك عنده بالصواب: «أن يقال كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾، وجائز أن يكون فسوقه عن أمر ربه كان من أجل أنه كان من الجن، وجائز أن يكون من أجل إعجابه بنفسه؛ لشدة اجتهاده في عبادة ربه، وكثرة علمه، وما كان أوتي من ملك السماء الدنيا والأرض وخزن الجنان، وجائز أن يكون كان لغير ذلك من الأمور، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر تقوم به الحجة، ولا خبر =

وبعد أن يعرض لهذه الروايات يعقب عليها فيذكر أن «علة من قال هذه المقالة، أن الله جلّ ثناؤه أخبر في كتابه أنه خلق إبليس من نار السموم، ومن مارج من نار، ولم يخبر عن الملائكة أنه خلقها من شيء من ذلك، وأن الله جل ثناؤه أخبر أنه من الجن، فقالوا: فغير جائز أن ينسب إلى غير ما نسبه الله إليه، قالوا: ولإبليس نسل وذرية، والملائكة لا تتناسل ولا تتوالد»(١).

ولذلك فإن الذين قالوا بأن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة قد اعتمدوا بجانب الروايات المشار إليها على عدة أدلة وبراهين منها:

أولاً: اعتمد القائلون بأن إبليس ليس من الملائكة على ما ورد في كتاب الله تعالى حيث ورد نص صريح بأن إبليس كان من الجن قبل أن يؤمر بالسجود لآدم عليه السلام. يقول تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول الزمخشري: قوله: «كان من الجن» كلام مستأنف جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأن قائلاً قال: ما له لم يسجد؟ فقيل: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ والفاء للتسبيب أيضاً، حيث جعل كونه من الجن سبباً في فسقه؛ لأنه لو كان ملكاً كسائر من

= في ذلك عندنا كذلك والاختلاف في أمره على ما حكيناه ورويناه».

ومن الواضح أن الطبري هنا في «تاريخه» لم يتحمس لرأي معين في هذه المسألة وآثر التوقف، وإن كان قد غلب عليه ميله إلى القائلين بأن إبليس كان من الجن. راجع: «تاريخ الطبري» ١/ ٨٥ ـ ٨٨.

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/ ٥٠٧.

سجد لآدم لم يفسق عن أمر ربه؛ لأن الملائكة معصومون البتة، لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس كما قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]»[١].

ثم يذكر الزمخشري أن هذا الكلام المعترض تعمد من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم، فما أبعد البون بين ما تعمَّده الله[٢] وبين قول من ضادَّه وزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة فعصى ولُعِن ومسخ شيطاناً ثم ورَّكه على ابن عباس[٣].

ويرى الإمام أبو منصور الماتريدي: أن الله ﷻ حينما يقول: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ ولم يقل كان من الملائكة، يدل على أن إبليس لم يكن من الملائكة[٤].

ويذكر الإمام الرازي أنه ما دام قد ثبت أنه كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ يجب أن لا يكون من الملائكة[٥].

وإذا كان قد اعترض على هذا الاستدلال بتلك الآية الكريمة بما قيل إن الجن كلمة تطلق على ما اجتن من الأشياء عن الأبصار، وعليه

---

(١) راجع: «الكشاف» ٢/ ٤٨٧، ٤٨٨.

(٢) علق صاحب «الإنصاف» على كلام الزمخشري في قوله: «كان من الجن» بأن معه الحق فيه، غير أن قوله: «تعمده الله» تعالى لفظة لا تروق ولا تليق، فإن التعمد إنما يوصف به عرفاً من يفعل في بعض الأحيان خطأ وفي بعضها تعمداً، فاجتنابها في حق الله تعالى واجب». راجع: «الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال» لابن المنير ص٤٨٨.

(٣) راجع: «الكشاف» ٢/ ٤٨٨.

(٤) راجع: «تأويل أهل السُّنة» تفسير الماتريدي ١/ ١٠٣، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

(٥) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢/ ١٩٥.

يكون إبليس والملائكة منهم، لاجتنانهم عن أبصار بني آدم[1]. فإن هذا الاعتراض مبني على ما ورد في الروايات التي تبين لنا آنفاً بطلان الاستشهاد بها والاعتماد عليها.

يضاف إلى ذلك أنه لا يجوز أن يكون المراد من قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أنه كان خازن الجنة؛ لأنه قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ يشعر بتعليل تركه للسجود بكونه خازناً للجنة، فيبطل بذلك قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: صار من الجن؛ لأنه هذا خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا عند الضرورة[2].

جاء في «شرح المواقف» أن إبليس كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ وقد صح الاستثناء وتناول الأمر للغلبة؛ أي: لتغليب الكثير على القليل في إطلاق الاسم كما عرف في موضعه.

وكون طائفة من الجن مسمين بالجن خلاف الظاهر؛ لأن المتبادر من لفظ الجن ما لا يدخل تحت الملك مع أن ذكره هنا (أي: ذكر كونه من الجن) في معرض التعليل لاستكباره وعصيانه، كما يتبادر من نظم الآية يأباه؛ أي: يأبى كونه من الملائكة؛ لأن طبيعة الملك لا يقتضي المعصية أو يأبى كون الجن اسماً لطائفة من الملائكة[3].

ويذكر التفتازاني في «شرح المقاصد» أن إبليس لم يكن من الملائكة بل كان من الجن ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾، وإنما درج في

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١/٥٠٨.

(٢) راجع: «التفسير الكبير» ٢/٢١٣، ٢١٤.

(٣) راجع: «شرح المواقف» ٣/٢١٦.

الملائكة على سبيل التغليب لكونه جنياً واحداً مغموراً فيما بينهم، ثم بيّن أنه لا يجوز أن يقال في معنى قوله: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ صار أو كان من طائفة من الملائكة مسماة بالجن شأنهم الاستكبار لأن هذا خلاف الظاهر(١).

ولذلك فإن الحافظ ابن كثير يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾؛ أي: خرج عن طاعة الله عمداً وعناداً واستكباراً عن امتثال أمره، وما ذاك إلا لأنه خانه أصله وطبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها فإنه مخلوق من نار(٢)، وأصل خلق الملائكة من نور كما ثبت في «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»(٣). فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبّه بهم وتعبّد وتنسّك فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة، ونبّه تعالى ههنا على أنه من الجن؛ أي: على أنه خلق من نار كما قال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(٤). وهذا هو الدليل الثاني.

ثانياً: فقد استدل القائلون بأن إبليس لم يكن من الملائكة بأنه مخلوق من النار والملائكة ليسوا كذلك.

---

(١) راجع: «شرح المقاصد» ٢/ ١٤٧.

(٢) تأثر ابن كثير في ذلك بما أورده الطبري عن الحسن ـ وسبقت الإشارة إليه ـ حينما قال في هذه الآية: «ألجأه إلى نسبه».

(٣) راجع نص الحديث في: «صحيح مسلم بشرح النووي» ١٨/ ١٢٣، المكتبة التجارية، والحديث رقم (٢٩٩٦) من طبعة «صحيح مسلم»، تحقيق وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي ج٤، دار إحياء الكتب العربية.

(٤) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٤/ ٨٨؛ راجع أيضاً كتابه: «البداية والنهاية» ١/ ٦٧.

يقول الرازي: «إنما قلنا: إن إبليس مخلوق من النار لقوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾، وأيضاً فلأنه كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ والجن مخلوقون من النار لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ وأما أن الملائكة ليسوا مخلوقين من النار بل من النور، فلما روى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ ـ والذي سبقت الإشارة إليه ـ ولأن من المشهور الذي لا يدفع، أن الملائكة روحانيون»(١).

ثالثاً: استدل القائلون بأن إبليس لم يكن من الملائكة لأن من خصائصهم أنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهو قد استكبر حيث يقول عن الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

ويقول سبحانه عن إبليس ـ لعنة الله عليه ـ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [صٓ: ٧٥].

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣].

وقد عُدَّ تركه السجود إباء واستكباراً حينئذ ـ فيما يقول الألوسي ـ إما لأنه كان ناشئاً بين الملائكة مغموراً بالألوف منهم

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» ٢/ ٢١٤؛ و«روح المعاني» ١/ ٢٢٩.

فغلبوا عليه وتناوله الأمر بالسجود ولكنه لم يمتثل، أو لأن الجن كانوا أيضاً مأمورين من الملائكة، ولكنه استغني عن ذكرهم لمزيد شرفهم عن ذكر الجن.

أو لأنه ـ عليه اللعنة ـ كان مأموراً أمراً صريحاً لا ضمناً كما يشير إليه ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢][١].

رابعاً: من الأدلة التي اعتمد عليها القائلون بأن إبليس لم يكن من الملائكة أن له ذرية والملائكة لا ذرية لهم، فوجب أن لا يكون إبليس من الملائكة:

وإنما قلنا: إن إبليس له ذرية لقوله تعالى في صفته: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف: ٥٠].

وهذا صريح في إثبات الذرية له، وقد سئل الشعبي: هل لإبليس زوجة؟ قال: ذلك عرس لم أشهده! قال: ثم قرأت هذه الآية فعلمت أنه لا يكون له ذرية إلا من زوجة[٢].

وإنما قلنا: إن الملائكة لا ذرية لهم؛ لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى، والملائكة لا أنثى فيهم لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

---

(١) راجع: «روح المعاني» ١/ ٢٢٩؛ راجع أيضاً: «تفسير الفخر الرازي» ٢٠/ ٤٥.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٢/ ٢١٤؛ و«تفسير القاسمي» ٢/ ١٠٤؛ و«روح المعاني» ٥/ ٢٩٤، ٢٩٥.

فهو ردٌّ من الله تعالى على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن الله: أن الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً، ثم ادعوا أنها بنات الله ثم عبدوهم، فأخطؤوا في كل من المقامات الثلاثة خطأً عظيماً، فقال تعالى منكراً عليهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؛ أي: خصصكم بالذكور واتخذ من الملائكة إناثاً؛ أي: واختار لنفسه على زعمكم البنات؟! ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

والمقصود هنا أنه سبحانه أنكر على من حكم على الملائكة بالأنوثة فإذا انتفت الأنوثة انتفى التوالد لا محالة فانتفت بذلك الذرية[1].

ومن ثم يكون إبليس ليس من الملائكة لأن له نسلاً وذرية، أما الملائكة فلا تتناسل ولا تتوالد وليس لها ذرية.

خامساً: استدل القائلون بأن إبليس لم يكن من الملائكة بما ذكره الله ﷻ عن طاعة الملائكة له بقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقوله تعالى أيضاً عنهم: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

يذكر الإمام الماتريدي أن الله تبارك وتعالى بذلك قد وصف طاعتهم له

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢/ ٢١٤، ٢١/ ١٣٦، ١٣٧؛ و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٣/ ٤١، ٤/ ١٢٥.

وائتمارهم إياه، فلو كان اللعين الرجيم منهم - أي: الملائكة - لأطاعه كما أطاعوه[1]. ولكنه لم يفعل وإنما عصى وتكبّر وكان من الكافرين.

سادساً: استدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

هذه الآية تبين لنا أن الملائكة ينفون عن أنفسهم أنهم ما أمروهم بعبادتهم وإنما كانوا يعبدون الجن.

يقول ابن كثير: «يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾؛ أي: أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]، وكما يقول لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦].

وهكذا تقول الملائكة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تعاليت وتقدّست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ﴾؛ أي: نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ﴾؛ يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زيّنوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾»[2].

---

(١) راجع كتابه: «تأويلات أهل السُّنة» ١/١٠٣.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٣/٥٤٢.

ويذكر الرازي: أن هذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملائكة، ولما كان إبليس من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة[1].

وبذلك فإن هذه الآية الكريمة تدل على كل ما ورد في الروايات السالفة الذكر من أن الجن كانوا قبيلة من قبائل الملائكة حيث أثبت على جهة القطع أن الجن غير الملائكة.

أما ما استشهد به أصحاب القول الأول من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]. واستدلوا به على أن الجِنة هنا المراد بهم الملائكة، فهو استدلال ضعيف.

وذلك لأن هذه الآية قد سبقتها آيات تتحدث عن وصف الكفار للملائكة بالإناث وإنكار الله سبحانه عليهم فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٤٩ ـ ١٥٧].

فبذلك يكون سبحانه قد أبطل قولهم: «الملائكة بنات الله» ثم عطف عليه قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ والعطف يقتضي كون المعطوف مغايراً للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما ذكره بعض المفسرين واستدل به الطبري.

يضاف إلى ذلك أنه قد ورد عن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾: أشركوا الشيطان في عبادة الله؛ فهو النسب

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢/ ٢١٣.

الذي جعلوه، واستحسن القرطبي هذا القول مستدلاً بقول ابن عباس والضحاك والحسن أيضاً: هو قولهم إن الله تعالى وإبليس أخوان، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[1].

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قول العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ[2].

وقد رجح الإمام الرازي أيضاً هذا الرأي مبيناً أن قوماً من الزنادقة يقولون: الله وإبليس أخوان فالله ـ سبحانه ـ هو الخير الكريم وإبليس هو الأخ الشرير الخسيس، وأن مذهبهم هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ ثم أشار إلى أن هذا هو مذهب المجوس القائلين بيزدان وأهرمن[3].

وبذلك يكون قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ المراد بهم أيضاً الجن أو الشياطين، ومعناه: أن الجنة قد علمت أن الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون[4].

سابعاً: ذكر القائلون بأن إبليس لم يكن من الملائكة بأن الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ استثناء متصل أو منقطع، لكونه كان مغموراً فيهم متخلقاً بأخلاقهم، حيث ذكر هذا العلامة الفاسي في «شرحه على القاموس» وبين أن هذا هو رأي الجمهور[5].

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾: استثناء متصل

---

(١) راجع: «تفسير القرطبي» ١٥/ ١٣٤، ١٣٥.
(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٤/ ٢٣.
(٣) راجع: «التفسير الكبير» ٢٦/ ١٦٨.
(٤) راجع: المصدر السابق.
(٥) راجع: «تفسير القاسمي» ١٤/ ٥٠٦٦، ٥٠٦٧.

لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم فغلبوا عليه في قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ ثم استثني منهم استثناء واحد منهم، ويجوز أن يجعل منقطعاً[1].

ويكون في ذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾، كما ذكر القرطبي[2]، ثم تساءل الزمخشري قائلاً: إبليس كان جنياً بدليل قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فمن أين تناوله الأمر وهو للملائكة خاصة؟

وأجاب عن ذلك بقوله:

كان في صحبتهم، وكان يعبد الله تعالى عبادتهم، فلما أمروا بالسجود لآدم والتواضع له كرامة له كان الجني الذي معهم أجدر بأن يتواضع، كما لو قام لمقبل على المجلس عليه أهله وسراتهم كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب حتى إن لم يقم عنِّف، وقيل له: قد قام فلان وفلان فمن أنت حتى تترفع عن القيام؟!

ثم يتساءل مرة أخرى: فكيف صح استثناؤه وهو جني عن الملائكة؟ ويجيب: عمل على حكم التغليب في إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه، فأخرج الاستثناء على ذلك كقولك: خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال[3].

يقول القاضي عياض:

«والاستثناء من غير الجنس شائع في كلام العرب سائغ، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ والظن ليس من

(١) راجع: «الكشاف» ١/ ٢٧٣.
(٢) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ١/ ٢٩٤.
(٣) راجع: «الكشاف» ٢/ ٥٥٥.

العلم، وكذا اتباعه، وقد أخرج منه وليس من جنسه؛ أي: لكنهم اتبعوا الظن فيما زعموه»[١].

جاء في «تفسير الماتريدي» أنه يجوز الاستثناء من غير نوع المستثنى منه نحو ما يقال: دخل أهل الكوفة هذه الدار إلا رجلاً من أهل المدينة، وذلك جائز في اللغة، ويستدل بالاستثناء أن الأمر كان عليهم جميعاً في الأصل، وكان الأمر بالسجود له وللملائكة جميعاً كقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ دل أن كان هنالك أمر للناس بالإفاضة فكذلك الأول[٢].

وينتهي الحافظ ابن كثير إلى أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم؛ لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبّه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر[٣].

وهكذا، تبين لنا مدى قوة هذه الأدلة التي استشهد بها أصحاب القول الثاني؛ حيث برهنوا بها على أن إبليس كان من الجن ولم يكن أبداً من الملائكة.

وبناء عليه؛ فإنه لا حجة للقائلين بعدم عصمة الملائكة جميعهم، حيث ثبت أن ما تعللوا به حتى قالوا بهذا القول لا يصح الاعتماد عليه ولا يجوز الاستدلال به.

ولذلك فإن القاضي عياض يذكر أن مما احتج به القائلون بعدم عصمة جميع الملائكة قصة إبليس وأنه كان من الملائكة ورئيساً فيهم ومن خزان الجنة.. إلى آخر ما حكوه، وأنه استثناه من الملائكة بقوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

---

(١) راجع: كتابه «الشفا» ٢/٨٥٨.
(٢) راجع: «تأويلات أهل السُّنة» ١/١٠٣، ١٠٤.
(٣) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/٧٧.

ثم ينتهي إلى أن ما قالوه في هذا المجال لم يتفق عليه، بل الأكثرون ينفون ذلك، وأنه أبو الجن، كما أن آدم أبو الإنس[١].

وجاء في «روح المعاني» أن القول بأن إبليس كان من الجن ولم يكن من الملائكة هو قول كثير من العلماء حتى قال الحسن فيما أخرجه ابن المنذر، وابن أبي حاتم: قاتل الله تعالى أقواماً زعموا أن إبليس من الملائكة، والله تعالى يقول: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[٢].

---

(١) راجع: كتابه «الشفا» ٢/ ٨٥٣، ٨٥٨.

(٢) راجع: «تفسير الألوسي» ١٥/ ٢٩٢.

الفصل الثالث

الشبهة الثالثة:
قصة هاروت وماروت

تمسك النافون لعصمة الملائكة بما سموه «قصة هاروت وماروت» حيث احتجوا بما ورد فيها عن هذين الملكين وما وقع لهما، وما حدث منهما، على أنهما غير معصومين، وبناء عليه أنكروا عصمة جميع الملائكة.

يذكر القاضي عياض: أن مما احتج به من لم يوجب عصمة جميع الملائكة قصة هاروت وماروت، وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقلة المفسرين، وما روي عن علي وابن عباس في خبرهما وابتلائهما[1].

فقد أورد السيوطي في كتابه «الدر المنثور» في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾: روايات كثيرة وقصصاً عجيبة رويت عن ابن عمر، وابن مسعود، وعلي، وابن عباس، ومجاهد، وكعب، والربيع، والسدي، رواها ابن جرير الطبري في «تاريخه» و«تفسيره»، وابن مردويه، والحاكم، وابن المنذر، وابن أبي الدنيا، والبيهقي، والخطيب في كتبهم[2].

---

(١) راجع: «الشفا» ٢/٨٥٣؛ و«مفاتيح الغيب» للإمام الرازي ٢/١٦٧، ١٦٨.

(٢) راجع تفاصيل هذه الروايات في: «الدر المنثور» ١/٢٣٨ ـ ٢٥٠، دار الفكر، بيروت؛ و«تفسير الطبري» ٢/٤٢٧ ـ ٤٤٢، دار المعارف، الطبعة الثانية؛ و«تفسير ابن كثير» ١/١٣٩ ـ ١٤٢؛ و«تفسير الرازي» ٢/١٦٧، ٣/٢١٩؛ و«روح المعاني» للألوسي ١/٣٤٠، ٣٤١؛ و«تفسير القاسمي» ١/٢١١، ٢١٢؛ و«تفسير القرطبي» =

وخلاصة هذه الروايات: أنه لما وقع الناس من بني آدم فيما وقعوا فيه من المعاصي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: أي رب، هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك، وطاعتك، وقد ركبوا الكفر، وقتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، والسرقة، والزنا، وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم، ولا يعذرونهم، فقيل لهم: إنهم في غيب! فلم يعذروهم.

وفي بعض الروايات: أن الله قال لهم: لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم، قالوا: سبحانك، ما كان ينبغي لنا، وفي رواية أخرى: قالوا: لا، فقيل لهم: اختاروا منكم ملكين آمرهما بأمري، وأنهاهما عن معصيتي، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، وركبت فيهما الشهوة، وأمرا أن يعبدا الله، ولا يشركا به شيئاً، ونهيا عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، والسرقة، والزنا وشرب الخمر، فلبثا على ذلك في الأرض زماناً، يحكمان بين الناس بالحق.

وفي ذلك الزمان ذهبت إليهما امرأة حسنها في الناس كحسن الزهرة في سائر الكواكب، فأراداها على نفسها، فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها، وأنهما سألاها عن دينها، فأخرجت لهما صنماً، فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فصبرا ما شاء الله، ثم أتيا عليها فخضعا لها بالقول، فأراداها على نفسها، فأبت إلا أن يكونا على دينها، وأن يعبدا الصنم؛ قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث:

= ٢/ ٥١، ٥٢؛ و«الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» ص٢٢٤ ـ ٢٢٦.

إما أن تعبدا هذا الصنم، أو تقتلا النفس، أو تشربا هذا الخمر، فقالا: هذا لا ينبغي، وأهون الثلاثة شرب الخمر، وسقتهما الخمر، حتى إذا أخذت الخمر فيهما وقعا بها؛ أي: فعلا بها الفاحشة، فمر بهما إنسان وهما في ذلك، فخشيا أن يفشي عليهما، فقتلاه، فلما أن ذهب عنهما السكر، عرفا ما قد وقعا فيه من الخطيئة، وأرادا أن يصعدا إلى السماء، فلم يستطيعا، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما قد وقعا فيه من الذنوب، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض، فلما وقعا فيما وقعا فيه من الخطيئة، قيل لهما: اختارا: عذاب الدنيا، أو عذاب الآخرة، فقالا: أما عذاب الدنيا فينقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل فهما بها يعذبان معلقين بأرجلهما بين السماء والأرض يعلمان الناس السحر.

ثم لهم في الزهرة قولان:

أحدهما: أن الله تعالى لما ابتلى الملكين بشهوة بني آدم أمر الله الكوكب الذي يقال له الزهرة وفلكها أن اهبطا إلى الأرض إلى أن كان ما كان، فحينئذ ارتفعت الزهرة وفلكها إلى موضعهما من السماء موبخين لهما على ما شاهداه منهما.

والقول الثاني: أن المرأة كانت فاجرة من أهل الأرض وواقعاها بعد شرب الخمر وقتل النفس وعبادة الصنم، ثم علماها الاسم الذي كانا به يعرجان إلى السماء فتكلمت به وعرجت إلى السماء، وكان اسمها «بيدخت» فمسخها الله وجعلها هي الزهرة.

المبحث الأول

بطلان هذه الروايات من ناحية السند

وقد عقب علماء الحديث على هذه الروايات بأنها من الإسرائيليات:

يذكر الحافظ ابن كثير - بعد أن أوردها في تفسيره - أنه «قد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين؛ كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق والمعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

فظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى»(١).

وبيَّن في كتابه «البداية والنهاية» أنه قد ورد في قصة هاروت وماروت وما كان من أمرهما آثار كثيرة ذكرها المفسرون غالبها إسرائيليات، وذكر أن ما اشتهر في ذلك هو من وضع الإسرائيليين، ثم أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل(٢).

ولم يقف بعض رواة هذا القصص الخرافي الباطل عند روايته عن بعض الصحابة والتابعين، ولكنهم أوغلوا في باب الإثم، والتجني الفاضح فألصقوا هذا الزور إلى سيدنا رسول الله ﷺ ورفعوه إليه.

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ١٤١.

(٢) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ٣٣.

تحت عنوان «ذكر الحديث الوارد في ذلك إن صح سنده ورفعه وبيان الكلام عليه» نقل الحافظ ابن كثير عن الإمام أحمد بن حنبل رحم الله تعالى حيث روى في «مسنده» عن موسى بن جبير عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «**إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة: أي رب ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان. قالوا: ربنا: هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك! فقالا: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً! فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أبيتما علي إلا قد فعلتماه حين سكرتما، فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا**»[(١)].

وقد عقب الحافظ ابن كثير بقوله: «وهكذا رواه أبو حاتم ابن حبان في «صحيحه»... وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين إلا موسى بن جبير هذا...». وبعد أن أشار إلى رواية ابن مردويه[(٢)]، أورد رواية أخرى ذكرها الطبري في «تفسيره» عن

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ١٣٨.
وقد ورد هذا الحديث في «مسند الإمام أحمد بن حنبل» تحت رقم (٦١٧٨)، راجع الجزء التاسع ص٢٩ ـ ٣٣، شرحه وصنع فهارسه الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(٢) يقول ابن كثير: «قال ابن مردويه: حدثنا دملج بن أحمد، حدثنا هشام بن علي بن هشام... حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر، سمع النبي ﷺ يقول فذكره بطوله».

نافع قال: سافرت مع ابن عمر، فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع انظر، طلعت الحمراء؟ قلت: لا ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ثم قلت: قد طلعت! قال: لا مرحباً ولا أهلاً! قلت: سبحان الله، نجم مسخر سامع مطيع! قال: ما قلت لك إلا ما سمعت عن رسول الله ﷺ، وقال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة قالت: يا رب، كيف صبرك على بني آدم في الخطايا والذنوب؟ قال: إني ابتليتهم وعافيتكم، قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك! قال: فاختاروا ملكين منكم. قال: فلم يألوا أن يختاروا، فاختاروا هاروت وماروت**»[1].

ثم علق الحافظ ابن كثير على هذه الرواية ورواية ابن مردويه بقوله: «وهذان أيضاً غريبان جداً»، وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لا عن النبي ﷺ، كما قال عبد الرزاق في «تفسيره» عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذنوب فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما: إني أرسل إلى بني آدم رسلاً وليس بيني وبينكم رسول، انزلا لا تشركا بي شيئاً ولا تزنيا ولا تشربا الخمر، فقال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه.

ثم يقول ابن كثير: «رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به، رواه ابن أبي حاتم... عن سفيان الثوري به، ورواه ابن جرير أيضاً.. عن موسى بن عقبة: حدثني سالم أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار فذكره، فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه عن مولاه نافع، فدار الحديث ورجع

(١) راجع: «تفسير ابن كثير» ١/ ١٣٨؛ و«تفسير الطبري» ٢/ ٤٣٣، دار المعارف.

إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل»[١].

وفي كتابه «البداية والنهاية» يذكر ابن كثيراً أيضاً أن «ما يذكره كثير من المفسرين في قصة هاروت وماروت من أن الزهرة كانت امرأة فراوداها على نفسها فأبت إلا أن يعلماها الاسم الأعظم، فعلّماها فقالته فرفعت كوكباً إلى السماء، فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفة من السلف فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل، وقد روى الإمام أحمد وابن حبان في «صحيحه» في ذلك حديثاً رواه أحمد عن... نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ وذكر القصة بطولها»..[٢].

ثم أشار إلى رواية عبد الرزاق عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم (عن أبيه) عن كعب الأحبار، ثم إلى رواية الحاكم من حديث ابن عباس، ثم إلى حديث آخر رواه البزار من حديث ابن عمر في أن سهيلاً: «كان عشاراً ظلوماً، فمسخه الله شهاباً» وضعفه جداً ثم انتهى إلى أن «مثل هذا الإسناد لا يثبت به شيء بالكلية، وإذا أحسنّا الظن قلنا: إن هذا من أخبار بني إسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار، ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها»[٣].

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ١٣٨؛ راجع: «تفسير الطبري» ٢/ ٤٢٩، ٤٣٠.

(٢) راجع: المجلد الأول من «البداية والنهاية» ص٣٣، دقّق أصوله وحقّقه دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٣) راجع: المصدر السابق ١/ ٣٣، ٣٤.

ذكر الحافظ ابن كثير في موضع آخر من هذا الكتاب أن هذا الحديث رواه مرفوعاً الإمام أحمد عن ابن عمر وصححه ابن حبان في تقاسيمه ولكن في صحته عندي نظر، والأشبه أنه موقوف على عبد الله بن عمر ويكون مما تلقاه عن كعب الأحبار. راجع ص٤٣.

وقد علّق الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ على كلام الحافظ ابن كثير فقال: «من المحقق أن هذه القصة لم تذكر في كتبهم المقدسة، فإن لم تكن وضعت في زمن روايتها، فهي من كتبهم الخرافية[١]. ورحم الله ابن كثير الذي بيَّن لنا أن الحكاية خرافية إسرائيلية وأن الحديث المرفوع (يعني هذا الحديث) لا يثبت».

وقد رجح الشيخ أحمد شاكر ما رجَّحه الحافظ ابن كثير فانتهى في تعليل هذا الحديث إلى أنه من قصص كعب الأحبار الإسرائيلية، وأنه ليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وأن من فعله فقد أخطأ ووهم، وبيَّن أن تعليل ابن كثير لهذا الحديث إنما هو تعليل دقيق من إمام حافظ جليل[٢].

ويرى الدكتور محمد أبو شهبة أنه لا ينبغي أن يشك مسلم عاقل فضلاً عن طالب حديث، في أن هذا الحديث موضوع على النبي ﷺ مهما بلغت أسانيده من الثبوت، فما بالك إذا كانت أسانيده واهية ساقطة لا تخلو من وضاع، أو ضعيف، أو مجهول؟!! ونصَّ على وضعه أئمة الحديث!!

ثم ينقل عن الحافظ ابن كثير أن رفع مثل هذه الإسرائيليات إلى النبي كذب واختلاق ألصقه زنادقة أهل الكتاب زوراً وبهتاناً، وعلّق على ذلك بقوله: «وهذا الذي قاله العلامة ابن كثير هو الحق الذي لا ينبغي أن يقال غيره، وليس أدل على هذا: من أن ابن جرير رواها بالسند الذي

---

(١) يذكر العلامة محمد جمال الدين القاسمي أن هذه القصة الواردة في روايات المفسرين هي من اختلاق اليهود وتقولاتهم ولم يقل بها القرآن قط، وإنما ذكرها التلمود كما يعلم من مراجعة «مدراس يدكوت» في «الإصحاح الثالث والثلاثين»، وجاراه جهلة القصاص من المسلمين فأخذوها منه. راجع: «تفسير القاسمي» ٢/ ١٢.

(٢) راجع تعليقاته الممتازة على: «المسند» ٩/ ٣٠ ـ ٣٢.

ذكره ابن كثير، وبغيره عن ابن عمر، عن كعب الأحبار ولكن بعض الرواة غلطاً أو سوء نية: رفعها ونسبها إلى النبي ﷺ»[١].

ولذلك فإن القاضي عياض كان حاسماً وقاطعاً في ردِّه على من لم يوجب عصمة جميع الملائكة محتجاً بما ورد في هذه الروايات التي ذكرها أهل الأخبار ونقلة المفسرين، فذكر رَحِمَهُ اللهُ أن هذه الأخبار المذكورة في قصة هاروت وماروت لم يُرْوَ منها شيء عمن يعتد به من المحدثين لا سقيم «ضعيف» ولا صحيح ثابت عن رسول الله ﷺ، وليس هو ـ أي: ما تضمنته قصتهما ـ يؤخذ ويستنبط بقياس؛ أي ليس مما جرى فيه القياس على غيره، مما ورد من الآيات والأحاديث الصحيحة، فلا ينبغي الخوض فيه نفياً وإثباتاً، والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه، وأنكرٌ ما قال بعضهم فيه كثيرٌ من السلف.

وانتهى إلى أن هذه الأخبار التي ذكرها بعض المفسرين منقولة من كتب اليهود وافترائهم كما نصَّه الله أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه[٢].

---

(١) راجع: كتابه «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» ص٢٧٧ ـ ٢٢٩.
هذا ولم يكن ابن عمر وحده هو من رفعت روايته للنبي ﷺ وإنما روى ابن مردويه أيضاً عن الإمام علي بن أبي طالب مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: **«لعن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملكين هاروت وماروت»**. وقد علق الحافظ ابن كثير على هذا بقوله: «وهذا أيضاً لا يصح وهو منكر جداً وإنه لا يثبت من هذا الوجه». راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ١٣٩.

(٢) راجع: كتاب «الشفا» ٢/ ٨٥٣، ٨٥٤؛ راجع أيضاً: «نسيم الرياض» للشهاب الخفاجي ٤/ ٣٢٠، ٣٢١؛ والمقصود بأول الآيات قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟...﴾
راجع تفصيل ذلك في الكتاب الخاص بعصمة نبي الله سليمان بن داود مما رماه به اليهود، طبع مع كتاب «شبهات وإسرائيليات» طبع ونشر دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠١١م.

لكن الإمام السيوطي في تخريجه لأحاديث الشفا ذكر أن هذا الذي ذكره المصنف ـ يقصد القاضي عياض ـ من أنه لم يرد في هذه الأخبار شيء صحيح ولا ضعيف عن رسول الله ﷺ مردود بأنه كما قال: «كلا والله!! فقد روي فيها عن رسول الله ﷺ الصحيح وغيره كما استوعبت طرق القصة في التفسير المسند[١]. وحاصل ذلك: أن القصة وردت مرفوعة من حديث ابن عمر أخرجه أحمد في «مسنده» وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي في «الشعب»، وابن جرير في «تفسيره»، وعبد بن حميد في «مسنده»، وابن أبي الدنيا في كتاب «العقوبات» وغيرهم من طرق عنه، كما وردت مرفوعة أيضاً باختصار من حديث علي أخرجه ابن راهويه في «مسنده»، ومن حديث أبي الدرداء أخرجه ابن أبي الدنيا، كما وورد بأسانيد عدة صحيحة وغيرها، قال ابن حجر في «شرح البخاري»: وفي القول المسند لهذه القصة طرق تفيد العلم بصحتها»[٢].

وقد تابع الشهاب الخفاجي السيوطي في ما ذكره وأضاف إليه أنه ـ أي: السيوطي ـ قد جمع طرق هذا الحديث في تأليف مستقل فبلغت نيِّفاً وعشرين طريقاً[٣].

ويرى الدكتور محمد أبو شهبة أنه إذا كان الحافظ ابن حجر، قد مال إلى ثبوت هذه الروايات التي لا نشك في كذبها ـ وتابعه السيوطي ـ فهذا تشدد منهما في التمسك بالقواعد، من غير نظر ما يلزم من الحكم بثبوت ذلك من المحظورات، ثم يذكر أنه «لا ينكر أن بعض أسانيده صحيحة أو حسنة، إلى بعض الصحابة أو التابعين، ولكن مرجعها

---

(١) يقصد السيوطي كتابه «الدر المنثور». وقد سبقت الإشارة إليه.

(٢) راجع: «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» ص٢٣٠ وقد سبق الحديث عن هذه الرواية المرفوعة التي يتحدث عنها وتبيَّن أنها ترجع إلى الإسرائيليات.

(٣) راجع: «نسيم الرياض» ٤/ ٢٣٢.

ومخرجها من إسرائيليات بني إسرائيل، وخرافاتهم، والراوي قد يغلط، وبخاصة في رفع الموقوف».

وانتهى الشيخ أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أن كون بعض هذه الروايات الموقوفة صحيحة في نسبتها لا ينافي كونها باطلة في ذاتها، وأنه لو كان الانتصار لمثل هذه الأباطيل يترتب عليه فائدة لغضضنا الطرف عن مثل ذلك، ولما بذلنا غاية الجهد في التنبيه ببطلانها، ولكنها فتحت على المسلمين باب شر كبير يجب أن يغلق، ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد البصير: ابن كثير، فقد نبَّه على أصل الداء، ووصف له الدواء، وبين الحق والصواب في موقف المسلمين من هذه الخرافات[(١)].

وذهب بعض المحققين إلى أن ما ورد في هذه الروايات مروي حكاية لما قاله اليهود ـ وهو باطل في نفسه ـ وبطلانه في نفسه لا ينافي صحة الرواية، ولعل ذلك من رموز الأوائل وحلّه لا يخفى على ذوي البصائر ـ حسب تعبير البيضاوي ـ أو من مقولة الأمثال والرموز التي قصد بها إرشاد اللبيب الأريب بالترغيب والترهيب[(٢)].

لكن الألوسي يرى أن من قال بصحة هذه القصة في نفس الأمر

---

(١) راجع: «الإسرائيليات والموضوعات» ص٢٣٠.

(٢) فيراد من الملكين العقل النظري والعقل العلمي اللذان هما من عالم القدس، ومن المرأة المسماة بالزهرة ـ النفس الناطقة ـ ومن تعرضهما لها تعليمهما لها ما يسعدها، ومن حملها إياهما على المعاصي تحريضها إياهما بحكم الطبيعة المزاجية إلى الميل إلى السفليات المدنسة لجوهريهما، ومن صعودها إلى السماء بما تعلمت منهما عروجها إلى الملأ الأعلى ومخالطتها مع القدسيين بسبب انتصاحها لنصحهما، ومن بقائهما معذبين بقاؤهما مشغولين بتدبير الجسد وحرمانهما عن العروج إلى سماء الحضرة؛ لأن طائر العقل لا يحوم حول حماها. .» إلخ ما ذكر في هذا الإطار مما لا داعي له، وينبغي الاحتراز منه. راجع: «تفسير البيضاوي» ١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢.

وحملها على ظاهرها فقد ركب شططاً، وقال غلطاً، وفتح باباً من السحر يضحك الموتى، ويبكي الأحياء، وينكس راية الإسلام، ويرفع رؤوس الكفرة الطغام كما لا يخفى ذلك على المنصفين من العلماء المحققين(١).

المبحث الثاني

بطلان هذه الروايات من ناحية المتن (العقل)

وإذا كان العلماء قد رفضوا هذه الروايات وقاموا بإبطالها من ناحية السند حيث طعنوا في صحتها، وبيَّنوا أنها ترجع إلى الإسرائيليات المنقولة من أكاذيب اليهود وافتراءاتهم، فإنهم قد رفضوها أيضاً وأبَوْا قبولها من ناحية المتن حيث إن هذه الروايات تحتوي على أمور تنافي عصمة الملائكة، ولا تليق بمكانتهم، ولا تتفق مع منزلتهم عند الله تبارك وتعالى، بالإضافة إلى مخالفتها للعقل السليم وذلك لما تحتوي عليه من خرافات تناقض العلم الصحيح، وبذلك فقد ردَّها كثير من العلماء والمحققين الذين مهروا وبرعوا في معرفة أصول الدين وأبت عقولهم أن تقبل مثل هذه الخرافات وتلك الأكاذيب.

فهذا هو الإمام ابن حزم يذكر في كتابه «الفصل» أن قوماً نسبوا إلى الله تعالى ما لم يأت به قط أثر يجب أن يشتغل به وإنما هو كذب مفترى من أنه تعالى أنزل إلى الأرض ملكين وهما هاروت وماروت وأنهما عصيا الله تعالى وشربا الخمر، وحكما بالزور، وقتلا النفس وزنيا وعلَّما زانية اسم الله الأعظم فطارت به إلى السماء فمسخت كوكباً وهي الزهرة، وأنهما عذبا في غار ببابل وأنهما يعلمان الناس السحر.

ثم يبرهن على بطلان هذا كله بقوله تعالى الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]: ﴿مَا نُنَزِّلُ

---

(١) راجع: «روح المعاني» ١/ ٣٤٢.

ﭐلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] فقطع الله ﷻ أن الملائكة لا تنزل إلا بالحق، وليس شرب الخمر، ولا الزنا، ولا قتل النفس المحرمة، ولا تعليم العواهر أسماءه ﷻ التي يرتفع بها إلى السماء، ولا السحر من الحق!

بل كل ذلك من الباطل ونحن نشهد أن الملائكة ما نزلت قط بشيء من هذه الفواحش والباطل وإذا لم تنزل به فقد بطل أن تفعله؛ لأنها لو فعلته في الأرض لنزلت به، وهذا باطل، وشهد ﷻ أنه لو أنزل علينا الملائكة لما أنظرنا؛ فصح أنه لم ينزل قط ملك ظاهر إلا للنبي بالوحي فقط.

وينتهي ابن حزم إلى أن ما ورد في هذه الروايات خرافة موضوعة ووجب يقيناً أنه ليس في الملائكة البتة عاص لا بعمد ولا بخطأ ولا نسيان[١].

أما القاضي عياض فإنه بعد أن بيَّن أن هذه الروايات مأخوذة من كتب اليهود وافترائهم ذكر أن القصة الواردة فيها تنطوي على شنع عظيمة حيث اشتملت على الكفر وكبائر المعاصي وينبغي أن ننزه الملائكة ونذهب عنهم الرجس، ونطهرهم تطهيراً، فقد وصفهم الله بأنهم مطهرون، وكرام بررة، ولا يعصون الله ما أمرهم[٢].

ثم جاء الإمام الرازي فذكر أن القصة التي وردت في هذه الروايات فاسدة ومردودة غير مقبولة؛ لأنه ليس في كتاب الله ما يدل على ذلك بل فيه ما يبطلها من عدة وجوه:

الوجه الأول: أن هؤلاء الرواة قد ذكروا في القصة أن الله تعالى قال لهاروت وماروت: لو ابتليتكما بما ابتليت به آدم لعصيتماني. فقالا:

---

(١) راجع: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤/ ٢٥ ـ ٢٧، ٣/ ١٤٥، ١٤٦.

(٢) راجع: كتابه «الشفا» ٢/ ٨٥٥ ـ ٨٥٧.

لو فعلت ذلك بنا يا ربِّ لما عصيناك، وهذا منهم تكذيب لله تعالى وتجهيل له، وذلك من صريح الكفر[1].

الوجه الثاني: ورد في القصة أيضاً أنهما خيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسدٌ بل كان الأَوْلى أن يخيَّرا بين التوبة وبين العذاب؛ لأن الله تعالى خيَّر بينهما من أشرك به طول عمره، وبالغ في إيذاء أنبيائه، فكيف يبخل عليهما بذلك؟!

الوجه الثالث: أن من أعجب الأمور قولهم في القصة أنهما يعلمان السحر في حال كونهما معذبين ويدعوان إليه وهما يعاقبان.

الوجه الرابع: كيف يعقل أن هذه المرأة الفاجرة صعدت إلى السماء بعد أن فجرت وجعلها الله تعالى كوكباً مضيئاً، وعظم قدره بحيث أقسم به سبحانه حيث قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦].

وينتهي الإمام الرازي إلى أن هذه القصة قصة ركيكة يشهد كل عقل سليم بنهاية ركاكتها[2].

وينتهي العلامة أبو السعود إلى أن ما ورد في هذه الروايات مما لا تعويل عليه لما أن مداره على رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل[3].

وعلى الرغم من أن الإمام القرطبي قد اختار رأياً مرجوحاً في تفسير الآية ـ وسوف أشير إليه بعد ذلك ـ إلا أنه قد أكد على عدم صحة ما ورد في هذه الروايات، معتمداً على أنه مدفوع بالأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه، وسفراؤه إلى رسله ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

---

(١) يذكر الرازي أن الحشوية سلموا أنهما كانا قبل الهبوط إلى الأرض معصومين.

(٢) راجع: «التفسير الكبير» ٢/ ١٧٠، ٣/٢١٩، ٢٢٠.

(٣) راجع: «تفسير أبي السعود» ١/ ١٣٨.

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، ﴿يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

واستدل القرطبي أيضاً على عدم صحة هذه الروايات بأن الله تعالى قد خلق النجوم وهذه الكواكب حين خلق السماء، حيث يقول تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]. فثبت بهذا أن الزهرة وسهيلاً[١] قد كانا قبل خلق آدم.

ثم إن قول الملائكة لله سبحانه حسب ما ورد في هذه الروايات ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَآ﴾: لا تقدر على فتنتنا، وهذا كفر نعوذ بالله منه ومن نسبته إلى الملائكة الكرام صلوات الله عليهم أجمعين، وقد نزّهناهم وهم المنزّهون عن كل ما ذكره ونقله المفسرون، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢] [الصافات: ١٨٠].

بل إن الشهاب العراقي قد نصَّ على أن من اعتقد في هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر بالله تعالى العظيم فإن الملائكة معصومون ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٣] [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقال القرافي: من اعتقد في هاروت وماروت أنهما بأرض الهند يعذبان على خطيئتهما مع الزهرة فهو كافر[٤].

---

(١) يشير القرطبي إلى ما رواه عطاء عن ابن عمر أنه كان إذا رأى الزهرة وسهيلاً سبَّهما وشتمهما، ويقول: إن سهيلاً كان عشَّاراً (وهو الذي يقبض عشر الأموال) باليمن يظلم الناس، وأن الزهرة كانت صاحبة هاروت وماروت.

(٢) راجع: «تفسير القرطبي» ٢/٥٢. (٣) راجع: «روح المعاني» ١/٣٤١.

(٤) راجع: «الحبائك في أخبار الملائك» للسيوطي ص٢٠٨.

وبذلك فإن كثيراً من العلماء والمحققين قد رفضوا صحة هذه الروايات وبيّنوا أن ما ورد فيها ليس إلا خرافات لا يشهد لها نقل صحيح ولا عقل سليم.

يضاف إلى ذلك أنها مخالفة أيضاً لما صار عند العلماء المحدثين أمراً يقينياً ولا أدري ـ فيما يقول الدكتور أبو شهبة ـ ماذا يكون موقفنا أمام علماء الفلك، والكونيات، إذا نحن لم نزيف هذه الخرافات، وسكتنا عنها، وانتصرنا لها؟!![1].

ولذلك فإن الإمام الألوسي بعد أن أشار إلى الخبر الذي أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت: قدمت عليَّ امرأة من أهل دومة الجندل تبتغي رسول الله ﷺ بعد موته تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به، قالت: كان لي زوج غاب عني فدخلت على عجوز فشكوت إليها.

فقالت: إن فعلت ما آمرك أجعله يأتيك! فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل، فإذا أنا برجلين معلقين بأرجلهما، فقالا: ما جاء بك؟ فقلت: أتعلم السحر، فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي، فأبيت وقلت: لا.

قالا: اذهبي إلى ذلك التنور فبولي به، إلى أن قالت: فذهبت فبلّت فيه، فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني حتى ذهب إلى السماء وغاب عني حتى ما أراه، فجئتهما وذكرت لهما، فقالا: صدقت، ذلك إيمانك خرج منك، اذهبي فلن تريدي شيئاً إلا كان. . . إلخ ما ورد في هذا الخبر[2].

---

(١) راجع: «الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير» ص٢٣٠.

(٢) راجع تفاصيل هذا الخبر بطوله في: «الدر المنثور» للسيوطي ١/ ٢٤٦؛ و«تفسير الطبري» ٢/ ٤٣٩ ـ ٤٤١؛ و«تفسير القرآن العظيم» ١/ ١٤١، ١٤٢؛ وقد نقله =

بعد أن أشار الإمام الألوسي إلى هذا الخبر ذكر أنه هو ونظائره مما ذكره المفسرون من القصص في هذا الباب مما لا يعول عليه ذوو الألباب، والإقدام على تكذيب مثل هذه المرأة الدوجندية ـ نسبة إلى دومة الجندل ـ أولى من اتهام العقل في قبول هذه الحكاية التي لم يصح فيها شيء عن رسول ربِّ البرية صلى الله تعالى عليه وسلَّم، ويا ليت كتب الإسلام لم تشتمل على هذه الخرافات التي لا يصدقها العاقل، ولو كانت أضغاث أحلام(١).

المبحث الثالث

اتجاهات العلماء في تفسير المراد بهاروت وماروت

وبعد أن أفضت في بيان بطلان هذه الروايات من ناحيتي السند والمتن والنقل والعقل، وتبين لنا أن هذه الروايات لا يصح الاستشهاد بها ولا يجوز الاعتماد عليها بأي حال من الأحوال، يبقى السؤال الذي يدور في الأذهان، وهو أنه ما دام الأمر كذلك فما هو التفسير الصحيح للآية الكريمة، والذي على ضوئه يتبين لنا المراد بهاروت وماروت المذكورين فيها؟

= ابن كثير عن الطبري وقدم له بكلمة حيث قال: وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك أحببنا أن ننبه عليه، وبعد أن انتهى من نقله علق عليه بقوله: «فهذا إسناد جيد إلى عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا»!!

(١) راجع: «روح المعاني» ١/٣٤٣، وليت الشيخ أحمد شاكر قال مثلما قال الإمام الألوسي حيث اكتفى بالتعليق على ما ورد في الخبر بقوله: «وهي قصة عجيبة!، لا ندري أصدقت تلك المرأة فيما أخبرت به عائشة؟ أما عائشة فقد صدقت في أن المرأة أخبرتها، والإسناد إلى عائشة جيد بل صحيح». وكان ينبغي أن يرجح ـ إن لم يكن يقطع ـ بكذب تلك المرأة التي نقلت عنها أم المؤمنين.

وللإجابة على هذا السؤال ينبغي التعرض لاتجاهات العلماء في هذا الشأن حتى يتبين لنا مدى خطأ القائلين بعدم عصمة جميع الملائكة، وأنه لا وجه لاستشهادهم بهذه الآية المباركة، وذلك بعد الاطلاع على الاتجاه الذي يتفق مع عصمة الملائكة، ولا يتنافى مع طهارتهم وتنزيههم بأي حال من الأحوال.

فقد اختلف العلماء وتنوّعت اتجاهاتهم في هاروت وماروت: هل هما ملكان أو إنسيان؟ وهل هما المراد بالملكين أو لا؟ وهل القراءة ملكين بفتح اللام أو بكسرها وهل «ما» في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ و﴿مَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ نافية أم موجبة؟

وبناء على ذلك فإن للعلماء في هذه الآية وجوهاً كثيرة وأقوالاً عديدة: فمنهم من ذهب فيها مذهب الإخباريين نقلة الغث والسمين، ومنهم من وقف مع ظاهرها البحت وتحمل لما اعترضه، بما المعنى الصحيح في غنى عنه، ومنهم من ادعى فيها التقديم والتأخير، وردَّ آخرها على أولها، بما جعلها أشبه بالألغاز والمعميات التي يتنزه عنها بيان أبلغ كلام، إلى غير ذلك مما يراه المتتبع لما كتب فيها[(١)].

وسوف أقتصر هنا على ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: يرى أصحابه أن هاروت وماروت هما الملكان المذكوران في الآية الكريمة، وأن الله سبحانه قد أنزل عليهما السحر، وأنهما يقومان بتعليمه للناس، ويمثل هذا الاتجاه الإمام الطبري الذي اعتمد على الروايات المذكورة سابقاً، حيث استشهد بها واحتج بما ورد فيها على ما ذهب إليه.

---

(١) راجع: «الشفا» للقاضي عياض ٢/ ٨٥٥؛ و«تفسير القاسمي» ٢/ ٢٠٩، ٢١٠.

الاتجاه الثاني: ويرى أصحابه أن الملائكة لا يجوز أن ينزل عليها السحر، ولا أن تعلمه الناس، لكن بعضهم يرى أن «ما» نافية، والبعض الآخر يرى أنها موصولة بمعنى «الذي» ففريق منهم ينفي نزول السحر على الملكين ويرى أن «هاروت وماروت» بدل من الشياطين، وفريق آخر ينفي النزول دون أن يضطر لجعل «ما» نافية لكنهم يجمعون على رفض الروايات التي سبقت الإشارة إليها.

الاتجاه الثالث: يرى أصحابه أن هاروت وماروت هما الملكان وأنهما قد أنزل عليهما السحر ويقومان بتعليمه للناس مع التحذير منه وعدم الوقوع فيه، لكنهم ينكرون الروايات السابقة ولا يستشهدون بها، ويرون أن «ما» موصولة وليست نافية.

الاتجاه الأول:

يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن هاروت وماروت هما الملكان المذكوران في الآية الكريمة، وأنهما قد أنزل عليهما السحر، ويستشهدون بما ورد في الروايات السابقة، ويمثل هذا الاتجاه الإمام الطبري.

يذهب الإمام الطبري إلى أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بمعنى «الذي» مستدلاً بما روى عن قتادة والزهري في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ من أنهما كانا ملكين من الملائكة، فأهبطا ليحكما بين الناس، وذلك أن الملائكة سخروا من أحكام بني آدم، قال: فحاكمت إليهما امرأة، فحافا لها، ثم ذهبا يصعدان، فحيل بينهما وبين ذلك، وخيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا.

فمعنى الآية على هذا التأويل ـ فيما يقول الطبري ـ: واتبعت اليهود الذي تلت الشياطين في ملك سليمان، والذي أنزل على الملكين ببابل

هاروت وماروت، وهما ملكان من ملائكة الله[1].

ثم قال بتأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ بأنه: وما يعلم الملكان أحداً من الناس الذي أنزل عليهما من التفريق بين المرء وزوجه، حتى يقولا له: إنما نحن بلاء وفتنة لبني آدم، فلا تكفر بربِّك، مستدلاً على ما ذهب إليه بما ورد عن قتادة والحسن وغيرهما[2].

أما قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ فقد ذكر الطبري أن قوله جل ثناؤه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ خبر مبتدأ عن المتعلمين من الملكين ما أنزل عليهما، وليس بجواب لقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ بل هو خبر مستأنف، ولذلك رفع فقيل: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ فمعنى الكلام إذاً: وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة، فيأبون قبول ذلك منهما، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه[3].

وينتهي الطبري إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ فيذكر أنه سبحانه؛ يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾: وما المتعلمون من الملكين هاروت وماروت ما يفرقون به بين المرء وزوجه بضارين ـ بالذي تعلموه منهما، من المعنى الذي يفرقون به بين المرء وزوجه ـ من أحد من الناس إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضره، فأما من دفع الله عنه ضره، وحفظه من مكروه السحر والنفث والرقى فإن ذلك غير ضارِّه، ولا نائله أذاه.

ويعني قوله جل ثناؤه: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾:

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢/ ٤٢٠، ٤٢١.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: المصدر السابق ٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٤.

(٣) راجع تفصيل ذلك في: المصدر السابق ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٨.

ويعلمون الناس الذي يتعلمون من الملكين ما أنزل عليهما من المعنى الذي يفرقون به بين المرء وزوجه، ويتعلمون منهما السحر الذي يضرهم في دينهم، ولا ينفعهم في معادهم، فأما في العاجل في الدنيا، فإنهم قد كانوا يكسبون به ويصيبون به معاشاً[(١)].

هذا وقد توسع الإمام الطبري في بطلان أن «ما» نافية، وإثبات أنها بمعنى «الذي» حتى إن الحافظ ابن كثير ليذكر أن ابن جرير قد شرع في ردِّ هذا القول وذكر أن «ما» بمعنى «الذي» وأطال القول في ذلك[(٢)]. وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً بعد أن بيَّن لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك؛ لأنهما امتثلا ما أمرا به، وهذا الذي سلكه غريب جداً[(٣)].

يقول الشيخ محمود شاكر: «ولست أستنكر ما قاله أبو جعفر كما استنكره ابن كثير، ولو أنت أنصفت وتتبعت كلام أبي جعفر، لرأيت فيه حجة ساطعة على صواب مذهبه الذي ذهب إليه، ولرأيت دقة ولطفاً في تناول المعاني وتدبير الألفاظ، ولا تكاد تجدهما في غير هذا التفسير الجليل القدر»[(٤)].

حيث يقول الإمام الطبري مبرهناً على صحة ما ذهب إليه: «فإن التبس على ذي غباء ما قلنا فقال: وكيف يجوز لملائكة الله أن تعلم الناس التفريق بين المرء وزوجه؟ أم كيف يجوز أن يضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزال ذلك على الملائكة؟!

---

(١) راجع التفصيل في: المصدر السابق ٢/٤٤٩، ٤٥٠.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ٢/٤١٩ ـ ٤٢٦.

(٣) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/١٣٧.

(٤) راجع: هامش ص٤٢٢ ج٢ من «تفسير الطبري».

قيل له: إن الله عزّ وجلّ ثناؤه عرَّف عباده جميع ما أمرهم به وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك، لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، فالسحر مما قد نهى عباده من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون جلَّ ثناؤه علَّمه الملكين اللذين سماهما في تنزيله، وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم، كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن يتعلم ذلك منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر، فيمحص المؤمن بتركه التعلم منهما، ويجزي الكافر بتعليمه السحر والكفر منهما، ويكون الملكان - في تعليمهما من علَّما ذلك - لله مطيعين، إذا كانا - عن إذن الله لهما بتعليم ذلك من علَّماه - يعلمان، وقد عُبِدَ من دون الله جماعة من أولياء الله، فلم يكن ذلك لهم ضائراً، إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عبد بعضهم والمعبود عنه ناه[1]، فكذلك الملكان، غير ضائرهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما، بعد نهيهما إياه عنه، وعظتهما له بقولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ إذ كانا قد أديا ما أمرا به بقيلهما ذلك»[2].

والحقيقة أن كلام الإمام الطبري ينبغي ألا يستنكر لأن كثيراً من المحققين ذهبوا إلى ما ذهب إليه كما سأبين بعد ذلك، ولكن الذي يستحق الغرابة والاستنكار هو أن الإمام الطبري قد استدل على قوله

---

(١) هذه - فيما يرى - الشيخ محمود شاكر حجة رجل يبصر دقيق المعاني، ولا يغفل عن مواضع السقط في كلام من يتكلم، وهو لا يضبط ما يقتضيه، ثم يذكر أن ابن كثير قد استخف به لأنه لم يضبط ما ضبطه هذا الإمام المتمكن من عقله وفهمه. راجع: هامش ص٤٢٧ من «تفسير الطبري» ج٢.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ٢/٤٢٦، ٤٢٧.

ورأيه هذا بروايات موقوفة على عدد من الصحابة والتابعين[1]. ونقلها عنه كثير من المفسرين، واحتوت هذه الروايات على ما سبق أن أشرت إليه من أن القائلين بعدم عصمة الملائكة قد استدلوا بما ورد فيها مما لا يليق بمقام الملائكة الكرام.

وبناءً عليه، فإنه إذا قبل ـ على رأيه وما ذهب إليه ـ القول بأن هاروت وماروت كانا ملكين من الملائكة، وأن الله قد أنزل عليهما السحر ابتلاء للناس، ولله أن يبتلي عباده بما شاء، وأنهما كانا يقولان لمن يتعلم منهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، إذا كان هذا مقبولاً فإنه لا يقبل بأي حال من الأحوال ما استشهد به الطبري من روايات ووافق عليه من أنهما قد نزلا إلى الأرض، وركبت فيهما الشهوة، ثم افتتنا بالمرأة التي سميت بـ«الزهرة» وارتكبا معها الفاحشة إلى آخر ما ورد في هذه الروايات، وتبين لنا بطلانها سنداً ومتناً.

الاتجاه الثاني:

ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى إنكار نزول السحر على الملكين من الله سبحانه فلا يجوز ذلك عندهم، حيث نزّهوا الله سبحانه عن أن ينزل السحر، ونزّهوا أيضاً الملكين أن يتنزل عليهما السحر ثم يقوما بتعليمه للناس.

وبذلك فإنهم رفضوا ما ذهب إليه الطبري، وبيّنوا بطلان ما اعتمد عليه من روايات، لكنهم اختلفوا في طريقة نفي الإنزال على الملائكة،

(١) تحت عنوان «ذكر بعض الأخبار التي في بيان الملكين ومن قال: إن هاروت وماروت هما الملكان اللذان ذكر الله جل ثناؤه ببابل» تحدث الطبري عن هذه الروايات من ص٤٢٧ ـ ٤٤٢ معتقداً صحة ما ورد فيها ومستدلاً بها على ما ذهب إليه.

فمنهم من قال إن «ما» نافية في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، وأن هاروت وماروت بدل من الشياطين، ومنهم من قال: إنها نافية، ولكنه جعل هاروت وماروت رجلين صالحين سمِّيا بالملكين لصلاحهما، ومنهم من جعل «ما» موصولة ونفي نزول السحر على الملائكة.

أولاً: من جعل «ما» نافية وجعل هاروت وماروت من الشياطين وليسا من الملائكة:

روى ابن وهب عن خالد بن أبي عمران أنه ذكر عنده هاروت وماروت وذكر أنهما يعلمان السحر من يطلب تعلمه منهما، فقال: نحن ننزههما عن تعليم السحر، فقرأ بعضهم رداً لما قاله بأنه مخالف لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ محتجاً بها بناء على الظاهر من أن «ما» موصولة، وعلى قراءة الجمهور الملكين بفتح اللام.

فقال خالد مجيباً له ومنكراً عليه ما قاله «لم يُنزَّل عليهما!»[١].

يقول القاضي عياض معقباً على ذلك: «فهذا خالد على جلالته وعلمه نزّههما عن تعليم السحر الذي قد ذكر غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشريطة أن يُبَيِّنا أنه كفر، وأنه امتحان من الله وابتلاء فكيف لا ينزّههما عن كبائر المعاصي والكفر المذكورة في تلك الأخبار؟!».

وقول خالد: «لم ينزل عليهما» يريد أن «ما» نافية، وهو قول ابن عباس، وتقدير الكلام: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾، يريد بالسحر الذي افتعلته الشياطين، فاتبعتهم في ذلك اليهود، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾؛ يعني:

---

(١) هو خالد بن أبي عمران التونسي قاضي إفريقية ومحدثها، توفي (١٣٩هـ)، وأخرج له أصحاب السنن ووثقوه وله تفسير. راجع: «الشفا» ٢/٨٥٦؛ و«نسيم الرياض» ٤/٢٣٤.

جبريل وميكائيل حيث ادعى اليهود عليهما المجيء به، كما ادعوا على سليمان، فأكذبهم الله في ذلك[1].

قال أبو جعفر: اختلف أهل العلم في تأويل «ما» التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ فقال بعضهم: معناه: الجحد وهي بمعنى «لم» ثم استشهد على ذلك بما روي عن ابن عباس وغيره في أنه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ لم ينزل الله السحر.

وانتهى إلى أن تأويل الآية على هذا المعنى: وَاتبعوا الذي تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين ـ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ـ ببابل هاروت وماروت. فيكون حينئذ قوله في الآية: ﴿بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ من المؤخر الذي معناه التقديم[2].

وذكر في تعليل ذلك التقديم أن يقال: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما أنزل «الله السحر» على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل، هاروت وماروت، فيكون معنياً بـ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ جبريل وميكائيل؛ لأن السحرة اليهود، فيما ذكر، كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمد ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمانهم ذلك رجلان: اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت؛ فيكون ﴿هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ﴾ على هذا التأويل، ترجمة عن ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ورداً عليهم[3].

---

(١) راجع: «الشفا» ٢/٨٥٦، ٨٥٧. (٢) راجع: «تفسير الطبري» ٢/٤١٩.

(٣) راجع: المصدر السابق ص٤٢٠.

وقد تحمس الإمام القرطبي جداً لهذا الرأي واختاره حيث يقول: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ «ما» نفي، والواو للعطف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر، فنفى الله ذلك، وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

ويدل على تحمسه لهذا القول أنه عقب عليه بقوله: «هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة في حال طمثهن. قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾»[2].

وقد تعقبه الإمام الألوسي فذكر أن مما يقضي منه العجب ما قاله الإمام القرطبي، وأعجب من قوله هذا: قوله «وهذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل وأصح ما قيل فيها، ولا تلتفت إلى ما سواه»، ثم قال: «ولا يخفى لدى كل منصف أنه لا ينبغي لمؤمن حمل كلام الله تعالى، وهو في أعلى مراتب البلاغة والفصاحة على ما هو أدنى من ذلك، وما هو إلا مسخ لكتاب الله تعالى عزّ شأنه، وإهباط له عن شأواه، ومفاسد قلة البضاعة لا تحصى!»[3].

---

(١) استدل القرطبي على قوله هذا بأن الاثنين قد يطلق عليهما اسم الجمع وأن هاروت وماروت لما كانا الرأس في التعليم نص عليهما دون أتباعهما، وأنهما خصا بالذكر لتمردهما. راجع تفصيل ذلك في الجزء الثاني ص٥٠، ٥١.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٥١.

(٣) راجع: «روح المعاني» ١/ ٣٤٢، ٣٤٣.

وقد اختار الإمام ابن حزم هذا الرأي أيضاً، ونسبه إلى خالد بن أبي عمران المشار إليه فيما سبق وجعله أحد رأيين لا ثالث لهما فيما زعم: فبعد أن قال بإبطال الرأي الذي اعتمد فيه أصحابه على تلك الروايات الفاسدة المشار إليها سابقاً ذكر أنه من الضرورة لا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما:

الوجه الأول: إما أن هاروت وماروت لم يكونا ملكين، وأن «ما» في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ نفي لأن ينزل السحر على الملكين، ويكون هاروت وماروت حينئذ بدلاً من الشياطين كأنه قال: ولكن الشياطين هاروت وماروت، ويكون هاروت وماروت قبيلتين من قبائل الجن كانتا تعلمان الناس السحر وقد روينا هذا القول عن خالد بن أبي عمران وغيره.

وينتهي إلى أن الذي لا شك فيه على هذا القول أنهما لم يكونا ملكين(١).

الوجه الثاني: وإما أن يكون هاروت وماروت ملكين نزلا بشريعة حق بعلم ما على الأنبياء فعلماهم وقالا لهم: لا تكفروا، نهياً عن الكفر بحق، وأخبراهم أنهما فتنة يضل الله تعالى بهما وبما أتيا به من كفر به، ويهدي بهما من آمن به. قال تعالى عن موسى ﷺ أنه قال له: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وكما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، ثم نسخ ذلك الذي أنزل على الملكين، فصار كفراً بعد أن كان إيماناً، كما نسخ تعالى شرائع التوراة والإنجيل فتمادت الجن على تعليم ذلك المنسوخ.

---

(١) راجع: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٤/٢٦، ٢٧.

وبالجملة فما في الآية من نص ولا دليل على أن الملكين علما السحر، وإنما هو إقحام أقحم بالآية بالكذب والإفك، بل وفيها بيان أنه لم يكن سحراً بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ﴾، ولا يجوز أن يجعل المعطوف والمعطوف عليه شيئاً واحداً إلا ببرهان من نص أو إجماع أو ضرورة، وإلا فلا أصلاً[(١)].

ومن الواضح أن كلام الإمام ابن حزم فيه تكلف شديد وتمحل غريب لا يحتاجان إلى تعليق، حيث كان غرضه الأساسي إنكار أن ينزل السحر على الملكين، فوقع في هذا التمحل وذلك التكلف سواء في الوجه الأول الذي جعل هاروت وماروت قبيلتين من قبائل الجن، أو في الوجه الثاني الذي جعل الإيمان يتحول إلى كفر بعد أن ينسخ، وهذا أمر بالغ الغرابة.

ولذلك فإن الحافظ ابن كثير بعد أن استغرب ما ذهب إليه الإمام الطبري ـ وسبق أن أشرت إليه ـ فقال عنه: «وهذا الذي سلكه ابن جرير غريب جداً» يقول عن كلام ابن حزم: «وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم»[(٢)]. وقال عنه في موضع آخر: «وهذا غريب وبعيد من اللفظ»[(٣)].

ولهذا فإن الإمام الطبري قد رفض هذا الرأي الذي يذهب إلى أن «ما» نافية فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي، قول من وجَّه «ما» التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ إلى معنى «الذي» دون معنى «ما» التي هي بمعنى الجحد». ثم يقول: وإنما اخترت ذلك، من أجل أن «ما» إن وجهت إلى معنى الجحد، تنفي عن ﴿ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ أن يكون

---

(١) راجع: المصدر السابق ٤/ ٢٧.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» ١/ ١٣٧.

(٣) راجع: «البداية والنهاية» ١/ ٤٣.

منزلاً إليهما، ولم يخل الاسمان اللذان بعدهما ـ أعني: هاروت وماروت ـ من أن يكون بدلاً منهما وترجمة عنهما أو بدلاً من «الناس» في قوله: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وترجمة عنهما.

فإن جعلا بدلاً من ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ وترجمة عنهما، بطل معنى قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

لأنهما إذا لم يكونا عالمين بما يفرق بين المرء وزوجه، فما الذي يتعلم منهما من يفرق بين المرء وزوجه؟

ويؤكد الطبري على أن خطأ القول الأول لواضح بيِّن فيذكر أن «ما» التي في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ إن كانت في معنى الجحد عطفاً على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ فإن الله جل ثناؤه نفى بقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ عن سليمان أن يكون السحر من عمله أو من علمه أو تعليمه، فإن كان الذي نفى عن الملكين من ذلك، نظير الذي نفى عن سليمان منه ـ وهاروت وماروت هما الملكان ـ فمن المتعلم منه إذاً ما يفرق به بين المرء وزوجه؟ وعمَّن الخبر الذي أخبر عنه بقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾(١).

يقول العلامة أبو السعود:

«وأمَّا ما قيل من أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ...﴾ نافية والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ جيء بها لتكذيب اليهود في القصة؛ أي: لم ينزل على الملكين إباحة السحر، وأن هاروت وماروت بدل من الشياطين على أنهما قبيلتان من الجن خصتا بالذكر لأصالتهما وكون باقي الشياطين أتباعاً لهما، وأن المعنى: ما

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٦.

يعلمان أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فتكون مثلنا، فيأباه أن مقام وصف الشيطان بالكفر، وإضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر، مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام فإن الإبدال في حكم تنحية المبدل منه[1].

وجاء في تفسير «التحرير والتنوير» أن من ذهب إلى أن هاروت وماروت بدل من الشياطين يكون قد أخطأ في التأويل إذ يصير قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ ـ بناء على رأيهم ـ كلاماً حشواً![2].

ثانياً: من قال إن «ما» نافية وإن هاروت وماروت رجلان تسمّيا بالملكين:

وهناك ما العلماء من ذهب أيضاً إلى إنكار إنزال السحر على الملكين من الله سبحانه، فرفض ـ بالقطع ـ ما ذهب إليه الطبري واعتمد عليه من روايات، ورفض أيضاً ما ذهب إليه ابن حزم والقرطبي ومن نحا نحوهما.

لكنه في سبيل ما ذهب إليه من إنكار نزول السحر على الملكين، رفض أن يكون هناك ملكان أو ما يدل عليهما في الآية القرآنية، ورأى أن هاروت وماروت رجلان من البشر كانا متظاهرين بالصلاح فأطلق الناس عليهما ذلك، ولذلك فإنهم لم يقولوا بما قال به البعض من أن القراءة في قوله: ﴿عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ بكسر اللام[3]، وإنما أخذوا بالقراءة

---

(١) راجع: «تفسير أبي السعود» ١/ ١٣٩، نشر دار المصحف.

(٢) راجع: المجلد الأول ص٦٤٠.

(٣) حكي عن بعض القراء أنه كان يقرأ ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلِكَيْنِ﴾ بكسر اللام؛ يعني: به رجلين من بني آدم، فذكر الحسن أنهما كانا عجلين أقلفين ببابل يعلمان الناس السحر، وهناك من قال إنهما داود وسليمان.

وقد بيَّن العلماء بطلان هذه القراءة ورأوا أنها شاذة وأن القراءة ـ بفتح اللام ـ هي الصحيحة والمتواترة. راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الطبري» ٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦، =

الصحيحة «بفتح اللام» وأن الملكين ليسا ملكين على الحقيقة.

وقد تبنى هذا الرأي العلامة جمال الدين القاسمي حيث تأثر فيه بالإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا، واعتمد عليهما في بلورته.

فبعد أن أشار القاسمي إلى اختلاف العلماء في تفسير هذه الآية اختلافاً كثيراً ذكر أن الذي ذهب إليه المحققون هو أن هاروت وماروت كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى في بابل ـ وهي مدينة بالعراق على نهر الفرات ـ وكانا يعلمان الناس السحر، وبلغ حسن اعتقاد الناس بهما أن ظنوا أنهما ملكان من السماء، وما يعلمانه للناس هو بوحي من الله[١].

جاء في «تفسير المنار» عن هاروت وماروت: بل هما رجلان صاحبا وقار وسمت، فشبها بالملائكة، وكان يؤمهما الناس بالحوائج الأهلية، ويجلونهما أشد الإجلال فشبها بالملوك، وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة يقولون: هذا ملك وليس بإنسان، كما يقولون فيمن كان سيداً عزيزاً يظهر الغنى على الناس من حيث يحتاجون إليه «هذا سلطان زمانه».

وقال الأستاذ الإمام: لعل الله تعالى سماهما ملكين «بفتح اللام» حكاية لاعتقاد الناس فيهما[٢].

= ٤٣٥؛ و«تفسير ان كثير» ١/ ١٣٧؛ و«تفسير الرازي» ٣/ ٢١٨، ٢١٩؛ و«الشفا» للقاضي عياض ٢/ ٨٥٧.

(١) راجع: «تفسير القاسمي» ٢/ ٢٠٩، ٢١٠، ولعله يقصد بالمحققين هنا ـ كما أشرت في الصلب ـ الإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا القول ذكره بعض المفسرين وإن كان بصيغة التضعيف حيث ورد مثلاً في «تفسير أبي السعود» ١/ ١٣٨؛ و«روح المعاني» للألوسي ١/ ٣٤٢: «أن الملكين هما رجلان، وسميا بذلك باعتبار صلاحهما».

(٢) راجع: «تفسير القرآن الحكيم» ١/ ٣٣٢.

ويذكر القاسمي أن لفظ ﴿ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ هنا وارد حسب العرف الجاري بين الناس في ذلك الوقت، كما يرد ذكر آلهة الخير والشر في كتابات المؤلفين عن تاريخ اليونان والمصريين وغيرهم، وكما يرد في كلام المسلم، في الرد على المسيحيين ذكر تجسد الإله وصلبه، وإن كان لا يعتقد ذلك.

وبلغ مكر هذين الرجلين، ومحافظتهما على اعتقاد الناس الحسن فيهما أنهما صارا يقولان لكل من أراد أن يتعلم منهما ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾؛ أي: إنما نحن أولو فتنة نبلوك ونختبرك أتشكر أم تكفر، وننصح لك بألا تكفر، يقولان هذا للمحافظة على حسن اعتقاد الناس بفضلهما، وليوهما الناس أن علومهما إلهية، وصناعتها روحية، وأنهما لا يقصدان إلا الخير، كما يفعل ذلك دجاجلة هذا الزمان الذين يوهمون الناس أنهم روحانيون حيث يقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض على زعمهم: نوصيك بأن لا تكتب هذا لجلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها، ولا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر، وأن تخص هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين، والتفريق بين العاشقين الفاسقين إلى غير ذلك من الأوهام والافتراء[1].

ولليهود في ذلك خرافات كثيرة، حتى إنهم يعتقدون أن السحر نزل على هذين الرجلين من الله، وأنهما ملكان جاءا لتعليمه للناس، فجاء القرآن الكريم مكذباً لهم في دعواهم نزوله من السماء، وفي ذم السحر، ومن يتعلمه أو يعلمه، فقال: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾.

فـ«ما» هنا في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ نافية على أصح الأقوال.

---

(١) راجع: «تفسير المنار» ١/ ٣٣٢، ٣٣٣؛ و«تفسير القاسمي» ١/ ٢١٠.

وأما قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ فيرى بعض هؤلاء أنه من قبيل التمثيل، وإظهار الأمر في أقبح صورة؛ أي: بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل، وطرق الإفساد، أن يتمكنوا به من التفريق بين أعظم مجتمع كالمرء وزوجه[1].

يذكر صاحب «تفسير المنار» أن صيغة المضارع في هذه الجملة وما قبلها لتصوير ما كان كأنه كائن، فالكلام تصوير للقصة لا حكم بمضمونها؛ أي: أنهم كانوا يتعلمون منهم ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين، وهو نحو ما يسميه الدجاجلة الآن «كتاب البغضة» وليس في العبارة ما يدل على أن ما يتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه أو بسبب خفي، أو بخارقة لا تعقل لها علة، ولا أنه غير مؤثر، وليس فيها بيان لما يتعلمونه هل هو كتابة تمائم، أو تلاوة رقى وعزائم، أو أساليب سعاية، ودسائس تنفير ونكاية، أو تأثير نفساني، أو وسواس شيطاني؟ وأي شيء من ذلك ثبت علماً كان تفصيلاً لما أجمله القرآن في الواقع[2].

لكن إذا كان القرآن لم يبين ذلك الإجمال ولا حقيقة ذلك العلم؛ لأنه موكول إلى بحث البشر وارتقائهم في العلم، فإنه لم يهمل ما يتعلق بالعقائد وبيان الحق فيها.

ولذلك قال سبحانه بعد حكاية السحر عنهم: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق

---

(١) راجع: «محاسن التأويل» للقاسمي ٢/ ٢١٠.

(٢) ولا يجوز لنا أن نتحكم بتفصيل ما أجمله القرآن فنحمله على أحد ما ذكر أو على غيره، ولو علم الله أن الخير لنا في بيان ذلك لبيَّنه. راجع: «تفسير المنار» ١/ ٣٣٤.

استعداد البشر، وفوق ما منحوا من القوى والقدر، فإذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فإنما ذلك بإذن الله؛ أي: بسبب من الأسباب التي جرت العادة بأن تحصل المسببات من ضر ونفع عند حصولها بإذن الله تعالى.

وهذا الحكم التوحيدي هو المقصد الأول من مقاصد الدين[1].

ثم قال بعد نفي القوة التي وراء الأسباب عنهم ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ يضرهم لأنه سبب في الإضرار بالناس وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه في الآخرة، ومن عرف بإيذاء الناس يمقته الناس ويكونون عليه[2].

والخلاصة: ـ فيما يذكر القاسمي ـ أن معنى الآية من أولها إلى آخرها هكذا: أن اليهود كذبوا القرآن ونبذوه وراء ظهورهم، واعتاضوا عنه بالأقاصيص والخرافات التي يسمعونها من خبثائهم عن سليمان وملكه، وزعموا أنه كفر، وهو لم يكفر، ولكن شياطينهم الذين كفروا، وصاروا يعلمون الناس السحر، ويدعون أنه أنزل على هاروت وماروت، اللذين سموهما ملكين، ولم ينزل عليهما شيء، وإنما كانا رجلين يدعيان الصلاح لدرجة أنهما كانا يوهمان الناس أنهما لا يقصدان إلا الخير، ويحذرانهم من الكفر، وبلغ من أمر ما يتعلمونه منهما من طرق الحيل والدهاء أنهم يفرقون به بين المجتمعين، ويحلون به عقد المتحدين.

---

(١) فالقرآن لا يترك بيانه عند الحاجة بل يبينه عند كل مناسبة، وربما ترد في القرآن قصة مثل هذه القصة لأجل بيان الحق في مسألة اعتقادية كهذه المسألة؛ لأن إيراد الأحكام في سياق الوقائع أوقع في النفس وأعصى على التأويل والتحريف. راجع: المصدر السابق ١/ ٣٣٤.

(٢) ولما كان بعض الضار من جهة نافعاً من جهة أخرى ـ وربما كانت منفعته أكبر من إثمه ـ نفى المنفعة بعد إثبات المضرة، فهذا النفي واجب في قانون البلاغة. راجع تفاصيل ذلك في: «تفسير المنار» ١/ ٣٣٤.

فأنت ترى من هذا أن المقام كله للذم، فلا يصح أن فيه مدح هاروت وماروت، والذي يدل على صحة ما قلناه أن القرآن أنكر نزول أي ملك إلى الأرض، ليعلم الناس شيئاً من عند الله، غير الوحي إلى الأنبياء، ونص نصاً صريحاً أن الله لم يرسل إلا الإنس لتعليم بني نوعهم فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ...﴾[(١)].

ثالثاً: من قال: إن «ما» موصولة ونفى نزول السحر على الملكين:

وهناك من العلماء من ذهب إلى إنكار إنزال السحر من الله على الملكين، ولكنه لم يجعل «ما» في قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ نافية، وإنما جعلها بمعنى «الذي» فقد اختار أبو مسلم أن يكون قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ في موضع جر، عطفاً على قوله: ﴿مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ وتقديره ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين.

ثم إنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ سلك في تفسير الآية نهجاً آخر يخالف قول أكثر المفسرين، فقال: كما أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن سليمان كان مبرأً عنه، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر مع أن المنزل عليهما كان مبرأً من السحر، وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير، وإنما كان يعلمان الناس ذلك مع قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾ توكيداً لبعثهم على القبول والتمسك، وكانت طائفة تتمسك وأخرى تخالف وتعدل عن ذلك، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا﴾؛ أي: من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه[(٢)].

يذكر القاضي عبد الجبار أن أبا مسلم ذكر في كتابه: أن المراد

---

(١) راجع: «تفسير القاسمي» ٢/ ٢١٠، ٢١١.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ٣/ ٢١٧.

بقوله: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ أنهم اتبعوا ما كذبوا فيه على سليمان وعلى ما أنزل على الملكين، فعطف بما أنزل على الملكين على ملك سليمان، من حيث اجتمعا في «أن الشياطين كذبوا عليهما جميعاً، وإن كان أحدهما قد انقطع عن الآخر بكلام تخللهما، وذلك غير ممتنع في اللغة»[1].

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ كلام تخلل هاتين الجملتين مستقل بنفسه يدل على تنزيه سليمان، وأن الشياطين كفروا وكذبوا بما كذبوا به عليه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويجب تنزيه الملكين عن السحر، والقول به وتعليمه، فكيف يصح أن يحمل الكلام على خلاف ما ذكرته؟

ويجب تنزيه الملكين عما حكته الشياطين، كما يجب تنزيه سليمان عن ذلك، وأن يقال في الملكين إنهما كالأنبياء في أنه ما نزل عليهما، ولا أنزلا إلا الحق، وما علَّما إلا الدين والشرع»[2].

وبذلك يكون أبو مسلم قد أنكر أن يكون السحر نازلاً على الملكين، مثله في ذلك مثل كل من نفى نزول السحر عليهما، لكنه تكلف كثيراً في ما رآه من تفسير.

تعقيب:

ومن الواضح أن أصحاب هذا الاتجاه على اختلاف نظراتهم قد اتفقوا على إنكار نزول السحر من الله سبحانه على ملك من الملائكة، ومن أجل ذلك حاولوا قدر ما وسعهم أن يفسروا الآية الكريمة تفسيراً لا يؤدي بهم إلى هذه النتيجة.

---

(١) راجع: «متشابه القرآن» ص١٠٢؛ و«مفاتيح الغيب» ٣/٢١٧، ٢١٨.

(٢) راجع: «متشابه القرآن» ص١٠٢، ١٠٣.

وليس هناك أبلغ من كلام الطبري في الرد على أمثال هؤلاء حيث يذكر أنه إن قال لنا قائل: وهل يجوز أن ينزل الله السحر، أم هل يجوز لملائكته أن تُعلِّمه الناس؟

قلنا له: إن الله ﷻ قد أنزل الخير والشر كله، وبين جميع ذلك لعباده، فأوحاه إلى رسله، وأمرهم بتعليم خلقه، وتعريفهم ما يحل لهم مما يحرم عليهم، وذلك كالزنا والسرقة وسائر المعاصي التي عرَّفَهُموها، ونهاهم عن ركوبها، فالسحر أحد تلك المعاصي التي أخبرهم بها، ونهاهم عن العمل بها.

وليس في العلم بالسحر إثم، كما لا إثم في العلم بصنعة الخمر ونحت الأصنام والطنابير والملاعب، وإنما الإثم في عمله وتسويته، وكذلك لا إثم في العلم في السحر، وإنما الإثم في العمل به، وأن يضر به من لا يحل ضره به.

فليس في إنزال الله إياه على الملكين، ولا في تعليم الملكين من علماه من الناس إثم، إذ كان تعليمهما من علماه ذلك، بإذن الله لهما بتعليمه، بعد أن يخبراه بأنهما فتنة، وينهياه عن السحر والعمل به والكفر، وإنما الإثم على من يتعلمه منهما ويعمل به.

إذ كان الله تعالى ذكره قد نهى عن تعلمه والعمل به، ولو كان الله أباح لبني آدم أن يتعلموا ذلك، لم يكن من تعلمه حرجاً، كما لو يكونا حرجين لعلمهما به، إذ كان علمهما بذلك عن تنزيل الله إليهما[1].

الاتجاه الثالث:

ذهب جمهور العلماء إلى أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ غير نافية وإنما هي موصولة بمعنى «الذي»، ويرون أن الله سبحانه قد أنزل

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢/ ٤٢١، ٤٢٣.

السحر على الملكين، وهم بذلك يتفقون مع اتجاه الإمام الطبري إلا أنهم يختلفون عنه في رفضهم للروايات التي اعتمد هو عليها، ونقل كثيراً منها.

يذكر القاضي عياض أن أكثر المفسرين يرون أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبيينه، وأن عمله كفر، فمن تعلمه وعمل به معتقداً حله كفر، ومن تركه آمن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وتعليمهما الناس له تعليم إنذار؛ أي: يقولان لمن جاء يطلب تعلمه، لا تفعلوا كذا، فإنه يفرق بين المرء وزوجه، ولا تتحيلوا بكذا، فإنه سحر، فلا تكفروا.

فعلى هذا فعل الملكين طاعة، وتصرفهما فيما أمرا به ليس بمعصية وهي لغيرهما فتنة[1].

فهم يرون أن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ موصولة بمعنى «الذي» وأنها معطوفة على السحر في قوله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ أي: يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين.

أو معطوفة على قوله: ﴿مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾؛ أي: واتبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وما أنزل على الملكين؛ لأن السحر منه ما هو كفر وهو الذي تلته الشياطين، ومنه ما تأثيره في التفريق بين المرء وزوجه وهو الذي أنزل على الملكين[2].

يقول الزمخشري: والذي أنزل عليهما هو علم السحر، ابتلاء من الله للناس، من تعلمه منهم وعمل به كان كافراً، ومن تجنّبه أو تعلمه لا ليعمل به ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به كان مؤمناً: «عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه»، كما ابتلي قوم طالوت بالنهر: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾.

---

(١) راجع: كتابه «الشفا» ٢/ ٨٥٥، ٨٥٦.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٣/ ٢١٧.

وما يعلم الملكان أحداً حتى ينبهاه وينصحاه ويقولا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: ابتلاء واختبار من الله ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، فلا تتعلم معتقداً أنه حق فلا تكفر(١).

ويزيد القاضي عبد الجبار هذا الكلام وضوحاً فيذكر «أنه ليس في الظاهر أكثر من أن الشياطين يعلمون ما أنزل الله تعالى على الملكين من أنواع السحر، وقد علمنا أن تعالى قد ينزل على الملك وعلى أنبيائه تعليم الخير والشر، فالخير ينزل عليه ليفعل، والشر ليعرف فيجتنب.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ يعني بالفتنة: زيادة التكليف أو مشقته، فلا تكفر، فيعلمان السحر والكفر، ويضيفان إلى ذلك النهي عن التمسك به»(٢).

ثم جاء الإمام الرازي وتوسع في ذكر الأسباب والدواعي التي دعت إلى إنزال السحر على الملكين، فبيَّن أنها ترجع إلى ستة أسباب اعتمد في بعضها على الزمخشري. هذه الأسباب هي:

الأول: أن السحرة كثرت في ذلك الزمان، واستنبطوا أبواباً غريبة في السحر، وكانوا يدَّعون النبوة ويتحدون الناس بها، فبعث الله تعالى هذين الملكين لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذباً، ولا شك أن هذا من حسن الأغراض والمقاصد.

الثاني: أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر، متوقف على العلم بماهية المعجزة وماهية السحر، وكان الناس يجهلون ماهية السحر، فلا جرم هذا تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة، فبعث الله تعالى هذين الملكين لتعريف ماهية السحر لأجل هذا الغرض.

---

(١) راجع: «الكشاف» ١/ ٣٠١.

(٢) راجع: «متشابه القرآن» ص٩٩.

الثالث: لا يمتنع أن يقال: السحر الذي يوقع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله كان مباحاً عندهم أو مندوباً فالله تعالى بعث الملكين لتعليم السحر لهذا الغرض، ثم إن القوم تعلموا ذلك منهما واستعملوه في الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله والألفة بين أعداء الله.

الرابع: أن تحصيل العلم بكل شيء حسن، ولما كان السحر منهياً عنه وجب أن يكون متصوراً معلوماً؛ لأن الذي لا يكون متصوراً امتنع النهي عنه.

الخامس: لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها فبعث الله الملكين ليعلما البشر أموراً يقدرون بها على معارضة الجن.

السادس: يجوز أن يكون ذلك تشديداً في التكليف من حيث إنه إذا علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ثم منعه من استعمالها كان ذلك في نهاية المشقة فيستوجب به الثواب الزائد كما ابتلي قوم طالوت بالنهر على ما قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾[1].

وينتهي الرازي إلى أنه قد ثبت بهذه الوجوه أنه لا يبعد من الله تعالى إنزال الملكين لتعليم السحر، وخاصة أنهما لا يعلمان السحر إلا بعد التحذير الشديد من العمل به من قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فالمراد هنا بالفتنة المحنة التي بها يتميز المطيع عن العاصي كقولهم: «فتنت الذهب بالنار» إذا عرض على النار ليتميز الخالص عن المشوب.

معنى ذلك: أن الملكين لا يعلمان أحداً السحر، ولا يصفانه لأحد، ولا يكشفان له وجوه الاحتيال حتى يبذلا له النصيحة فيقولا له:

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٣/ ٢٢٠.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: هذا الذي نصفه لك وإن كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر وبين المعجزة، ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصي، فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه أو تتوصل به إلى شيء من الأعراض العاجلة[1].

ومن الواضح أن بعض الأسباب التي ذكرها الرازي في إنزال السحر على الملكين غير مقنع، ومن أجل ذلك فإن كثيراً من مفسري الأشاعرة الذين تابعوه في هذا الاتجاه، وتأثروا به أتوا بالأسباب القوية المقنعة، وأغفلوا الأسباب الأخرى، مع تفاوت فيما بينهم في الاختصار أو التصرف.

فهذا هو البيضاوي يذكر في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، أنهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس، وتمييزاً بينه وبين المعجزة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾: وما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له: إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به[2].

أما أبو السعود فإنه يذكر أنهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس كما ابتلي قوم طالوت بالنهر، أو تمييزاً بينه وبين المعجزة لئلا يغتر به الناس، أو لأن السحرة كثرت في ذلك الزمان واستنبطت أبواباً غريبة من السحر، وكانوا يدعون النبوة، فبعث الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس أبواب السحر حتى يتمكنوا من معارضة أولئك

---

(١) راجع: المصدر السابق ص٢٢٠، ٢٢١.

(٢) راجع: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ١/ ٧٣، ٧٤.

الكذابين وإظهار أمرهم على الناس[١].

ثم يبين أن الفتنة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، هي الاختبار والامتحان، وإفرادها مع تعددهما لكونها مصدراً، وحملها عليهما مواطأة للمبالغة، كأنهما نفس الفتنة، والقصر لبيان أنه ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواها لينصرف الناس عن تعلمه؛ أي: وما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر أحداً من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم ويقولا له: إنما نحن فتنة وابتلاء من الله ﷻ، فمن عمل بما تعلّم منا واعتقد حقيته كفر، ومن توقى عن العمل به أو اتخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقي على الإيمان ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باعتقاد حقيته وجواز العمل به.

والظاهر أن غاية النفي ليست هذه المقالة فقط، بل من جملتها التزام المخاطب بموجب النهي لكن لم يذكر لظهوره، وكون الكلام في بيان اعتناء الملكين بشأن النصح والإرشاد.

والجملة في محل النصب على الحالية من ضمير ﴿يَعَلَمُونَ﴾ لا معطوفة عليه كما قيل؛ أي: ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين، ويحملونهم على العمل به إغواءً وإضلالاً والحال أنهما ما يعلمان أحداً حتى ينهياه عن العمل به والكفر بسببه[٢].

ولعل هذا الاتجاه يكون هو الاتجاه الصحيح والأمثل في تفسير الآية الكريمة، حيث ابتعد القائلون به عن تلك الروايات المنكرة، وخالفوا الطبري في ذلك وإن كانوا قد اتفقوا معه في تجويز نزول السحر على الملكين.

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم» ١/١٣٨.
(٢) راجع: المصدر السابق ١/١٣٨، ١٣٩.

كذلك فإنه قد سلم من المماحكات والتكلفات التي وقع فيها أصحاب الاتجاه الثاني الذي اضطرهم إليها ما اعتقدوه من إنكار نزول السحر على الملكين.

وبذلك فإن ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت هو علم السحر، والأسباب في نزوله عليهما كثيرة ومتعددة، ولكن أبرزها أنهما كانا يعلمان الناس أبواباً من السحر، حتى يتبينوا الفرق بين السحر والمعجزة ويستطيعوا أن يميزوا بين الساحر والنبي.

وذلك بعد أن اتخذ السحرة في بابل السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم، ثم تطلعوا منه إلى تأسيس عبادة الأصنام والكواكب، وزعموا أنهم ـ أي: السحرة ـ مترجمون عنهم وناطقون بإرادة الآلهة، فحدث فساد عظيم وعمت الضلالة، فأراد الله سبحانه على معتاد حكمته أن ينقذ الخلق من ذلك فأرسل أو أوحى أو ألهم هاروت وماروت أن يكشفا دقائق هذا الفن للناس حتى يشترك الناس كلهم في ذلك فيعلموا أن السحرة ليسوا على ذلك، ويرجع الناس إلى صلاح الحال وذلك بعد أن يفرقوا بين السحر والمعجزة.

والذي جعل هذا العمل مباحاً هو أن الملكين كانا يحذران الناس من الوقوع في هذا السحر والعمل به بعد أن يتعلموه.

ويؤخذ من ذلك أن تعلم السحر بغرض وقاية الناس منه وتحذيرهم من الوقوع فيه والعمل به مباح، ولا إثم فيه، وأيضاً تعلمه لإزالة الاشتباه بينه وبين المعجزة والنبوة مباح ولا إثم فيه، وإنما الحرام والإثم في تعلمه أو تعليمه للعمل به والوقوع فيه.

هذا وقد عالج العلماء قضية السحر وحكم تعليمه وتعلمه بإسهاب، وبخاصة الإمام الرازي الذي توسع في عرض أنواع السحر، وأشار إلى

حكم كل نوع، وعقب عليه الحافظ ابن كثير وغيره(١).

ولا يتسع المجال للبحث في هذا الموضوع وإنما الذي يعنينا هنا أن أبين أنه بعد عرض تلك الروايات التي استدل النافون لعصمة الملائكة بما ورد فيها، وبعد أن انتهيت من ذكر الاتجاهات المختلفة في تفسير الآية الكريمة واختيار الاتجاه الثالث والأخير.

بعد كل هذا أستطيع أن أقرر أنه لا توجد أدنى علاقة بين هذه الروايات المنكرة وبين ما ورد عن الملكين هاروت وماروت في الآية الكريمة، ومن ثم فإنه لا حجة لهؤلاء النافين ولا دليل لأصحاب الاتجاه الأول على ما ذهبوا إليه من إنكار عصمة جميع الملائكة عليهم السلام.

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ٣/ ٢٠٥ ـ ٢١٧؛ و«تفسير القرآن العظيم» ١/ ١٤٤ ـ ١٤٨؛ و«تفسير القرطبي» ٢/ ٤٣ ـ ٥٠؛ و«تفسير أبي السعود» ١/ ١٣٧، ١٣٨؛ و«الإسرائيليات والموضوعات» ص٢٣٢؛ و«روح المعاني» ١/ ٣٣٨ ـ ٣٤٠؛ و«تفسير التحرير والتنوير» ١/ ٦٤٠، ٦٤١.

الفصل الرابع

استدلالات جمهور العلماء على عصمة جميع الملائكة

وبعد أن انتهيت من عرض هذه الشبهات الثلاث التي احتج بها النافون لعصمة الملائكة، وبعد أن تبين لنا من خلال نقدها والرد عليها، أنه لا وجه لاستشهادهم بما ورد فيها، وأنهم كانوا واهمين في تصورهم أنها شبهات تخل بعصمة الملائكة عليهم السلام، وتنال من طهارتهم.

بعد أن تبين لنا ذلك ينبغي أن تعرض لرأي المثبتين الذين هم - كما سبق أن أشرت - الجمهور الأعظم من علماء الدين، والذين اتفقوا على عصمة جميع الملائكة عن جميع الذنوب، وبراءتهم من كل ما يعيبهم أو يغض من مكانتهم عند الله رب العالمين.

يذكر القاضي عياض أن «الصواب عصمة جميعهم وتنزيه نصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رتبتهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم» فهم معصومون عن جميع الذنوب كبيرها وصغيرها، ولا يجوز ذلك عليهم ولا يليق بمكانتهم بأي حال من الأحوال»[(١)].

ويرى القرافي أن الملائكة هم رسل الله وخاصته وأنه يجب تعظيمهم وتوقيرهم وتنزيههم عن كل ما يخل بعظيم قدرهم، ومن لم يفعل ذلك وجب إراقة دمه.

ويقول البلقيني: العصمة واجبة لصفة النبوة والملائكية ومن وجبت

(١) راجع: كتابه «الشفا» ١/ ٨٥٣؛ راجع أيضاً: «نسيم الرياض» ٤/ ٢٢٩.

له العصمة فلا يقع منه كبيرة ولا صغيرة، ولذلك نعتقد عصمة الملائكة المرسلين منهم وغير المرسلين[1].

وقد احتج جمهور العلماء على عصمة جميع الملائكة من جميع الذنوب بعدد من الآيات القرآنية الكريمة التي تثبت قربهم جميعاً من الله سبحانه، وتبين رفعة منزلتهم وعلو مكانتهم.

حيث تبرز لنا بعض هذه الآيات مدى انقيادهم لأمر الله وسرعة استجابتهم لقضائه، فهم يبادرون إلى امتثال أوامره تعظيماً له وتجليلاً، إذ أمرهم بالسجود لآدم ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾، وهم أيضاً: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فهم سامعون مطيعون.

أما البعض الآخر من الآيات فإنه يبرز لنا مدى استغراقهم في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره، فهم مشتغلون بعبادته ﷻ، رطاب الألسن بذكره وتعظيمه، يتسابقون في ذلك منذ خلقهم لا يستكبرون عن عبادته آناء الليل والنهار، ولا يسأمون فهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ومن خلال المجال الأول الذي تؤكد فيه الآيات الكريمة على الطاعة الكاملة والإذعان التام من الملائكة عليهم السلام لربهم العلي الكبير.

ومن خلال المجال الثاني الذي تؤكد فيه الآيات الكريمة أيضاً على دوام تسبيحهم واستمرار عبادتهم لله رب العالمين.

من خلال هذين المجالين سوف يتبين لنا أن عصمة الملائكة وطهارتهم وبراءتهم من جميع الذنوب من لوازم الإيمان بالملائكة كما حكى لنا عنهم القرآن الكريم ووصفهم لنا رب الأرض والسماء.

---

(١) راجع: «الحبائك في أخبار الملائك» للسيوطي ص٢٠٨.

المبحث الأول

المجال الأول: الطاعة والإذعان

فيما يتعلق بالمجال الأول الذي تُبْرِز فيه الآيات الكريمة مدى انقيادهم لله ﷻ، وإذعانهم لأمره، فقد استدل جمهور العلماء على عصمة جميع الملائكة، بقوله تعالى عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ومعناه: أنهم لا يعصون ما أمر الله؛ أي: أمره تعالى كقوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أو على إسقاط الجار؛ أي: لا يعصون فيما أمرهم به، ويفعلون ما يؤمرون؛ أي: الذي يأمرهم به ﷻ.

يقول الطبري: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾؛ أي: لا يخالفون الله في أمره الذي يأمرهم به، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ أي: ينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم»[١].

فإن قلت: أليست الجملتان في معنى واحد؟

قلت: لا، فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها، ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه.

وقيل: إن الجملة الأولى لنفي المعاندة والاستكبار عنهم صلوات الله تعالى عليهم فهي كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾.

والثانية لإثبات الكياسة لهم ونفي الكسل عنهم فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

وبعبارة أخرى: إن الأولى لبيان القبول باطناً فإن العصيان أصله المنع والإباء، وعصيان الأمر صفة الباطن بالحقيقة؛ لأن الإتيان بالمأمور

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٨/١٠٧؛ راجع: «الكشاف» ٤/١١٦.

إنما يعد طاعة إذا كان بقصد الامتثال، فإذا نفى العصيان عنهم دلّ على قبولهم وعدم إبائهم باطناً.

والثانية لأداء المأمور به من غير تثاقل وتوان على ما يشعر به الاستمرار المستفاد من قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ فلا تكرار[1].

وجوز أن يكون ذلك من باب الطرد والعكس وهو كل كلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني، وبالعكس مبالغة في أنهم لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله ﷻ والغضب له سبحانه، والانتقام من أعدائه.

وخاصة أن قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ جاء بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾.

أي: أنهم موكلون عليها يلون أمرها وتعذيب أهلها وهم الزبانية التسعة عشر وقيل: وأعوانهم غلاظ شداد؛ أي: غلاظ الأقوال شداد الأفعال، أو غلاظ الخلق شداد الخلق أقوياء على الأفعال الشديدة، وقيل: في أجرامهم غلظة وشدة؛ أي: جفاء وقوة، أو في أفعالهم جفاء وخشونة.

ولا يبعد أن يكونوا بهذه الصفات في خلقهم أو في أفعالهم بأن يكونوا أشداء على أعداء الله رحماء على أولياء الله كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ ـ فيما ـ بَيْنَهُمْ﴾[2].

ومن أجل ذلك رأى نفاة العصمة أن هذه الآية مختصة بملائكة النار فقط رغم أن ما ورد فيها يصدق على كل أو جميع الملائكة، ولذلك اعتمد المثبتون على آيات أخرى.

يذكر الرازي أنه حتى لا يقال: إن هذه الآية السابقة مختصة بملائكة النار، ومن ثم فإنها لا تصلح دليلاً عاماً، فإذا أردنا الدلالة العامة تمسكنا

---

(١) راجع: «الكشاف» ٤/ ١١٦؛ و«مفاتيح الغيب» ٣٠/ ٤٧؛ و«روح المعاني» ٢٨/ ١٥٧.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ٣٠/٤٦؛ و«روح المعاني» ٢٨/ ١٥٦، ١٥٧.

بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

فالمقصود من هذه الآية شرح صفات الملائكة، وهي دلالة قاهرة قاطعة على عصمة جميع الملائكة عن جميع الذنوب؛ لأن قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدل على أنهم منقادون لصانعهم وخالقهم، وأنهم ما خالفوه في أمر من الأمور، فهم مع علو شأنهم لا يستكبرون عن عبادته تعالى شأنه والسجود له(١).

أما قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ فمعناه: أنهم يخافون مالك أمرهم، ومعنى كونه سبحانه فوقهم: قهره وغلبته؛ لأن الفوقية المكانية مستحيلة بالنسبة إليه تعالى.

والجملة حال من الضمير في ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويجوز أن تكون بياناً لنفي الاستكبار، وتقريراً له لأن من خاف الله تعالى لم يستكبر عن عبادته، واختاره ابن المنير وقال: إنه الوجه ليس إلا؛ لئلا يتقيد الاستكبار وليدل على ثبوت هذه الصفة أيضاً على الإطلاق(٢).

وأما قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فهذا أيضاً يدل على أنهم فعلوا كل ما كانوا مأمورين به، وذلك يدل على عصمتهم عن كل الذنوب.

فهم يفعلون كل ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وإيراد الفعل مبنياً للمفعول جرى على سنن الجلالة، وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه.

ويرى الإمام الرازي أن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدل

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢/١٦٦، ٢٠/٤٤؛ وراجع: «روح المعاني» ١٤/١٥٨.

(٢) راجع: «تفسير البيضاوي» ١/٥٥٨؛ راجع أيضاً: «روح المعاني» ١٤/١٥٨؛ و«الانتصاف على هامش الكشاف» للزمخشري ٢/٢٣١.

على أنه ليس في قلوبهم تكبر وترفع، وقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يدل على أن أعمالهم خالية عن الذنب والمعصية.

فمجموع هذين الكلامين يدل على أن بواطنهم وظواهرهم مبرأة عن الأخلاق الفاسدة والأفعال الباطلة[1].

وفي نفس المجال أيضاً فإنه سبحانه يقول عن الملائكة في سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

يقول تعالى رداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة كمن قال ذلك من العرب أن الملائكة بنات الله، فقال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾؛ أي: الملائكة فهم عباد لله مكرمون ومقربون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية، ومفضلون لديه على سائر العباد لما هم عليه من أحوال وصفات ليست لغيرهم.

وهم في غاية الطاعة قولاً وفعلاً فهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله، فقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: لا يقولون شيئاً حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به كما هو ديدن العبيد المؤدبين، ففيه تنبيه على كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره ﷻ وتأدبهم معه تعالى.

والأصل أن يقال: لا يسبق قولهم قوله تعالى، لكنه سبحانه هنا أسند السبق إليهم منسوباً إليه تعالى، تنزيلاً لسبق قولهم قوله سبحانه منزلة سبقهم إياه ﷻ لمزيد تنزيههم عن ذلك، وللتنبيه على غاية استهجان

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٠/٤٥، ٤٦؛ راجع أيضاً: «روح المعاني» ١٤/١٥٨.

السبق المعرض به للذين يقولون ما لم يقله تعالى[1].

أما قوله: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ فهو بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له سبحانه في الأقوال، فإن نفي سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه، كأنه قيل: هم بأمره يقولون وبأمره يعملون، لا بغير أمره تعالى أصلاً بأن يعملوا من تلقاء أنفسهم.

والمعنى: أنهم ـ أي: الملائكة ـ يتبعونه في قوله، ولا يقولون شيئاً حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله، وكما أن قولهم تابع لقوله، فعملهم أيضاً كذلك مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به[2].

ثم إنه سبحانه ذكر ما يجري مجرى السبب لهذه الطاعة فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فهو استئناف وقع تعليلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده، كأنه قيل: إنما لم يقدموا على قول أو عمل بغير أمره تعالى؛ لأنه سبحانه لا يخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا، فلا يزالون يراقبون أحوالهم حيث إنهم يعلمون ذلك.

والمعنى: أنهم لما علموا كونه سبحانه عالماً بجميع المعلومات علموا كونه عالماً بظواهرهم هم وبواطنهم، فكان ذلك داعياً لهم إلى نهاية الخضوع وكمال العبودية[3].

ورغم اختلاف أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إلا أن حقيقة المعنى تتركز في أن الملائكة يتقلبون

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ١٧٦؛ و«تفسير الكشاف» ٣/ ٩؛ و«تفسير أبي السعود» ٦/ ٦٣؛ و«روح المعاني» ١٧/ ٣٢.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/ ١٥٩؛ و«تفسير أبي السعود» ٦/ ٦٣؛ و«روح المعاني» ١٧/ ٣٢.

(٣) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/ ١٥٩؛ و«تفسير أبي السعود» ٦/ ٦٤؛ و«روح المعاني» ١٧/ ٣٢.

تحت قدرته في ملكوته وهو محيط بهم، فجميع ما يأتون ويذرون مما قدموا وأخروا هو بعين الله وهو سبحانه مجازيهم عليه، فلإحاطتهم بذلك يضبطون أنفسهم، ويراعون أحوالهم، ويعمرون أوقاتهم.

ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهَّله للشفاعة في ازدياد الثواب والتعظيم، ثم إنهم مع هذا كله من خشية الله مشفقون فقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون ولا يأمنون مكره.

وقيل: يحتمل أن يكون المعنى أنهم يخشون الله تعالى ومع ذلك يحذرون من وقوع تقصير في خشيتهم وعلى هذا تكون «من» صلة لمشفقون.

وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول: خوف مشوب بتعظيم ومهابة. ولذلك خص به العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

والثاني: خوف مع الاعتناء ويُعَدَّى بـ«مِن» كما يُعَدَّى الخوف، وقد يعدَّى بـ«على» بملاحظة الحنو والعطف(١).

وبعد أن وصف الله سبحانه كرامتهم عليه، وقرب منزلتهم عنده، وأثنى عليهم، وأضاف إليهم تلك الأفعال السنية، والأعمال المرضية، فاجأ بالوعيد الشديد، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم وإن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل، مع إحاطة علمه بأنه لا يكون، قصد بذلك تفظيع أمر الشرك وتعظيم أمر التوحيد فقال تعالى عقب هذه الآيات السابقة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/ ١٥٩، ١٦٠؛ و«تفسير أبي السعود» ٦/ ٦٤؛ و«الكشاف» ٣/ ٩؛ و«تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٦؛ و«روح المعاني» ١٧/ ٣٢، ٣٣.

والمعنى: أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول ـ والعياذ بالله ـ فإنا نجازي ذلك القائل بهذا الجزاء.

وهذا لا يدل على أنهم قالوا ذلك فإن هذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(١).

ولذلك فإن نفاة العصمة حينما احتجوا بهذه الآية الكريمة على أنهم يعصون انبرى لهم الإمام ابن حزم مبيناً لهم أن الملائكة قد توعدهم الله سبحانه كما توعد رسوله ﷺ إذ يقول له ربه ﷻ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقد علم ﷻ أنه ﵇ لا يشرك أبداً وأن الملائكة لا يقول أحد منهم أبداً: إني إله من دون الله، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]. وهو تعالى قد برأهن وعلم أنه لا تأتي إحداهن بفاحشة أبداً يقول تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦].

لكن الله تعالى يقول ما يشاء، ويشرع ما يشاء، ويفعل ما يشاء، ولا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فأخبر ﷻ بحكم هذه الأمور لو كانت، وقد علم أنها لا تكون كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٧]. وكما قال: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤].

---

(١) راجع: الزمخشري: «الكشاف» ٣/ ٩؛ و«تفسير الرازي» ٢٢/ ١٦٠؛ و«تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٦؛ و«تفسير البيضاوي» ١/ ٧١.

وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وكما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]. وكل هذا قد علم الله تعالى أنه لا يكون أبداً(١).

وإذا كان قد استدل بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ في آيتي النحل والتحريم، وبقوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ وما في معناهما من الآيات الأخرى على أن الملائكة يفعلون كل ما أمروا به، فإنه يدل أيضاً على أنهم تركوا كل ما نهوا عنه؛ لأن كل من نهي عن شيء فقد أمر بتركه.

يذكر الإمام ابن حزم أنه إن قال قائل: إن الملائكة مأمورون لا منهيون، يجاب عليه بأن هذا باطل لأن كل مأمور بشيء فهو منهي عن تركه، فقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يدل على أنهم منهيون عن أشياء يخافون منها(٢).

وإن قيل ما الدليل على أن قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وما في معناه من الآيات الأخرى تتناول جميع فعل المأمورات وترك المنهيات؟

فقد أجاب الإمام الرازي على ذلك بأنه لا شيء من المأمورات إلا ويصح الاستثناء منه، والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل؛ على ما هو مبين في أصول الفقه(٣).

---

(١) راجع: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ٣/ ١٤٥.
(٢) راجع: «الفصل» ٣/ ١٤٥؛ و«مفاتيح الغيب» للرازي ٢٠/ ٤٤، ٤٥.
(٣) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢/ ١٦٦.

معنى هذا: أن الملائكة عليهم السلام مكلفون ومتعبدون، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال فيما يقول القرطبي مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فقد نص عز وجل بهذه الآية وغيرها من الآيات التي سبقت الإشارة إليها على أن الملائكة عليهم السلام متعبدون ومكلفون.

قال أبو محمد: «فنص الله تعالى على أنهم مأمورون منهيون متوعدون مكرمون موعودون بإيصال الكرامة أبداً، مصرفون في كتاب الأعمال وقبض الأرواح وأداء الرسالة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والتوكل بما في العالم الأعلى والأدنى وغير ذلك كما خالقهم عز وجل به عليم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. فأخبر عز وجل أن جبريل عليه السلام مطاع في السماوات، أمين هنالك، فصح أن هنالك أوامر وتدبير وأمانات وطاعة ومراتب»[(١)].

وإذا كان قد استدل بهذه الآيات على أن الملائكة مكلفون فإنه قد استدل بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، على أنهم في هذا التكليف مدارون بين الخوف والرجاء، أما دلالته على الخوف فهو أظهر من أن يخفى، وأما على الرجاء فلاستلزام الخوف له على ما قيل، وقيل: إن اتصافهم بالرجاء؛ لأن من خدم أكرم الأكرمين كان من الرجاء بمكان أمين[(٢)].

---

(١) «الفصل» ٣/ ١٤٤، ١٤٥؛ وراجع: «مفاتيح الغيب» ٢٢/ ١٥٩، ١٦٠؛ و«تفسير القرطبي» ١١/ ٢٨٢.

(٢) راجع: «تفسير البيضاوي» ١/ ٥٥٨؛ و«روح المعاني» ١٤/ ١٥٨، ١٥٩.

المبحث الثاني

المجال الثاني: التسبيح الدائم

أما فيما يتعلق بالمجال الثاني حول مدى استغراق الملائكة في عبادة الله سبحانه، وعدم استكبارهم عنها، واستمرارهم في تسبيحه.

فقد وردت عدة آيات كريمة في القرآن الكريم استدل بها العلماء على عصمتهم ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

والمقصود بالذين عند ربك هم الملائكة صلوات الله عليهم، ومعنى ﴿عِندَ﴾ دنو الزلفة والقرب من رحمة الله تعالى وفضله لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته، فالمراد من العندية إذن القرب من الله تعالى بالزلفى والرضا لا المكانية لتنزيه الله تعالى عن ذلك.

وهم لا يستكبرون عن عبادته بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾؛ أي: ينزهونه عما لا يليق بحضرة كبريائه على أبلغ وجه.

﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾؛ أي: ويخصونه بغاية العبودية والتذلل لا يشركون به غيره جل شأنه(١).

وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين، وذلك أن الله سبحانه لما رغَّب رسوله في الذكر وفي المواظبة عليه بقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. ذكر عقيبه ما يقوي دواعيه في ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

والمعنى: أن الملائكة مع نهاية شرفهم وغاية طهارتهم، وعصمتهم وبراءتهم عن بواعث الشهوة والغضب، وحوادث الحقد والحسد، لما

---

(١) راجع: «الكشاف» ٢/ ١١٢؛ و«روح المعاني» ٩/ ١٥٥.

كانوا مواظبين على العبودية والسجود والخضوع والخشوع، فالإنسان مع كونه مبتلى بظلمات عالم الجسمانيات ومستعداً للذات البشرية، والبواعث الإنسانية، أولى بالمواظبة على الطاعة[(١)].

وفي هذه المجال أيضاً يقول ربنا تبارك وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

فقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ المراد بهم الملائكة مطلقاً عليهم السلام بإجماع الأمة، ولأنه تعالى وصفهم بأنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ وهذا لا يليق بالبشر.

والمراد بالعندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال: الملائكة مع كمال شرفهم، ونهاية جلالتهم، لا يستكبرون على طاعته، فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد على طاعته.

وقيل: عبر عنهم بذلك تنزيلاً لهم لكرامتهم عليه عز وجل منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل.

يقول الزمخشري: «والمراد أنهم مكرمون منزلون لكرامتهم عليه منزلة المقربين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم على جميع خلقه»[(٢)].

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾؛ أي: لا يتعظمون عنها ولا يعدون أنفسهم كبراء فهم لا يأنفون عن عبادته والتذلل له.

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ أي: لا يكلون ولا يتعبون ولا يعيون.

والظاهر أن الاستحسار حيث لا طلب كما هنا أبلغ من الحسور

---

(١) راجع: «الكشاف» ٢/ ١١٢؛ و«التفسير الكبير» ١٥/ ١١٠.

(٢) راجع: «الكشاف» ٣/ ٦؛ و«مفاتيح الغيب» ٢٢/ ١٤٨؛ و«روح المعاني» ١٧/ ٢١.

فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والمراد من الاتحاد بينهما الدال عليه كلامهم الاتحاد في أصل المعنى، والتعبير به للتنبيه على أن عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها، ومع ذلك لا يستحسرون، وليس لنفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصله في الجملة، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ على أحد الأوجه المشهورة فيه.

يقول الزمخشري: «فإن قلت: الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور، قلت: في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه، وأنهم أحقاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون»[(١)].

أما قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ فهو استئناف وقع جواباً عما نشأ مما قبله، كأنه قيل: ماذا يصنعون في عبادتهم، أو كيف يعبدون؟ فقيل: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾؛ أي: لا يضعفون ولا يسأمون.

والمعنى: أنهم ينزهون الله تعالى ويعظمونه ويمجّدونه في كل الأوقات، فتسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر[(٢)].

ويؤدي معنى هذه الآية آية أخرى وردت في سورة «فصلت» حيث يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨].

---

(١) راجع: «الكشاف» ٣/٦؛ «تفسير القرطبي» ١١/٢٧٨؛ و«تفسير أبي السعود» ٦/٦٠؛ و«روح المعاني» ١٧/٢١.

(٢) راجع: «الكشاف» ٣/٦؛ و«مفاتيح الغيب» للرازي ٢٢/١٤٩؛ و«تفسير أبي السعود» ٦/٦٠، ٦١؛ و«روح المعاني» للألوسي ١٧/٢١، ٢٢.

فالذين عند ربك هم الملائكة عليهم السلام قطعاً، ومعنى ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أنهم لا يستكبرون عن السجود لله سبحانه، ولا يتعظمون عنه، بل يسبحون له ويصلون ليلاً ونهاراً وهم لا يفترون عن عبادته ولا يملون من الصلاة والتسبيح له.

وهذا يدل على أنهم مواظبون على التسبيح، لا ينفكون عنه لحظة واحدة، واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام والاستمرار لا يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال(١).

ولذلك فقد استشكل كون الملائكة مطلقاً كذلك مع أن منهم رسلاً يبلغون الرسالة، ولا يتأتى التسبيح حال التبليغ، ومنهم من يلعن الكفرة كما ورد في آية أخرى.

فقد روي عن عبد الله بن الحرث نوفل أنه قال: قلت لكعب: أرأيت قول الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ثم قال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١].

أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح؟ وأيضاً قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١] فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح؟!

أجاب كعب الأحبار فقال: التسبيح لهم كالتنفس لنا، فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام، فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال(٢).

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢٤/ ٧٧؛ راجع: «تفسير الرازي» ٢٧/ ١٢٩، ١٣٠.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١٧/ ٩، ١٠؛ و«تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٥؛ و«تفسير الرازي» ٢٢/ ١٤٩؛ والنص كما ورد في الطبري: «قلت لكعب الأحبار: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، أمَا يشغلهم رسالة أو عمل؟ قال: يا ابن أخي: إنهم جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس؛ ألست تأكل وتشرب وتقعد وتجيء وتذهب وأنت تتنفس، قلت: بلى، قال: فكذلك جعل لهم التسبيح» ١٧/ ١٠.

ولذلك فإن القرطبي قد فسر قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ بأنهم لا يضعفون ولا يسأمون، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس[1].

فإن قيل: هذا القياس ـ المشار إليه ـ غير صحيح؛ لأن الاشتغال بالتنفس إنما لم يمنع من الكلام؛ لأن آلة التنفس غير آلة الكلام، أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال؟

والجواب: أنه لا يبعد أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله، وببعضها يلعنون أعداء الله[2].

ويجوز أن يقال: إن هذا التسبيح كالحضور والذكر القلبي الذي يحصل لكثير من السالكين، وذلك مما يجتمع مع التبليغ وغيره من الأعمال الظاهرة.

يذكر الرازي أن التنفس كما أنه شرط لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر فذكر الله تعالى وتسبيحه سبب لصلاح حال الملائكة في حياتهم، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة في صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستغراقها في معارج معارف الله بأحوال البشر، فإن بين الحالتين بعد المشرقين[3].

وقيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ و﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ أنهم لا يسأمون ولا يفترون عن العزم على أداء التسبيح في أوقاته اللائقة به، كما يقال: إن فلاناً يواظب على الجماعات لا يفتر عنها، لا يراد أنه أبداً مشتغل بها، بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها في أوقاتها.

---

(١) راجع ١١/٢٧٨.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/١٤٩.

(٣) راجع: «تفسير الرازي» ٢٧/١٣٠؛ و«روح المعاني» ١٧/٢٢.

وفي ذلك يقول الخفاجي: الظاهر أنه إن لم يحمل على بعضهم فالمراد به المبالغة، كما يقال: فلان لا يفتر عن ثنائك وشكر آلائك، ولا يخفى حسنه كما قال الألوسي[(١)].

وعلى أي حال فإن المثبتين لعصمة جميع الملائكة قد استدلوا بهذه الآيات على ذلك.

يذكر السيوطي أن الصفوي الأرموي قد استدل بقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ على عصمة جميع الملائكة مبيناً أن هذا القول الكريم يفيد المبالغة التامة في الاشتغال بالعبادة وهو يفيد المطلوب[(٢)].

وجاء في «شرح المواقف» أن هذه الآية من الآيات الدالة على عصمة جميع الملائكة حيث احتج بها المثبتون، إذ إنه يعلم منها أن الملائكة عليهم السلام لا يعصون وإلا حصل الفتور في التسبيح[(٣)].

واستدل الإمام ابن حزم بهذه الآية والآيات المشابهة لها على أن الملائكة كلهم معصومون، حيث نص تعالى على أنهم كلهم لا يسأمون من العبادة ولا يفترون من التسبيح والطاعة، ولا يستحسرون من ذلك.

ويذكر أن ما ورد في هذا هو على التأبيد لا يستحيل أبداً ووجب أنهم متنعمون بذلك مكرمون به مفضلون بتلك الحال وبالتذاذهم بذلك[(٤)].

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/ ١٤٩؛ و«تفسير الألوسي» ١٧/ ٢٢.
(٢) راجع: «الحبائك في أخبار الملائك» ص٢٠٧، ٢٠٨.
(٣) راجع: المجلد الثالث ص٢١٧.
(٤) رجع: «الفصل» ٣/ ١٤٥.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

السُّنة النبوية.

١ ـ أحكام القرآن: لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لقاضي القضاة العلامة أبي السعود، نشر دار المصحف بالقاهرة.

٣ ـ الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: للشيخ الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة، سلسلة البحوث الإسلامية ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٤ ـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٥ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للإمام نصر الدين البيضاوي، نشر مكتبة مصطفى الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٦ ـ البحر المحيط: للعلامة أبي حيان الأندلسي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٧ ـ البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير، دقق أصوله وحققه دكتور أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٨ ـ تأويلات أهل السُّنة وهو تفسير الماتريدي: للإمام أبي منصور الماتريدي السمرقندي، تحقيق وتعليق د. إبراهيم عوضين والسيد عوضين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٩ ـ تفسير التحرير والتنوير: للإمام الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

١٠ ـ تفسير الطبري المسمى بجامع البيان: لابن جرير، حققه وعلق حواشيه محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٦٩م، مع طبعة دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١١ ـ تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل: للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، نشر دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

١٢ ـ تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار: للشيخ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢م.

١٣ ـ تفسير القرآن العظيم: للحافظ ابن كثير، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٤ ـ التفسير الكبير: للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

١٥ ـ تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود: في العهد القديم والإسرائيليات: للدكتور فتحي محمد الزغبي، الطبعة الأولى، طنطا ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، والطبعة الثانية، دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠١٠هـ.

١٦ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول: للإمام ابن الأثير الجزري، تحقيق وتخريج وتعليق عبد القادر الأرناؤوط، نشر وتوزيع مكتبة الحلواني، ودار البيان، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

١٧ ـ الجامع لأحكام القرآن: للإمام القرطبي، طبعة مصورة عن دار الكتب، نشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

١٨ ـ الحبائك في أخبار الملائك: للحافظ السيوطي، صححه وعلق حواشيه أبو الفضل عبد الله الصديق، نشر مطبعة دار التأليف.

١٩ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للإمام السيوطي، نشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٢٠ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للإمام الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٢١ ـ شرح البيجوري على الجوهرة: للبيجوري، الشركة المصرية للطباعة والنشر ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٢٢ ـ شرح الشفا: للملا علي القاري حاشية على نسيم الرياض: للخفاجي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٣ ـ شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٣٩١هـ.

٢٤ ـ شرح المقاصد: للعلامة سعد الدين عمر التفتازاني، نسخة مصورة عن طبعة ١٢٧٧هـ، والطبعة المحققة للدكتور عبد الرحمٰن عميرة، عالم الكتب، بيروت.

٢٥ ـ شرح المواقف: للسيد الشريف الجرجاني، جـ٨، مطبعة بمصر ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م، ونسخة مصورة عن طبعة دار الطباعة العامرة ١٣١١هـ الجزء الثالث.

٢٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي أبي الفضل عياض، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٧م.

٢٧ ـ الفصل في الملل والنحل: للإمام ابن حزم الظاهري، خمسة أجزاء في مجلد واحد، نشر مكتبة السلام العالمية.

٢٨ ـ في ظلال القرآن: للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، الطبعة العاشرة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، القاهرة، بيروت.

٢٩ ـ قصص الأنبياء: للإمام الحافظ ابن كثير، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٣٠ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: نشر مكتبة ومطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٣١ ـ لسان العرب: لابن منظور، دار المعارف بمصر.

٣٢ ـ متشابه القرآن: للقاضي عبد الجبار الهمذاني، تحقيق د. عدنان محمد زرزور، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة.

٣٣ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل: شرحه وصنع فهارسه الشيخ أحمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٣٤ ـ معالم التنزيل: للإمام البغوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٣٥ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: القاهرة.

٣٦ ـ المفردات في غريب القرآن: للأصفهاني، دار القلم بدمشق ١٩٩٧م.

٣٧ ـ مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا: للإمام السيوطي، تحقيق الشيخ سمير القاضي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، مؤسسة الكتب الثقافية.

٣٨ ـ المواقف في علم الكلام: عضد الله والدين الإيجي، نشر عالم الكتب، بيروت.

٣٩ ـ الموضوعات: للإمام ابن الجوزي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٤٠ ـ نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض: للإمام شهاب الدين الخفاجي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٤١ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: للإمام البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع | **رقم الصفحة**

بشرية الرسل

بين

شبهات المنكرين

وضرورتها للنبوة والرسالة

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
website: www. dar-albashaer.com
email: info@dar-albashaer.com \ bashaer@cyberia.net.lb

بشرية الرسل

بين

شبهات المنكرين

وضرورتها للنبوة والرسالة

دراسة تحليلية نقدية

للدكتور

فتحي محمد الزغبي

أستاذ العقيدة والأديان

بجامعة الشارقة

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــداء

يشرّفني أن أتقدم بهذا الإهداء على استحياء إلى روح أستاذي الكبير، أستاذ الأساتذة وعميد العمداء، صاحب الفضيلة:

الشيخ الأستاذ الدكتور «عبد العزيز عبد الله عبيد»

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة، وأستاذ العقيدة بجامعة أم القرى،
والأستاذ المتفرغ بكلية أصول الدين (طنطا) سابقاً

وإذا كنت لم أشرَّف بالتلمذة عليه في المرحلة الجامعية فإنني قد حظيت بمناقشته لي في رسالتي الماجستير والدكتوراه، ونلت شرف مشاركته في ترقيتي إلى درجة «أستاذ مساعد» (مشارك) و«أستاذ» في العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف.

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته إنه سميع مجيب.

المؤلف

فتحي محمد الزغبي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

فإن هذا الكتاب يبحث في بشرية الأنبياء والرسل من خلال عرض شبهات المنكرين للنبوة ونقدها والرد عليها رداً علمياً، وبيان ضرورة هذه البشرية للنبوة والرسالة، ولذلك فإنه قد اشتمل على فصلين:

الفصل الأول: يتضمن شبهات منكري النبوة حول بشرية الرسل، ويحتوي على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: شبهة كون الرسول بشراً مثل المرسل إليهم.

المبحث الثاني: شبهة كون الملائكة هم الأولى والأحق بالرسالة وطلب إنزالهم كرسل.

المبحث الثالث: شبهة كون الرسول من الفقراء لا مال له ولا سلطان.

وتمت الدراسة في هذا الفصل بعرض الشبهة أولاً كما وردت على ألسنة قائليها من كفار مكة أو من أقوام الأنبياء السابقين، ثم نقضها والرد عليها ثانياً من خلال تحليلها تحليلاً دقيقاً ونقدها نقداً علمياً وذلك بالاعتماد على الآيات القرآنية الواردة في هذا الشأن، مع الاستفادة بأقوال العلماء ومناقشاتهم.

أما **الفصل الثاني**: فهو بعنوان «بشرية الرسل ضرورة تمنع من الغلو والشرك بالله فيهم»، ويحتوي هذا الفصل على مبحثين:

المبحث الأول: بشرية المسيح تنفي زعم النصارى القول بألوهيته.

المبحث الثاني: التأكيد على بشرية نبينا محمد ﷺ.

والغرض من دراسة هذا الفصل بيان أن بشرية الرسل ضرورة لازمة للنبوة والرسالة، وذلك بعد أن تبين في الفصل الأول استحالة المقترحات البديلة عن البشرية وأن البشرية لا تتنافى مع النبوة وتتفق مع الحكمة من إرسال الرسل، فيجيء هذا الفصل ليؤكد أن البشرية ضرورة للرسالة؛ لأنها تمنع من الغلو في الرسل وتحول دون الإفراط في وصفهم واتخاذهم أرباباً من دون الله، وذلك من خلال بيان أن ثبوت بشرية المسيح في أناجيل النصارى تنفي زعمهم القول بألوهيته، وأن القرآن الكريم قد استدل بهذه البشرية في محاجَّة النصارى على إبطال عقيدتهم في المسيح عليه السلام.

ثم يكون البحث بعد ذلك في التأكيد على بشرية نبينا محمد ﷺ مراراً وتكراراً في القرآن الكريم ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ والسُّنة النبوية من خلال أقواله وأفعاله وحياته كلها في السيرة المطهرة حتى لا يفتتن فيه المسلمون كما افتتن النصارى في المسيح عليه السلام. مع الإشارة إلى أن التأكيد على البشرية يصاحبه قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، وقوله ﷺ: «**إني لست كهيئتكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**». ورحم الله الإمام البوصيري الذي يقول في بردته:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت فيه مدحاً واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

هذا وأرجو الله سبحانه أن أكون قد وفّقت في تأليف هذا الكتاب وأتضرع إليه تعالى أن يتقبله مني خالصاً لوجهه الكريم ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

فتحي محمد الزغبي

الشارقة

أكتوبر/ تشرين أول/ ٢٠١٠م

الفصل الأول

شبهات منكري النبوة حول بشرية الرسل

تمهيد:

حينما بعث الله سبحانه إلى الناس رسلاً من البشر يبلغونهم رسالات ربهم، وليخرجوهم من ظلمات الكفر والوثنية إلى نور الإيمان والتوحيد، كانت الشبهة التي تلجلجت في صدورهم، وتكررت على ألسنتهم على اختلاف أجناسهم وأزمانهم، وصدتهم عن الإيمان بالرسل والتصديق بكتبهم هي شبهة كون الرسول بشراً مثلهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون، وكان هذا الأمر مصدر عجب ومثار استنكار من أكابر الأقوام ومجرميهم، ثم يجبرون عامة الناس على الأخذ برأيهم، وترديد قولهم، بعد أن يزينوا لهم الباطل ويصدوهم عن الحق ترغيباً أو ترهيباً ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

فقد اعتبروا أن طاعة البشر الذين هم مثلهم مآلها إلى البوار والخسران.

وكان السؤال الدائم الذي يقابل به كل رسول من قومه ويلقونه في عجب واستنكار واستهزاء حتى كان من أقوى الأسباب في كفرهم ومن أظهر الموانع التي حالت دون إيمانهم هو: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

فقد وردت هذه الشبهة على ألسنة كفار قريش حينما طعنوا في نبوة سيدنا محمد ﷺ لأنه بشر، فبيّن الله ﷻ أن هذه الشبهة قد وردت على ألسنة الأولين وأنهم في ذلك القول مقلدون لأسلافهم من الكفار ومتبعون لسابقيهم من المنكرين، وقص عليهم أطرافاً وصوراً من هذا الإنكار وبيّن لهم عاقبة أمرهم.

وقبل أن نعرض لاستنكار قريش ورد القرآن الكريم عليهم أود أن أشير إلى أن إنكار نبوة البشر قد اتخذ ثلاث صور:

الصورة الأولى:

فيما يتعلق بالصورة الأولى: نجد أن هناك من أنكر كون الرسول من البشر واستبعد إرساله إليهم، واكتفى بهذا الإنكار ولم يقترح بديلاً عنه، وانتهى إلى إنكار النبوة عموماً، وكان استبعاد إرسال البشر أحد وأهم الأسباب التي اعتمد عليها هؤلاء في مذهبهم وهؤلاء هم البراهمة(١).

يذكر الشهرستاني أن البراهمة هم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً ورأساً وقرروا استحالتها في العقول بوجوه ذكرها في كتابه «الملل والنحل» وذكرها الكثيرون من مصنفي الفِرَق والأديان. ويهمنا هنا أن نشير إلى وجه واحد من هذه الوجوه وهو: قولهم: إن أكبر الكبائر في

---

(١) يظن البعض خطأ أن البراهمة سموا بذلك نسبة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام فكيف يقولون بذلك وهم المخصوصون بنفي النبوات أصلاً ورأساً وإنما انتسبوا إلى رجل منهم يقال له: «براهم». راجع تفصيل الحديث عنه: «الملل والنحل» للشهرستاني ٢/ ٢٥٠، ٢٥١؛ و«التمهيد» للباقلاني ص٩٦.

الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل، يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً إلخ ما أوردوه في ذلك[1].

وذكر الباقلاني أن من وجوه إنكارهم للنبوة أنهم استدلوا على أنه لا يجوز أن يرسل الله تعالى رسولاً إلى خلقه بقولهم إنا وجدنا الرسول في الشاهد والمعقول من جنس المرسل، فلما لم يجز أن يكون القديم من جنس المخلوقات بذاته ثبت أنه لا يجوز أن يرسل رسولاً إلى خلقه.

وعلّلوا استحالة إنفاذ الله سبحانه رسله إلى خلقه بأنه سبحانه علم أن الرسول من جنس المرسل إليه وأن جوهرهما واحد، وأن تفضيل أحد المتماثلين المتساويين على مثله ونوعه ومن هو بصفته حيف ومحاباة وميل وخروج عن الحكمة[2].

وقد قام علماء الإسلام بنقض حججهم الواهية، ودحض شبهاتهم الركيكة من خلال الرد عليهم في كثير من كتب العقيدة وسوف أشير إلى هذه الردود في مواضعها من هذا البحث.

الصورة الثانية:

وفيما يتعلق بالصورة الثانية فهناك من أنكر كون إرسال الرسول من البشر، وكان هذا من منطلق أن البشر لا يصلحون الرسالة وإنما الأولى والأحق بها والأفضل لها هم الملائكة، ولذلك فإنهم كانوا يقترحون دائماً إرسال الملائكة كبدائل عن إرسال الرسل من البشر، وهؤلاء هم الصابئة[3].

---

(١) راجع: «الملل والنحل» ٢/ ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) «التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة» ص٩٦ ـ ٩٨.

(٣) يذكر الشهرستاني أن الصابئة قيل لهم ذلك لصبوتهم، والصبوة في مقابلة =

يذكر الشهرستاني أن الصابئة اعترضوا على نبوة وإرسال البشر بحجة أنهم أمثالنا في النوع وأشكالنا في الصورة، يشاركوننا في المادة يأكلون مما نأكل، ويشربون مما نشرب ويساهموننا في الصورة، أناس بشر مثلنا، فمن أين لنا طاعتهم؟ وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤)﴾ وتساءلوا: هل يجوز أن يكلم الله بشراً؟ وهل يكون كلامه من جنس كلامنا؟ وما البرهان أولاً على جواز انبعاث الرسل في صورة البشر؟ وما دليل كل مدع منهم؟ وانتهوا بعد تساؤلات عديدة إلى أنه لا يسمح عقل الإنسان بقبول أمر لا يعقله، ولا تطاوعه نفسه بتقليد شخص هو مثله يريد أن يتفضل عليه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾[١].

فهم لم ينكروا النبوة أصلاً وإنما أنكروا نبوة البشر؛ ولذلك فإن مدار مذهبهم على التعصب للروحانيين كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين بناء على أن الصبوة في مقابلة الحنيفية كما يقول الشهرستاني[٢] وكما سنشير إلى مذهبهم بعد ذلك، ويكفينا هنا أن نشير إلى أنهم يعتقدون أن الملائكة هم الأولى بالرسالة والأفضل للنبوة.

الصورة الثالثة:

أما فيما يتعلق بالصورة الثالثة، فإن هناك من أنكر نبوة صنف من البشر بسبب كونهم فقراء لا مال لهم ولا سلطان، فتعجبوا من إرسال هذا الرسول أو هذا النبي من بينهم، واقترحوا على الله سبحانه إرسال

= الحنيفية. راجع الحديث عنهم في: «الملل والنحل» ٢/ ٥ وما بعدها؛ و«الفكر الديني الجاهلي» للدكتور محمد إبراهيم الفيومي ص١٢٠ ـ ١٣٦.

(١) راجع: «الملل والنحل» ٢/ ٧، ٣٢، ٣٣.

(٢) راجع: المصدر السابق ٢/ ٥؛ و«نهاية الإقدام في علم الكلام» ص٤٢٩.

شخص آخر له مواصفات خاصة نابعة من مقاييسهم وصادرة عن تصوراتهم للعظمة(١).

*** وسوف نلاحظ أن كفار قريش الذين أنكروا نبوة سيدنا محمد ﷺ، قد دار إنكارهم على هذه الصور الثلاث شأنهم في ذلك شأن أقوام الأنبياء السابقين حينما أنكروا نبوتهم.**

فقد أنكروا نبوة البشر لأنهم بشر مثلهم، ومنهم من اكتفى بذلك، ومنهم من طلب إرسال الملائكة كبدائل عن البشر، ثم بعد ذلك سلموا بنبوة البشر وإنزال القرآن عليهم، لكنهم اقترحوا على الله سبحانه من هو أولى بأن ينزل القرآن عليه. يقول تعالى عن كفار قريش: إنهم تعجبوا من إرسال النبي ﷺ إليهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢]، ومن كان منهم مقراً بالملائكة قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

ثم قالوا بعد ذلك: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] ثم اقترحوا قائلين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

كذلك أقوام الأنبياء السابقين، فقوم نوح مثلاً قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ثم قالوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقوم صالح قالوا له: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ بعد أن قالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤].

وقال فرعون في حق موسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

معنى ذلك: أن هؤلاء الكفار من كان مقرّاً بالملائكة لكنهم لم يفهموا حقيقتهم ورسالتهم المكلفين بها، فمن كان يعرف الملائكة ويؤمن

(١) تفصيل ذلك في المبحث الثالث.

بهم كان يقترح إنزالهم مع الرسل البشريين لتصديقهم أو كبدائل عنهم.

ومن كان منهم يجهل الملائكة كان يكتفي بإنكار النبوة، بناء على بشرية الأنبياء والرسل، ويتخذون الأصنام شفعاء لهم ـ ليقربوهم ـ إلى الله زلفى.

حينما تحدث الشهرستاني عن آراء العرب في الجاهلية ذكر أنهم أصناف شتى، ويهمنا هنا أن نشير إلى صنف منهم سماهم «منكري الرسل» فذكر أن هؤلاء أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، وزعموا أنهم شفعاءهم عند الله في الدار الآخرة، وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا، وقرّبوا القرابين وتقرّبوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا، وهم الدهماء من العرب إلا شرذمة منهم وأن هؤلاء هم الذين أخبر عنهم التنزيل ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وذكر أن شبهات العرب كانت مقصورة على هاتين الشبهتين:

إحداهما: إنكار البعث (بعث الأجسام).

والثانية: جحد البعث (بعث الرسل).

ويهمنا هنا أن نشير إلى الشبهة الثانية فذكر أن إنكارهم لبعث الرسول ﷺ في الصورة البشرية أشد، وإصرارهم على ذلك أبلغ وأخبر التنزيل عنهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾.

فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتي ملك من السماء ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

ومن كان لا يعترف بهم كان يقول: الشفيع والوسيلة لنا إلى الله تعالى هم الأصنام المنصوبة[1].

(١) راجع: «الملل والنحل» ٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧.

ولذلك فإن الشبهات التي اعتمد عليها منكرو النبوة حول بشرية الأنبياء والرسل تدور على ثلاث شُبه كبرى وهي ما يشتمل عليه هذا الفصل الأول بمباحثه الثلاثة والمتضمنة عرض الشبهة ونقضها:

المبحث الأول: شبهة كون الرسول بشراً مثل المرسل إليهم.

المبحث الثاني: شبهة أن يكون الملائكة هم الأَولى والأفضل للرسالة وطلب إنزالهم بالرسالة كبدائل عن البشر أو مؤيدين لهم.

المبحث الثالث: شبهة كون الرسول من الفقراء لا مال له ولا سلطان.

المبحث الأول

شبهة كون الرسول بشراً مثل المرسل إليهم

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾:

من خلال آيات القرآن الكريم المتضمنة إنكار كفار قريش لنبوة سيدنا محمد ﷺ بدعوى أنه بشر مثلهم نجد أنهم أنكروا أولاً إنزال الوحي على البشر فقال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

فقد وردت هذه الآية في تقرير أمر النبوة والرد على منكريها وتفنيد ما عرض لهم من الشبه وبيان أنهم ما قدروا الله حق قدره؛ أي: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما وصفوه حق صفته، إذ قالوا منكرين لبعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وإنزال الكتب كافرين بنعَمِه الجليلة فيهما: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ فكل من أنكر النبوة والرسالة هو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته[1].

---

(١) راجع: «تفسير المنار» ٧/ ٥٠٩، ٥١٠. و«مفاتيح الغيب» للرازي ١٣/ ٧٣، ٧٤؛ =

وإذا كان العلماء قد اختلفوا في هؤلاء الذين قالوا هذا القول فإن الرأي الراجح، والأصح هو أنهم كفار قريش ومشركو مكة وليس اليهود كما قال البعض[1].

وقد اختار الإمام الطبري هذا الرأي ورجحه، فبعد أن عرض للروايات المأثورة عن الفريقين ذكر أن أولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال إنهم مشركو قريش، وذلك لأن الآية في سياق الخبر عنهم، ولم يجر لليهود ذكر في هذه السورة التي وردت فيها الآية، بالإضافة إلى أنه من المعروف من دين اليهود أنهم لا ينكرون الوحي بل يقرون بنزوله على إبراهيم وموسى وعدد من أنبياء بني إسرائيل حيث يقرون بصحف إبراهيم وموسى وزبور داود، فإنكار الوحي على البشر عموماً ليس مما تدين به اليهود، ثم يقول: «ولما كان الخبر من أول السورة ومبتدئها إلى هذا الموضع خبراً عن المشركين من عبدة الأوثان، وكان قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ موصولاً بذلك غير مفصول فإنه لم يجز لنا أن ندّعي أن ذلك مصروف عما هو به موصول إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل.

يضاف إلى ذلك: أن الأكثرين قد اتفقوا على أن هذه السورة مكية، وأنها نزلت دفعة واحدة، وأن مناظرات اليهود مع الرسول ﷺ كانت في المدينة»[2].

ولذلك، فإن الحافظ ابن كثير يرى أن هذا الرأي هو الأصح مستدلاً بأن الآية مكية واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء. أما

= «روح المعاني» للألوسي ٧/ ٢١٨.

(١) راجع: «تفسير الرازي» ١٣/ ٧٤؛ «إرشاد العقل السليم» لأبي السعود ٢/ ١١٨، ١١٩؛ «تفسير البيضاوي» ١/ ٣٢٠؛ «روح المعاني» للألوسي ٧/ ٢١٩.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ٧/ ١٧٦ ـ ١٧٨؛ «تفسير المنار» ٧/ ٥١٢، ٥١٣؛ «تفسير الرازي» ١٣/ ٧٤، ٧٥.

قريش والعرب فإنهم كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر[1].

وإذا كان قد استشكل على هذا الرأي بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ فقيل: إذا كان كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء عليهم السلام فكيف يمكن إلزام نبوة موسى عليهم، بالإضافة إلى أن قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ لا يليق إلا باليهود.

إذا كان قد استشكل بذلك فإنه قد أجيب عنه ـ فيما قاله الرازي ـ بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وكانوا قد سمعوا على سبيل التواتر ظهور المعجزات القاهرة على يد موسى عليه السلام، والكفار كانوا يطعنون في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بسبب أنهم كانوا يطلبون منه أمثال هذه المعجزات حتى يؤمنوا به، فكان مجموع هذه الكلمات جارياً مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف بنبوة موسى عليه السلام وإذا كان الأمر كذلك لم يبعد إيراد نبوة موسى عليه السلام إلزاماً عليهم في قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾[2].

وأضاف الطبري أن الأصوب من القراءة في قوله: «يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً» بالياء على معنى أن اليهود يجعلونه فتكون الآية حكاية عنهم ذكرت في خطاب مشركي العرب وذكر أن هذا هو المعنى الذي قصده مجاهد[3].

بالإضافة إلى ما ذكره أبو السعود من أنه لما كان إنزال التوراة من المشاهير الذائعة حسن إلزامهم بما ذكر، ولذلك كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ﴾[4].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ٢/ ١٥٦. (٢) راجع: «تفسير الرازي» ١٣/ ٧٦.
(٣) «جامع البيان» ٧/ ١٧٨.
(٤) «تفسير أبي السعود» ٢/ ١١٩؛ راجع: «روح المعاني» ٧/ ٢١٩.

والذي يدل على أن التوراة كانت معروفة عند مشركي مكة أنهم أرسلوا وفداً إلى أحبار اليهود ليسألهم عن النبي ﷺ.

وبذلك يكون الاحتجاج عليهم بالتوراة في هذه السورة التي أنزلت في محاجتهم في جميع أصول الدين احتجاجاً وجيهاً، فالآية نزلت ضمن السورة بمكة ـ كما قرأها ابن كثير ـ محتجة على مشركي مكة الذين أنكروا الوحي استبعاداً لخطاب الله للبشر باعترافهم بكتاب موسى(١).

قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾:

وفي أول سورة الأنبياء حكى الله سبحانه عن كفار قريش أنهم كانوا ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾ يقولون: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] متعجبين ومستبعدين إرسال البشر:

يذكر الطبري وابن كثير أن هؤلاء الذين ظلموا أسروا النجوى؛ أي: قائلين فيما بينهم خفية: هل هو إلا إنسان مثلكم في صوركم وخلقكم؟! يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبيه؛ لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم؟!(٢).

وقالوا ذلك بناء على ما ارتكز في اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون بشراً وإنما يكون ملكاً وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق فهو من قبيل السحر، ولهذا قالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟!!

وفي سورة الإسراء بيّن الله سبحانه أن هذا التعجب وذلك الاستبعاد لإرسال البشر كان من أبرز الموانع التي صدتهم عن الإيمان بالقرآن ونبوة

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير المنار» ٧/ ٥١٣ ـ ٥١٥.
(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١٧/ ٣؛ و«تفسير القرآن العظيم» ٣/ ١٧٣.
(٣) راجع: «تفسير الرازي» ٢٢/ ١٤١، ١٤٢؛ و«تفسير الألوسي» ١٧/ ٩.

سيدنا محمد ﷺ يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

أي: وما منعهم وقت مجيء الوحي المقرون بالمعجزات المستدعية للإيمان أن يؤمنوا بالقرآن ونبوتك إلا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي قولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ منكرين أن يكون رسول الله عليه الصلاة والسلام من جنس البشر(١).

وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضاً آخر منهم، بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم، وإنما عبر عنه بالقول إيذاناً بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم وما صدق، وحصر المانع فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لأنه هو المانع بحسب الحال أعني عند سماع الجواب بقوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٢).

إذ هو الذي يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية.

وفيه على هذا إيذان بكمال عنادهم حيث يشير إلى أن الجواب المذكور مع كونه حاسماً لمواد شبههم مقتضياً للإيمان يعكسون الأمر ويجعلونه مانعاً(٣).

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١٥/ ١١١؛ «تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٤؛ «تفسير أبي السعود» ١/ ٢٣٣؛ «روح المعاني» ١/ ١٧١.

(٢) فهذا جواب عن مطالب الكفار: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

(٣) راجع: «تفسير أبي السعود» ١٣/ ٢٣٣؛ «روح المعاني» ١٥/ ١٧١.

وفي أول سورة يونس أنكر الله ﷻ عليهم تعجبهم من إرسال البشر. يقول تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

فقد تعجب كفار قريش من تخصيص الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ بالرسالة والنبوة والوحي فأنكر الله عليهم هذا التعجب.

يذكر الرازي أن هذا التعجب يحتمل وجهين:

أحدهما: أنهم قد تعجبوا من أن يجعل الله بشراً رسولاً فقوله: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: من جنسهم وهذا كقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

الثاني: أنهم لم يتعجبوا من ذلك بل تعجبوا من تخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بالوحي والنبوة مع كونه فقيراً يتيماً، فقوله: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؛ أي: إلى رجل من أفنائهم من حيث المال دون عظيم من عظمائهم وهذا كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ حيث كانوا يقولون «العجب أن الله لم يجد رسولاً إلى الناس إلا يتيم أبي طالب»[١].

وكلا الوجهين من ظهور البطلان بحيث لا مزيد عليه[٢].

لكن الصحيح أن هذه الآية تحتمل وجهاً واحداً وهو الوجه الأول.

أما الوجه الثاني فسيكون الكلام عليه بعد ذلك[٣].

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك،

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ١٧/ ٥؛ «تفسير الكشاف» ٢/ ٣٢٧؛ «تفسير أبي السعود» ٢/ ٣٠٩.

(٢) راجع تفصيل هذا البطلان في: «تفسير أبي السعود» ٢/ ٣٠٩؛ و«تفسير الرازي» ١٧/ ٥، ٦.

(٣) سيكون ذلك عند الكلام على الشبهة الثالثة في المبحث الثالث.

ومن أنكر منهم قالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد! فأنزل الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ...﴾ [الأنبياء: ٧].

فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة فـ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ يقولون: أشرف من محمد؛ يعني: الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمر الثقفي من الطائف؛ فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ...﴾[1].

ولذلك فإن ابن كثير يذكر أن الله سبحانه قد أنكر في هذه الآية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...﴾ على من تعجب من الكفار إرسال المرسلين من البشر[2]. فالاستفهام هنا إذن للتعجب من عجب الكفار ولاستنكار إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم.

والمعنى: أكان إيحاؤنا إلى رجل من الناس أمراً نكراً اتخذوه أعجوبة بينهم يتفكهون باستغرابها؟

كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم.

والمراد بالناس هنا كفار مكة ومن تبعهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وعبر عنهم بالناس؛ لأن هذه الشبهة على الرسالة قد سبقتهم إليها أقوام الأنبياء قبله فقصة العجب من أن يكون الرسول بشراً قصة قديمة مكرورة معادة قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء

(١) راجع: «الدر المنثور» للسيوطي ٤/ ٣٤٠؛ «تفسير ابن كثير» ٢/ ٤٠٦.
(٢) «تفسير ابن كثير» ٢/ ٤٠٥.

الرسالات، وتكرر إرسال الرسل من البشر، وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض[1].

ولذلك فإن الله سبحانه قد بيّن لكفار مكة أن الاعتراض على بشرية الرسل كان ديدن الذين كفروا جميعاً من قبل وكأنهم قد اتفقوا أو تواصوا على هذا الاعتراض، مما يعني أن اعتراضهم على بشرية النبي سيدنا محمد ﷺ ليس بالأمر الجديد وإنما هم في ذلك متبعون لمن قبلهم من أهل الكفر والضلال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾:

فقد ذكرهم الله سبحانه في سورة التغابن بعاقبة ومصير الغابرين من المكذبين الرسل والمنكرين لنبوتهم، وحذرهم من مثل عاقبتهم حيث ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب أليم، وكشف لهم عن السبب الذي استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم، وهو أنهم كانوا يعترضون على بشرية الرسل بمثل ما يعترضون به على النبي ﷺ.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥، ٦].

يذكر الطبري وابن كثير أن الله سبحانه يخبر كفار مكة عن الأمم الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال، فرغم أنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات؛ أي: بالحجج والدلائل والبراهين إلا أنهم قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟! استكباراً منهم واستبعاداً أن تكون الرسالة في البشر وأن يكون

---

(١) راجع: «تفسير المنار» ١١/١١٨؛ «في ظلال القرآن» ٢٣/٣٠٠٨؛ و«قصص الأنبياء» لابن كثير ١/٩٥.

هداهم على يدي بشر مثلهم فكفروا وتولوا عن الحق من أجل أن بشراً مثلهم دعاهم إليه[1].

ومعنى ذلك: أن كل قوم من المذكورين قالوا في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكرين كون الرسول من جنس البشر ومتعجبين من ذلك: أبشر يهدوننا، وقد أجمل في الحكاية فأسند القول إلى جميع الأقوام وأريد بالبشر الجنس فوصف بالجمع كما أجمل الخطاب[2].

وبعد أن بيّن القرآن الكريم بإجمال اعتراض الكفار على بشرية الرسل عرض بالتفصيل لبعض الأقوام السابقين:

قوم نوح عليه السلام:

وإذا ما بدأنا بأول الرسل الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم وهو سيدنا نوح عليه السلام فإننا نجد أن قومه قد سنّوا هذه السُّنة السيئة التي اتبعها خلفاؤهم وابتدؤوا تلك العادة الرذيلة التي تكررت مع لاحقيهم من الأقوام الذين واجهوا دعوات أنبيائهم.

فبعد أن أخبرنا الله سبحانه عن إرسال نوح عليه السلام إلى قومه ودعوته إياهم إلى التوحيد يقول تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فقولهم في الآيتين معناه: أنه مثلكم في الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه، وقد وصفوه بذلك مبالغة في وضع رتبته العالية، وحطها

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢٨/ ٧٨؛ «تفسير ابن كثير» ٤/ ٣٧٤؛ راجع أيضاً: «في ظلال القرآن» ٢٨/ ٣٥٨٦.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٥/ ١٦٨.

عن منصب النبوة، كما أن وصفهم له بقولهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ هو نوع من الإغضاب للمخاطبين عليه وإغراء لهم على معاداته، حيث يوهمونهم أنه عليه السلام يريد أن يسودهم ويتقدمهم بادعاء الرسالة مع كونه بشراً مثلهم، فكأنهم يريدون أن يقولوا لهم: هذا الإنسان مشارك لكم في جميع الأمور ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد إليهما سبيلاً إلا بادعاء النبوة! فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته[1].

وقد أجاب الله سبحانه على شبهتهم هذه على لسان نوح عليه السلام حيث بيّن لهم أن حصول المساواة في البشرية لا يمنع من حصول المفارقة في صفة النبوة والرسالة، ثم ذكر الطريق الدالة على إمكانه فقال:

﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨].

فهذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ورد لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها، وإبطال لشبهتهم التي ذكروا فيها أنه بشر مثلهم.

والمراد بالرحمة النبوة التي أنكروا اختصاصه عليه السلام بها بين ظهرانيهم، والمعنى: إنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضيلة على سائر الناس مستتبعة لاختصاصه به دونهم؛ أخبروني إن امتزت عليكم بزيادة مزية وحيازة فضيلة من ربي وآتاني بحسبها نبوة من عنده فخفيت عليكم تلك البينة ولم تصيبوها ولم تعلموا حيازتي لها وكوني عليها إلى الآن حتى زعمتم أني مثلكم، وهي متحققة في نفسها، أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها، والحال أنكم كارهون لذلك؟ فيكون الاستفهام للحمل على الإقرار وهو الأنسب بمقام المحاجة، وحينئذ يكون كلامه

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٣/ ٩١؛ «روح المعاني» ١٨/ ٢٥؛ «تفسير الطبري» ١٨/ ١٣؛ «تفسير الرازي» ١٧/ ٢١١.

عليه الصلاة والسلام جواباً عن شبهتهم التي أدرجوها في خلال مقالتهم من كونه عليه السلام بشراً قصارى أمره أن يكون مثلهم من غير فضل له عليهم وقطعاً لشأفة آرائهم الركيكة[1].

قوم صالح عليه السلام (ثمود):

وبعد أن حكى الله سبحانه عن قصة نوح مع قومه في سورة «المؤمنون» قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣١، ٣٤].

فهو الاعتراض المكرور على بشرية الرسل هو الاعتراض الناشئ عن انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين وبين النفخة العلوية التي تصل الإنسان بخالقه الكريم ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾؛ أي: كان الحامل لهم على ذلك أننا نعمناهم وأحسنّا إليهم وكان ينبغي أن يكون الأمر بخلاف ذلك وأن يقابلوا نعمتنا بالإيمان وتصديق من أرسلته إليهم. لكنه الترف الذي يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب، فالمترفون في أي مجتمع كالعفن يفسد ما حوله حتى لينخر فيه السوس ويسبح فيه الدود[2].

يقول الطبري مفسراً لهذه الآيات:

«وقالت الأشراف من قوم الرسول الذي أرسلنا بعد نوح، وعنىٰ

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٧/ ٢١٢، ٢١٣؛ «إرشاد العقل السليم» ٣/ ١٧؛ «تفسير المنار» ١٢/ ٥٥.

(٢) راجع: «البحر المحيط» لأبي حيان ٦/ ٤٠٣، ٤٠٤؛ و«ظلال القرآن» ١٨/ ٢٤٦٧.

بالرسول في هذا الموضع صالحاً وبقومه ثمود»[1] ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾؛ أي: ونعمناهم في حياتهم الدنيا بما وسعنا عليهم من المعاش.

ويذكر أنهم قالوا: بعث الله صالحاً إلينا رسولاً من بيننا وخصه بالرسالة دوننا وهو إنسان مثلنا يأكل مما نأكل منه ويشرب مما نشرب، فكيف لم يرسل ملكاً من عنده يبلغنا رسالته؟!

أما قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

فمعناه: أنهم قالوا لقومهم: إن امتثلتم لمن هو بشر مثلكم في الأحوال والصفات إنكم إذاً لخاسرون عقولكم ومغبونون في آرائكم حيث أذللتم أنفسكم باتباعكم إياه[2].

وهكذا فإن بشرية سيدنا صالح جعلت الملأ من قومه يقولون كل هذا الكلام ويحذرون قومهم؛ يقولون هذا التحذير مضللين لهم حيث أنذروهم بالخسران المبين إذا اتبعوه.

وهم بهذا التحذير ينالون من صالح عليه السلام ويحطون من درجته في أنظار قومه.

يذكر أبو السعود والألوسي أنه لا يخفى ما في قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ...﴾ من المبالغة في توهين أمر الرسول ﷺ وتهوينه - قاتلهم الله - وهذا واضح من إيثار قولهم: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ على مثلنا[3].

---

(١) هناك من يرى أنهم قوم هود (عاد) لكن الرأي الذي ذهب إليه الطبري هو الأرجح والأصح في نظري؛ لأن ثمود قوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة، وقد قال الله سبحانه هنا في نهاية القصة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [المؤمنون: ٤١].
راجع: «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٠؛ و«روح المعاني» ١٨/ ٢٨، ٣٣؛ و«قصص الأنبياء» لابن كثير ١/ ٩٣.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ١٨/ ١٥.

(٣) راجع: «تفسير أبي السعود» ٤/ ١٣١؛ «روح المعاني» ٨/ ٣٣.

وقد ورد في مواضع أخرى من القرآن الكريم اعتراض ثمود على بشرية نبيهم صالح، ففي سورة الشعراء قالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا﴾ [١٥٣، ١٥٤].

وفي سورة القمر يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [٢٣، ٢٤][١].

قوم شعيب عليه السلام (مدين):

وكذلك الأمر مع قوم شعيب عليه السلام فقد قالوا له بمثل ما قال ثمود في نبيهم صالح عليه السلام، فبعد أن قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧٦﴾ وهم أهل مدين ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧﴾. ذكر سبحانه أنهم اعترضوا عليه ورفضوا دعوته ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦، ١٨٧].

يذكر ابن كثير أنه تعالى أخبر عن جواب قوم شعيب له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها صالح تشابهت قلوبهم[٢].

فرعون مع موسى وهارون عليهما السلام:

كذلك فإن فرعون وملأه قد اعترضا على بشرية موسى وهارون عليهما السلام وقد أرسلهما الله إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وإن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين، كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر؛ تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين[٣].

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢٧/ ٥٩. (٢) «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ٣٤٦.

(٣) راجع: المصدر السابق ٣/ ٢٤٥.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥ ـ ٤٨].

أصحاب القرية:

وقد ورد في سورة «يس» أن الله سبحانه أرسل رسولين إلى أصحاب القرية فلما كذبوهما أرسل إليهم رسولاً ثالثاً.

ولم يذكر القرآن الكريم من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية وقد اختلفت فيها الروايات ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات.

وعدم إفصاح القرآن الكريم عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها، ومن ثم أغفل التحديد ومضى إلى صميم العبرة ولبابها، فهي قرية أرسل الله إليها رسولين ـ كما أرسل موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه ـ فكذبهما أهل تلك القرية فعززهما الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله، وتقدموا ثلاثتهم بدعوتهم من جديد فقالوا: إنا إليكم مرسلون، وهنا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات. يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٣ ـ ١٥].

فقد قالوا لهم: ما أنتم أيها القوم إلا أناس مثلنا ولو كنتم رسلاً كما تقولون لكنتم ملائكة، ومن أجل ذلك رموهم بالكذب وإنكار نزول الوحي عليهم: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾[1].

---

(١) راجع: في «ظلال القرآن» ٢٣/ ٢٩٦١؛ و«تفسير أبي السعود» ٤/ ٢٥٠.

وهذه القصص التي أوردها القرآن الكريم عن أقوام الرسل كما يقول أبو السعود تدل على أن مدار شبه المنكرين للنبوة قياس حال الأنبياء بناء على جهلهم بتفاصيل شؤون الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها في مراقي الكمال ومهاوي النقصان بحيث يكون بعضها في أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين اللطيف والكثيف، أو الروحاني والجسماني فيتلقون من جانب ويلقون من جانب، ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جناب حضرة الحق.

وبعضها في أسفل سافلين وهم كأولئك الجهلة الذين هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً[1].

وهذه شنشنة قريش ودأبها في استبعاد إرسال الله البشر، وأعجب بضلال هؤلاء: لم يرضوا للنبوة ببشر واستبعدوا رسالة البشر ورضي أكثرهم واعتقدوا إلهية الحجر!![2].

نقض شبهة كون الرسول بشراً يأكل الطعام:

وإذا كان الله سبحانه قد رد على كفار قريش بأن استنكارهم لبشرية الرسول ﷺ قد وقع من أسلافهم الكفار أقوام الأنبياء، فإنه تعالى بيّن لهم أيضاً أن الأنبياء السابقين كانوا جميعاً من البشر وأنه سبحانه لم يرسل إلى الناس إلا رسلاً من جنسهم، وأن هذه البشرية بما يلزمها من أكل الطعام والمشي في الأسواق لا تتنافى مع النبوة والرسالة وتتفق مع الحكمة من إرسال الرسل:

---

(١) راجع: «تفسير أبي السعود» ٤/٣٣؛ «روح المعاني» ١٨/٣٦.

(٢) «البحر المحيط» ٦/٤٠٢؛ «روح المعاني» ١٨/٣٦.

قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، والرد عليه:

حينما اعترض كفار مكة على بشرية النبي ﷺ كان مما اعترضوا به عليه ذلك الاعتراض المكرور الذي رددته البشرية عن كل رسول:

ما له أرسل من بشر؟ يتصرف تصرفات البشر؟

كيف يمكن أن يكون فلان بن فلان المعروف لهم المألوف في حياتهم الذي يأكل كما يأكلون، ويعيش كما يعيشون، كيف يمكن أن يكون رسولاً من عند الله يوحي إليه، كيف يمكن أن يتصل بعالم آخر غير عالم الأرض يتلقى عنه؟ وهم يرونه واحداً منهم من لحم ودم وهم لا يوحى إليهم ولا يعرفون شيئاً عن ذلك العالم الذي يأتي منه الوحي لواحد منهم لا يتميز في شيء عنهم فيما يتصورون.

يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧][(١)].

وفي قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام، وتسميته هنا بالرسول عبروا به بطريق الاستهزاء به كما قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ حال من الرسول؛ والمعنى: أي شيء وأي سبب حصل لهذا الزاعم أنه رسول ويدعي الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما نأكل ويحتاج إليه كما نحتاج ويمشي في الأسواق لابتغاء الأرزاق كما نفعله؟! على توجيه الإنكار إلى السبب فقط مع تحقق المسبب الذي هو مضمون الجملة الحالية كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ وقوله: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾.

---

(١) راجع: «في ظلال القرآن» ١٩/ ٢٥٥٢.

فكما أن كلاً من عدم الإيمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفي الأكل والمشي بطريق التهكم والاستهزاء، فإنهم لا يستبعدونها ولا ينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما.

فالغرض والمراد من قولهم هذا استبعاد الرسالة المنافية لهما ـ أي: أكل الطعام وطلب المعاش ـ على زعمهم، يعنون أنه إن صح ما يدعيه فما ماله لِمَ خالف حاله حالنا؟ وليس هذا إلا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور أبصارهم على المحسوسات، فإن تميز الرسل عليهم السلام عما عداهم ليس بأمور جسمانية وإنما بأمور نفسانية بما جبلهم الله تعالى عليهم من الكمال[1].

وقد رد الله سبحانه على قولهم هذا بأكثر من آية منها ما ورد في سورة الفرقان عقب قولهم هذا بعدة آيات:

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

يقول الطبري: هذا احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه على مشركي قومه الذين قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ...﴾.

وجواب لهم عنه يقول لهم جل ثناؤه: وما أنكر يا محمد هؤلاء القائلون: ما لهذا الرسول؟ من أكلك الطعام ومشيك في الأسواق وأنت لله رسول، فقد علموا أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا مَنْ إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق كالذي تأكل أنت وتمشي فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة[2].

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «البحر المحيط» ٦/ ٤٨٣؛ و«أبي السعود» ٤/ ٨٠؛ و«روح المعاني» ١٨/ ٢٣٧؛ و«ابن كثير» ٣/ ٣١٠؛ و«الطبري» ١٨/ ١٣٨؛ و«القرطبي» ١٣/ ٤، ٥.

(٢) «تفسير الطبري» ١٨/ ١٤٤؛ راجع: «تفسير القرطبي» ١٣/ ١٢، ١٣.

ومنها آيتان وردتا في سورة الأنبياء رداً على قول الكفار في أول السورة ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] وجواب لما زعموه من أن الرسول لا يكون إلا ملكاً حيث قال سبحانه بعد عدة آيات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ رداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: «وما أرسلنا إلى الأمم التي خلت من قبل إرسالك إلى أمتك إلا رجالاً مثلهم لا ملائكة نوحي إليهم بواسطة الملك أو من وراء حجاب ما نريد أن نوحيه إليه من الشرائع والأحكام وغيرهما، كما نوحي إليك من غير فرق بينهما في حقيقة الوحي وحقيقة مدلوله، كما لا فرق بينك وبينهم في البشرية. فما لهم لا يفهمون أنك لست بدعاً من الرسل وأن ما أوحي إليك ليس مخالفاً لما أوحي إليهم فيقولون ما يقولون وينكرون إرسالك إليهم، وأنت رجل كسائر الرسل من قبلك إلى أممهم»[1].

ثم أحالهم سبحانه على أهل الذكر فإنهم وإن كانوا مشايعين للكفار ساعين في إخماد نور الله لا يقدرون على إنكار إرسال البشر، وهم وإن كانوا موافقين لقريش في ترك الإيمان بالرسول ﷺ، إلا أن شهادتهم لا مطعن فيها ولذلك يقول تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فهو تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الكفرة لتبكيتهم واستنزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير إثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله ﷺ لأنه الحقيق بالخطاب في أمثال تلك الحقائق الأنيقة[2].

وفي المراد بأهل الذكر وجوه:

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١٧/٤؛ و«ابن كثير» ٣/ ١٧٤؛ و«القرطبي» ١٠/ ١٠٨، ١١/ ٢٧١؛ و«روح المعاني» ١٧/ ١٢.

(٢) راجع: «البحر المحيط» ٦/ ٢٩٨؛ و«روح المعاني» ١٧/ ١٣.

الأول: قال ابن عباس: يريد أهل التوراة، والذكر هو التوراة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؛ يعني التوراة.

الثاني: قال الزجاج: فاسألوا أهل الكتب الذين يعرفون معاني كتب الله تعالى، فإنهم يعرفون أن الأنبياء كلهم بشر.

الثالث: أهل الذكر: أهل العلم بأخبار الماضي، إذ العالم بالشيء يكون ذاكراً له(١).

يقول ابن كثير: «﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾؛ أي: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ وإنما كانوا بشراً وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم»(٢).

وينقل القرطبي عن سفيان أنَّ أهل الذكر هم أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبي ﷺ(٣).

والظاهر أن أهل الذكر هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى كما روي عن الحسن وقتادة وسماهم أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب في أمر النبي محمد ﷺ.

وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه؛ أي: إن كنتم لا تعلمون ما ذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام لتزول شبهتكم(٤).

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٠/ ٣٦. (٢) «تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٤.
(٣) «تفسير القرطبي» ١١/ ٢٧٢.
(٤) راجع: «روح المعاني» ١٧/ ١٣؛ و«الطبري» ١٧/ ٤، ٥؛ و«تفسير القرطبي» ١١/ ٢٧١، ٢٧٢؛ و«تفسير الرازي» ٢٠/ ٣٦.

يذكر الإمام ابن تيمية أن العرب كان لا عهد لهم بالنبوة من زمن إسماعيل عليه السلام فأمرهم الله سبحانه أن يسألوا أهل الكتاب: هل أرسل الله إليهم رجالاً أو ملائكة؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

فبيّن أن هذا الجنس من الناس معروف وقد تقدم له نظراء وأمثال[1].

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ فهو بيان لكون الرسل عليهم الصلاة والسلام أسوة لسائر أفراد الجنس في أحكام الطبيعة البشرية؛ أي: لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب وما كانوا خالدين[2].

يقول الضحاك: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾؛ أي: لم أجعلهم جسداً ليس فيهم أرواح لا يأكلون الطعام ولكن جعلناهم جسداً فيها أرواح يأكلون الطعام.

قال أبو جعفر: قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ فوحد الجسد وجعله موحداً وهو من صفة الجماعة وإنما جاز ذلك لأن الجسد بمعنى المصدر كما يقال في الكلام: «وما جعلناهم خلقاً لا يأكلون» ولم يقل أجساداً لأنه أراد: وما جعلنا كل واحد منهم جسداً[3].

فقوله: ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صفة ﴿جَسَدًا﴾؛ أي: وما وجعلناهم جسداً مستغنياً عن الغذاء بل محتاجاً إليه.

(١) «النبوات» ص١٥؛ و«شرح العقيدة الأصفهانية» ص١٥٤.
(٢) راجع: «روح المعاني» ١٧/ ١٣؛ و«تفسير القرطبي» ١١/ ٢٧٢.
(٣) «تفسير الطبري» ١٧/ ٥؛ راجع: «القرطبي» ١١/ ٢٧٢.

والمعنى: ما جعلنا الأنبياء ذوي جسد غير طاعمين وهذه الجملة من تمام الجواب للمشركين الذين قالوا: هل هذا إلابشر مثلكم؛ لأن البشرية تقتضي الجسمية الحيوانية، وهذه لا بد لها من مادة تقوم بها[1].

ولما أثبت أنهم كانوا أجساداً يأكلون الطعام بين أنهم مآلهم إلى الفناء والنفاد، ونفى عنهم الخلود وهو البقاء السرمدي أو البقاء المدة المتطاولة؛ أي: هؤلاء الرسل بشر؛ أجساد يطعمون ويموتون كغيرهم من البشر، والذي صاروا به رسلاً هو ظهور المعجزة على أيديهم وعصمتهم من الصفات القادحة في التبليغ وغيره فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ﴾؛ أي: وما كانوا باقين في الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ولا كانوا أرباباً لا يموتون ولا يفنون ولكنهم كانوا بشراً أجساداً فماتوا. يقول قتادة: ﴿وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ﴾؛ أي: لا بد لهم من الموت أن يموتوا[2].

فجملة ﴿وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ﴾ مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام بشراً لا ملائكة كما يقتضيه اعتقاد المشركين الفاسد وزعمهم الكاسد.

وحاصل المعنى: جعلناهم أجساداً متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة حسب آجالهم ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ولا يموتون حسبما تزعمون[3].

وإنما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ﴾ ولم يقل: «وما جعلناهم خالدين» للتنبيه على أن عدم الخلود والبقاء من توابع جبلتهم في هذه

---

(١) راجع: «الرازي» ٢٢/ ١٤٤؛ و«الألوسي» ١٧/ ١٣؛ و«تفسير أبي حيان» ٦/ ٢٩٩.

(٢) راجع: «تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٤؛ «تفسير الطبري» ١٧/ ٥؛ «البحر المحيط» ٦/ ٢٩٩.

(٣) يذكر الألوسي أنهم كانوا يعتقدون في الملائكة عليهم السلام الأبدية؛ كاعتقاد الفلاسفة فيهم إلا أن هؤلاء يسمونهم عقولاً مجردة.

النشأة التي أشير إليها بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾[1].

بشرية الرسل لا تتنافى مع النبوة وتتفق مع الحكمة من إرسال الرسل:

وهذه الآيات في مجموعها تقرر أموراً هامة نستخلصها منها وتعد بمثابة ردود بالغة على أقوالهم وحججاً داحضة لشبهاتهم، وتثبت بجلاء أن بشرية الأنبياء وما يلزمها من أكل الطعام والمشي في الأسواق لا تتنافى مع النبوة والرسالة وتتفق مع الحكمة من إرسال الرسل.

هذه الأمور هي كما يلي:

أولاً: إن الله ﷻ أجاب عن شبهة القائلين بأن الله سبحانه أعلى وأجلّ من أن يكون رسوله واحداً من البشر يأكل مما يأكل منه الناس ويشرب مما يشربون: بأن عادة الله تعالى وسنّته في الرسل من قبل محمد ﷺ ومن أول زمان الخلق والتكليف أنه لم يبعث رسولاً إلا من البشر، فهذه عادة مستمرة لله ﷻ، وطعن هؤلاء الجهال بهذا السؤال الركيك: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ طعن قديم ولا وجه له، فلا يلتفت إليه لأنه ليس طعناً في شخص النبي ﷺ، ولا اعتراض على ذاته، فهو ليس بدعاً من الرسل وإنما هو طعن واعتراض على سنّة من سنن الله سنّة مقدرة مقصودة لها غايتها المرسومة[2].

ثانياً: إن الله سبحانه لم يجعل الرسل ذوي جسد غير طاعمين، وإنما جعلهم ذوي جسد يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا، بل يموتون كغيرهم وإن هذه أيضاً عادة الله في الرسل من قبل، فقد اقتضت

---

(١) راجع: «روح المعاني» للألوسي ١٧/ ١٣؛ «الكشاف» للزمخشري ٢/ ٥٦٣، ٥٦٤.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٢٠/ ٣٦، ٢٢/ ١٤٤؛ ٢٤/ ٦٥؛ «في ظلال القرآن» مجلد ٥، ١٩/ ٢٥٥٦.

حكمة الله سبحانه بأن يكون الرسل من البشر، يبلغون الوحي فيدعون به الناس، وما كان الرسل من قبل إلا رجالاً ذوي أجساد، وما جعل الله لهم أجساداً ثم جعلهم لا يأكلون الطعام، فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية والجسدية من مقتضيات البشرية، وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين[1].

ثالثاً: إذا كان الله سبحانه قد بيّن أن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين كانوا من البشر يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة مثل سائر البشر؛ إذا كان الأمر كذلك فإنه ليس بضار لهم وغير منافٍ لحالهم ولا ناقص من منصبهم شيئاً كما توهمه المشركون؛ لأن ذلك لا يتنافى مع النبوة ولا يتعارض مع الرسالة حيث جعل الله لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من عند الله[2].

رابعاً: إنه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر ـ وهم أهل الكتاب ـ حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشراً ولم يكونوا ملائكة؛ لأنهم رغم تمسُّكهم بشبهة أن الله أعلى وأجلّ من أن يكون رسوله واحداً من البشر إلا أنهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى هم أصحاب العلوم والكتب فأمرهم الله سبحانه بأن يرجعوا في هذه المسألة إلى اليهود والنصارى ليبينوا لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها، فإن اليهودي والنصراني لا بد لهما من تزييف هذه الشبه وبيان سقوطها. وقد أمروا بسؤال أهل الكتاب لأن إخبار الجم الغفير يفيد العلم في مثل ذلك لا سيما وهم كانوا يشايعون المشركين في عداوته ﷺ ويشاورنهم في

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٠/ ٣٦، ٢٢/ ١٤٤؛ و«البحر المحيط» ٦/ ٢٩٨.
(٢) راجع: «تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٤، ٣١٣.

أمره عليه الصلاة والسلام، ففيه من الدلالة على كمال وضوح الأمر وقوة شأن النبي ﷺ ما لا يخفى[1].

خامساً: وبناء على ذلك فإن النبي محمداً والأنبياء من قبله عليه وعليهم الصلاة والسلام كانوا من البشر وأرسلوا إلى البشر، ولولا ذلك لما أطاق الناس مقابلتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم، فهم وسائط بين الله تعالى وبين خلقه يبلغونهم أوامره ونواهيه ووعده ووعيده، ويعرفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقه وجلاله وسلطانه، وجبروته وملكوته، فظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة بأوصاف البشر، طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والموت والفناء ونعوت الإنسانية، وأرواحهم وبواطنهم متصفة بأعلى من أوصاف البشر متعلقة بالملأ الأعلى متشبهة بصفات الملائكة سليمة من التغير والآفات لا يلحقها غالباً عجز البشرية ولا ضعف الإنسانية.

إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية كظواهرهم لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة ورؤيتهم ومخاطبتهم ومخالفتهم كما لا يطيقه غيرهم من البشر، ولو كانت أجسامهم وظواهرهم متسمة بنعوت الملائكة وبخلاف صفات البشر، لما أطاق البشر ومن أرسلوا إليهم مخالطتهم.

فجعلوا من جهة الأجسام والظواهر مع البشر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة.

فبواطنهم منزّهة عن الآفات، مطهرة من النقائص والاعتلالات[2].

يذكر الشهرستاني أن البشرية لا تنافي الرسالة؛ لأن الأنبياء والرسل

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٠/٣٦، ٢٢/١٤٤؛ و«روح المعاني» ١٧/١٣؛ و«تفسير أبي حيان» ٦/٢٩٨.

(٢) راجع: «الشفا» للقاضي عياض ٢/ ٦٩٠ ـ ٦٩٣؛ و«نسيم الرياض» للشهاب الخفاجي ٣/ ٥٤١ ـ ٥٤٥؛ و«شرح الشفا» للملا علي القاري ٣/ ٥٤٢ ـ ٥٤٤.

لهم طرفان: بشرية ورسالة، فبطرف يماثل البشر وهو طرف الصورة، وبطرف يوحىٰ إليه وهو طرف المعنى والحقيقة: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

فبطرف البشرية يشاكل ويشابه نوع الإنسان ويشاركه فيأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويحيى ويموت.

وبطرف الرسالة يشاكل نوع الملائكة ويشاركه فيسبّح ويقدّس ويبيت عند ربه فيطعمه ويسقيه وتنام عيناه ولا ينام قلبه ويموت قالبه ولا تموت روحه.

وبمجموع الطرفين يفضل النوعين حتى تكون بشريته فوق بشرية النوع مزاجاً واستعداداً، وملكيته فوق ملكية النوع الآخر قبولاً وأداءً، فلا يضل ولا يغوى بطرف البشرية، ولا يزيغ ولا يطغى بطرف الروحانية(١).

سادساً: إن هذه الشبهة على الرسالة وهي كون الرسل بشراً مثل المرسل إليهم لم تدعم بحجة ولم تؤيد ببرهان، فهي ناشئة عن الجهل بطبيعة الإنسان حيث إنها شبهة وقرت في نفوس جهال البشر: أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله فإن تكن هناك رسالة فليحملها ملك.

وهي شبهة جاهلية مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة ضخمة لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة، وهي كرامة للجنس البشري كلها لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان ومنزلته عند الله(٢).

---

(١) راجع: «نهاية الإقدام في علم الكلام» ص٤٢٩؛ و«الملل والنحل» ٢/ ٣٧.

(٢) راجع: «تفسير المنار» ٨/ ٢٤٦؛ راجع: «في ظلال القرآن» ١٢/ ١٨٧١، ٢٨/ ٣٥٨٦.

وهي ناشئة أيضاً عن الجهل بطبيعة الرسالة ذاتها فإنها باعتبارها منهجاً إلهياً للبشر فلا بد أن تتمثل واقعياً في بشر يحيا بها، ويكون شخصه ترجماناً لها، فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون فتكون حياته بذلك قدوة لهم، وتكون لهم فيه أسوة، وهم يحسون أنه واحد منهم، وأن بينه وبينهم شبهاً وصلة، فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه ويدعوهم إلى اتباعه، وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه بشر منهم في واقع حياته.

ولن يتأتى لهم التأسي بأفعاله، إلا إذا فهموا أقواله، ولن يفهموا أقواله إلا إذا كان من جنسهم، يتكلم بلسانهم، ويعرف لغتهم وعاداتهم ومصطلحاتهم، وهم كذلك يعرفون لغته ويفهمون عنه، ويتجاوبون معه، ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه، أو اختلاف لغته، أو اختلاف طبيعة حياته[1].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

فلو كان الرسل من غير البشر «أي: الملائكة كما كانوا يقترحون»[2] لما استطاع البشر أن يأخذوا عنهم، وما تمكنوا من أن يجتمعوا بهم، ولكان للناس حجة في عدم اتباع الرسل بأن يقولوا: هؤلاء الذين بعثهم الله إلينا وأمرنا باتباعهم ليسوا من جنسنا؛ ليسوا بشراً إنما هم ملائكة، وطبيعتنا تختلف عن طبيعتهم، فهم أسمى منا خلقاً، وأطهر منا عملاً، وأكرم مقاماً؛ لأنهم ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وأنهم دائماً ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير المنار» ٨/٢٤٦؛ و«في ظلال القرآن» ٢٨/٣٥٨٦؛ ١٧/٢٣٦٨، ٢٣٦٩.

(٢) سأبين هذا ـ يعون الله ـ في المبحث القادم.

يذكر الرازي أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يقدرونهم في الإقدام على المعاصي بل إنه لو أتاهم بمعجزة قالوا له: هذا فعلك فعلته بقدرتك ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القدرة والقوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته أنت! فإنزال الملك يقوي الشبهة ضد الرسالة.

ويرى ابن كثير أن الله سبحانه بعث إلى الناس رسولاً من البشر، ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكُّنهم من مخاطبته ومكالمته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو بعث الله إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، فمن رحمته تعالى بخلقه ولطفه بهم أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعو بعضهم وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويذكر القرطبي أن الله سبحانه أرسل إلى البشر رسولاً منهم ليتحقق له بهم الأنس؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه[(١)].

فكون الرسول إلى البشر بشراً مثلهم يفهمون أقواله ويتأسون بأفعاله هو المعقول الذي تقتضيه الفطرة وطبيعة الاجتماع وبشرية الرسل لا تتنافى مع النبوة والرسالة، وتتفق مع الحكمة في إرسال الرسل.

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ١٦٢؛ و«النبوات» للرازي ص١٥٠؛ و«المطالب العالية» ٨/ ٨٣؛ «تفسير القرطبي» ٦/ ٣٩٣؛ «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٢٤، ٣/ ٦٤؛ «النبوة والأنبياء» للصابوني ص١٩، ٢٠؛ «في ظلال القرآن» ٢٣/ ٣٠٠٨.

المبحث الثاني
شبهة كون الملائكة أولى وأحق بالرسالة وطلب إنزالهم كرسل

عرض الشبهة:

حينما اعترض الكفار على إرسال الرسول من البشر اقترحوا على الله سبحانه أن يبعث إليهم بالملائكة رسلاً، اعتقاداً منهم أن الرسول المرسل إليهم من الله لا بد وأن يكون ملكاً، وأن هذا هو الأليق والأولى بالرسالة.

وكان طلبهم إرسال الملائكة على مرحلتين أو اتخذ صورتين:

الصورة الأولى: إنزال ملك مع الرسول ﷺ والذي هو بشر ليكون معه نذيراً؛ أي: مصدقاً ومؤيداً.

الصورة الثانية: استبدال الرسول البشري برسول من الملائكة يقوم مقام الرسل من البشر.

الصورة الأولى:

فيما يتعلق **بالصورة الأولى** أو المرحلة الأولى **وهي مرحلة إنزال ملك مع الرسول البشري فيكون معه مؤيداً ونذيراً**:

فقد ورد صراحة في قوله تعالى على لسان الكفار الذين أنكروا نبوة سيدنا محمد ﷺ في سورة الفرقان: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وورد أيضاً على ألسنتهم في سورة الأنعام دون أن يبينوا وظيفته في الإرسال اكتفاء بما ورد في سورة الفرقان يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨].

ففي هذه الآية يحكي الله سبحانه نموذجاً من اقتراحات المشركين التي يمليها التمحل والعناد كما يمليها الجهل وسوء التصور؛ ذلك إذ

يقترحون أن ينزل الله سبحانه على الرسول ﷺ ملكاً يصاحبه في تبليغ الدعوة، ويصدقه في أنه مرسل من عند الله.

يذكر ابن عطية أن هذا القول حكاية عمن تشطط من العرب بأن طلب أن ينزل ملك يصدق محمداً في نبوته.

ويقول الطبري في تفسيره: «هلا أنزل عليك ملك من السماء في صورته يصدقك على ما جئتنا به ويشهد لك بحقيقة ما تدعي من أن الله أرسلك إلينا؟! كما قال تعالى مخبراً عن المشركين في قيلهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[1].

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال:

دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود والنضر بن الحارث وغيرهما: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾؛ أي: هلا أنزل عليه ملك يكون معه يحدث الناس عنه ويخبرهم أنه رسول من ربه سبحانه إليهم[2].

وقد لخص الإمام الرازي شبهة هؤلاء الكفار فذكر أنهم تساءلوا: لِمَ لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمداً محق في دعواه؟!

وقرر شبهتهم في أن من أراد تحصيل شيء وكان له إلى تحصيله طريقان: أحدهما يفضي إليه قطعاً، والآخر قد يفضي وقد لا يفضي، والحكيم يجب عليه في حكمته أن يختار في تحصيل ذلك المقصود الطريق الأقوى والأحسن.

---

(١) راجع: «تفسير ابن عطية» ٥/ ١٣٢؛ «الطبري» ٧/ ٩٧؛ «في ظلال القرآن» ٧/ ١٠٤٠.

(٢) راجع: «روح المعاني» ٧/ ٩٦، ٩٧؛ «تفسير أبي السعود» ٢/ ٨٣؛ «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» للسيوطي ٧/ ٢٥١.

ولا شك أن إنزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد ﷺ أكثر إفضاء إلى المقصود، فلو أراد الله تعالى تصديق محمد ﷺ لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أراد تصديقه(١).

ويرى أبو السعود أن مقالتهم هذه من أباطيلهم المحققة وخرافاتهم الملفقة التي يتعللون بها كلما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل(٢).

وقد ورد الحديث عن هذا المطلب أيضاً في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: ١٢].

وهو قريب مما سبق أن اعترض به فرعون على سيدنا موسى عليه السلام حين أنكر نبوته وطلب منه أن يأتي معه بالملائكة: ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]؛ أي: هلّا إن كان صادقاً جاء معه الملائكة مقترنين قد اقترن بعضهم ببعض فتتابعوا يمشون فيدلون على صحة نبوته فيشهدون له بأنه رسول من الله إليهم؟!(٣).

وبذلك فإن كفار قريش قد اقترحوا أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيراً مؤيداً له أمامهم، مثلما طلب فرعون من موسى أن يأتي معه بالملائكة مقترنين وقد اشترطوا أن يروا الملك المقترح نزوله بأعينهم ولولا قيد الرؤية لم يكن للاقتراح فائدة لأن النبي ﷺ كان قد أخبرهم بأنه ينزل عليه الملك، وكأنهم ظنوا أن مساواتهم له ﷺ في البشرية تقتضي مساواته في الاستعداد لرؤية الملائكة وتلقي العلم عنهم. يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧].

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٤/ ٦٧.
(٢) «إرشاد العقل السليم» ٢/ ٨٣.
(٣) «تفسير الطبري» ٢٥/ ٥٠.

يقول الرازي في معنى هذه الآية مقرراً شبهتهم: «المراد: لو كنت صادقاً في ادعاء النبوة لأتيتنا بالملائكة يشهدون عندنا مصرحين بصدقك فيما تدعيه من الرسالة؛ لأن هذا هو الطريق الذي يفضي إلى تحصيل المقصود»(١).

الصورة الثانية:

وفيما يتعلق **بالصورة الثانية وهي طلب إنزال الملائكة كرسل مستقلين دون البشر:**

فقد ورد أيضاً على ألسنة كفار قريش الذين أنكروا نبوة سيدنا محمد ﷺ حيث طلبوا أن ينزل عليهم ملك مرسل من الله إليهم.

وقد بيّن الإمام الرازي شبهتهم في هذا الطلب فبيّن أنهم يقولون: لو بعث الله إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة فإنهم إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر، وقدرتهم أشد، ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل، والشبهات والشكوك في نبوتهم ورسالتهم أقل.

والحكيم إذا أراد تحصيل مهم فكل شيء كان أشد إفضاء إلى تحصيل ذلك المطلوب كان أولى.

فلما كان وقوع الشبهات في نبوة الملائكة أقل، وجب لو بعث الله رسولاً إلى الخلق أن يكون الرسول من الملائكة(٢).

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» ٩/ ١٥٩؛ و«تفسير المنار» ٧/ ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) راجع تفصيل هذه الشبهة في: «تفسير القرآن» ١٢/ ١٦١؛ و«النبوات» ص١٤٨ - ١٥٠؛ و«المطالب العالية» ٨/ ٨١ - ٨٣.

وقد فسّرها الطبري على أنها من الصورة الأولى[1].

لكن الصحيح ما ذهب إليه أبو السعود حيث أشار إلى ما ذهب إليه الطبري ثم بيّن أن الأنسب لقولهم: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أن يكون المعنى «هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة» من حيث إن كلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم في المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[2].

وسبق أن طلب هذا المطلب بعض الكفار السابقين حينما أنكروا نبوة أنبيائهم واستبعدوا إرسالهم إليهم:

جاء في سورة «المؤمنون» على لسان قوم نوح ﷺ أنهم قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وشرحه أن الله تعالى لو شاء إرشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد إفضاء إلى المقصود، ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد إفضاء إلى هذا المقصود من بعثة البشر؛ لأن الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم، فالخلق منقادون إليهم، ولا يشكون في رسالتهم، فلما لم يفعل ذلك علمنا أنه ما أرسل رسولاً البتة[3].

وذكر الألوسي أن هذا بيان لعدم رسالة البشر على الإطلاق بناءً على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشريته ﷺ؛ أي: ولو شاء الله تعالى إرسال الرسول لأرسل رسلاً من الملائكة، وإنما قيل ﴿لَأَنزَلَ﴾ لأن إرسال الملائكة لا يكون إلا بطريق الإنزال وعلى هذا يجوز أن يقال: التقدير: ولو شاء الله تعالى عبادته وحده لأنزل ملائكة يبلغوننا ذلك عنه ﷻ وكان

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١٩/ ٢.

(٢) «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٨٥.

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» ٢٣/ ٩١، ٩٢.

هذا منهم طعناً في قوله ﷺ: «اعبدوا الله»[1].

وفي سورة «فصلت» حكى الله سبحانه عن قوم عاد وثمود: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤].

يعني: أنهم كذبوا أولئك الرسل، وقالوا: والدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسالة إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة؛ لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة.

ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ومعناه: فإذا كنتم بشراً ولستم بملائكة فأنتم لستم برسل؛ وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم[2].

هذا؛ وينبغي أن نشير هنا إلى الصابئة حيث إنهم أنكروا كون الرسول من البشر، واعتقدوا أن الملائكة هم الأولى والأحق بالرسالة، بل إن الدكتور محمد إبراهيم الفيومي يرى أن العرب الذين طلبوا إنزال الملائكة كرسل إلى الناس كانوا قد مالوا إلى مبادئ الصابئة فطعنوا في أصل النبوة وهم الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؛ لأن الصابئة لا يجوّزون أن يكون الوسيط بشرياً إنما يجوزونه ملكاً[3].

يذكر الشهرستاني أن مدار مذهب الصابئة على التعصب للروحانيين كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصب للبشر الجسمانيين، فقد سلم الصابئة الرسالة للروحانيات وأوجبوا التوجه إلى هياكلها من الكواكب

(١) راجع: «روح المعاني» ١٨/ ٢٥.
(٢) راجع: «تفسير الرازي» ٢٧/ ١١١.
(٣) راجع: كتابه في «الفكر الديني الجاهلي» ص٢٧٧.

السبعة وعملوا الأشخاص على صورة الهياكل فتقربوا إليها وذلك عودٌ إلى الصورة والأصنام.

فمذهب أصحاب الروحانيات منهم أن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً، مقدساً عن سمات الحدثان، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله، وإنما يتقرّب إليه بالمتوسطات المقرّبين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهراً وفعلاً وحالة، فمن ناحية الجوهر فهم المقدسون عن المواد الجسمانية، المبرؤون عن القوى الجسدانية، المنزّهون عن الحركات المكانية، والتغيرات الزمانية؛ قد جبلوا على الطهارة وفطروا على التقديس والتسبيح ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ومن ناحية الفعل فإنهم قالوا: الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية.

وأما الحالة فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والراحة والبهجة والسرور في جوار رب الأرباب، ثم طعامهم وشرابهم: التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد والتحميد[١].

ويضيف الشهرستاني أن الحنفاء سلموا الرسالة للجسمانيات وأوجبوا التوجه إلى أشخاصهم ولم يتخذوا أصناماً آلهة، ولا اعتقدوا النبيين أرباباً، لكنهم قالوا: لهم طرفان: بشرية ورسالة ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٢].

---

(١) راجع: «الملل والنحل» ٢/ ٥ ـ ٨؛ «نهاية الإقدام في علم الكلام» ص٤٢٩.

(٢) راجع: المصدرين السابقين وص٣٧ من «الملل والنحل».

ويذكر أن المناظرة بين الفريقين في أول الزمان كانت قائمة وقد أظهرها الخليل إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وذكر الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» أنه قد جرت مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين الروحاني المحض وبين البشرية النبوية، وأوردها على شكل سؤال وجواب ولعل ما أورده من رد الحنفاء على الصابئة في هذه المناظرات مستقى من القرآن الكريم؛ استفاده الشهرستاني فأثبته فيها(١).

ولذلك فإن إيراد هذه الشبهة ـ شبهة طلب إنزال الملائكة كبدائل عن الرسل ـ والرد عليها في القرآن الكريم يعد جواباً لمنكري النبوة من كفار قريش ومن الكفار السابقين أيضاً بما فيهم الصابئة والبراهمة وغيرهم.

نقض الشبهة:

وقد بيّن الله سبحانه فساد القول بإنزال الملائكة كرسل إلى البشر سواء في الصورة الأولى أو في الصورة الثانية، ورد على مقترحاتهم في الصورتين معاً دحضاً لشبهتهم.

يقول أبو السعود: ولما كان مدار هذا الاقتراح على شيئين:

---

(١) لاحظ الدكتور إبراهيم الفيومي أن المناظرة التي أوردها الشهرستاني بين الحنفاء والصابئة خالية من تاريخ زمنها ومكانها، واستبعد وقوعها في زمن الخليل إبراهيم رأس الحنفاء نظراً لاحتوائها على كثير من المصطلحات المختلفة من حيث الزمان والمكان والألوان الفكرية، ففيها الفلسفي القديم والوسيط، والديني: الإسلامي وغيره، والعربي وغير العربي، ولذلك فإنه يميل إلى أنه ثقافة شهرستانية صياغةً وفكراً. راجع: «الفكر الديني الجاهلي» ص١٨١ ـ ١٨٣.

الأول: إنزال الملك كما هو، والثاني: جعله معه ﷺ نذيراً. أجيب عنه بأن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الوجود أصلاً لاشتماله على أمرين متباينين لا يجتمعان في الوجود، لما أن إنزال الملك على صورته يقتضي انتفاء جعله نذيراً، وجعله نذيراً يستدعي عدم إنزاله على صورته لا محالة[1].

ولذلك فإن الله سبحانه قد رد عليهم اقتراحهم المتمثل في الصورتين السابقتين وأجاب على شبهتهم من وجهين:

الوجه الأول: يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

الوجه الثاني: ويتمثل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وهناك من يرى أن الوجه الأول رد على الاقتراح الأول وأن الوجه الثاني رد على الاقتراح الثاني.

لكن الصحيح والذي يتفق مع السياق أن الجوابين معاً يصلحان رداً على الاقتراحين معاً دون أن يكون أحدهما رداً على الآخر؛ لأن ذلك كما يقول الألوسي غير ظاهر من النظم الكريم ولا داعي له أصلاً[2]، ولذلك فإنني سأبيّن بطلان الاقتراحين معاً ـ أو الصورتين: الأولى والثانية ـ من وجهين:

الوجه الأول:

فيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾.

---

(١) «إرشاد العقل السليم» ٢/ ٨٣.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: «روح المعاني» ٧/ ٩٨، ٩٩؛ و«حاشية الخفاجي على البيضاوي» ٤/ ٢٤.

فإنه سبحانه يبيّن أنه لو أنزل ملكاً كما اقترحوا لقضي الأمر بإهلاكهم ثم لا ينظرون؛ أي لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا، بل يأخذهم العذاب عاجلاً كما مضت به سنّة الله فيمن قبلهم[1].

وقد اختلف المفسرون في المراد بقضاء الأمر في قوله: ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ عدة أقوال:

القول الأول: أن سنّة الله تعالى في أقوام الرسل الذين قامت عليهم الحجة أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك والاستئصال الذي تتولى تنفيذه الملائكة.

فسنّة الله أن ينزل الملائكة ـ حين ينزلون إلى الأرض على قوم كذبوا برسولهم ـ أن ينزلوا للتدمير عليهم وتحقيق أمر الله فيهم بالهلاك والدمار، ولو أن الله استجاب للمشركين من العرب فأنزل ملكاً لقضي الأمر وتم التدمير ولم ينظروا إلى مهلة بعد هذا التنزيل. فهل هذا ما يريدون وما يقترحون؟ وهلا يستشعرون رحمة الله في عدم إجابتهم لما يقترحون لأنفسهم من الهلاك المبين؟!

هكذا يقفهم السياق وجهاً لوجه أمام رحمة الله بهم وحلمه عليهم وأمام جهلهم بمصلحة أنفسهم وجهلهم بسنّة الله في تنزيل الملائكة، وهم بهذا الجهل الذي يكاد يدمر عليهم حياتهم يرفضون الهدى ويرفضون الرحمة ويتعنتون في طلب الدليل[2].

وقد اختار الطبري هذا القول ونقل عن الحسن وقتادة وغيرهما:

---

(١) والفائدة في كلمة «ثم» التنبيه على أن عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر؛ لأن مفاجأة الشدة من نفس الشدة. راجع: «تفسير الرازي» ١٢/ ١٦٢؛ «روح المعاني» ٧/ ٩٧؛ «تفسير المنار» ٧/ ٢٦٢.

(٢) راجع: «تفسير المنار» ٧/ ٢٦٢؛ «الظلال» ٧/ ١٠٤١؛ «التحرير والتنوير» ٧/ ١٤٤، ١٤٥.

أنهم لو أنزلنا ملكاً على ما سألوا ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي لجاءهم العذاب عاجلاً غير آجل ولم ينظروا فيؤخروا بالعقوبة مراجعة التوبة كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات ثم كفرت بعد مجيئها من تعجيل النقمة وترك الإنظار(١).

وأشار الرازي أيضاً إلى هذا القول واعتبره هو الوجه الأول في تفسير قضاء الأمر المذكور؛ معللاً ذلك بأن سنّة الله جارية بأنه عند ظهور الآية الباهرة إن لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال، وإنزال الملك على البشر بمثل ما طلبوا آية باهرة، ولذلك فإنه سبحانه لم ينزل إليهم الملك لئلا يستحقوا هذا العذاب(٢).

القول الثاني: إن المراد بقوله تعالى: ﴿لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية كما يطلبون لزهقت أرواحهم من هول ما يشهدون.

وتقرير ذلك كما يقول الرازي(٣): أن الآدمي إذا رأى الملك؛ فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر، فإن كان الأول لم يبق الآدمي حياً؛ لأنه يوجب الخوف الشديد وزوال العقل، ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشي عليه(٤).

---

(١) راجع: «جامع البيان» ٧/ ٩٧؛ راجع: «القرطبي» ٦/ ٣٩٣.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ١٦١؛ راجع: «التفسير القيم» لابن القيم ص٢٣٣.

(٣) راجع: «تفسير الرازي» ١٢/ ١٦٢؛ و«المطالب العالية» ٨/ ٨٣.

(٤) يذكر العلماء أن النبي ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية مرتين: مرة في بدء نزول الوحي حينما رجع إلى أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده ويقول: «**زملوني**»، والمرة الثانية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ على رأي من قال إنه جبريل ويستدلون بما رواه الترمذي أن الرسول ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية مرتين.
انظر تفصيل هذه المسألة في: «روح المعاني» ٧/ ٩٧؛ و«تفسير المنار» ٧/ ٣٦٣ - =

وإن كان الثاني فحينئذ يكون المرئي شخصاً على صورة البشر وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو في نفسه ملكاً أو بشراً.

ألا ترى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم[(١)] وأضياف لوط[(٢)] وكالذين تسوروا المحراب[(٣)] وكجبريل عليه السلام حيث تمثل لمريم بشراً سوياً[(٤)].

= ٣٦٧؛ و«جامع الأصول» لابن الأثير ١١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧؛ و«مناهل العرفان» للزرقاني ١/ ٥٦ ـ ٥٨؛ و«الإتقان» للسيوطي ١/ ٤٤، ٤٥.

(١) نزل الملائكة وعلى رأسهم جبريل على الخليل إبراهيم عليه السلام في صورة بشر ضيفاناً عليه وسماهم القرآن الكريم بـ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إلخ ما ورد فيها في هذه السورة [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٤] وسماهم القرآن رسلاً: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ...﴾ إلخ ما ورد في سورة هود [٦٩ ـ ٧٦] ولم يعرفهم الخليل إبراهيم إلا بعد أن أخبروه بذلك ثم بشّروه هو وزوجه سارة رضي الله عنها بابنه إسحاق.

(٢) أضياف لوط ورد ذكرهم أيضاً في سورة (هود) وسماهم القرآن أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ وقال لوط لقومه عنهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ راجع: سورة هود من آية رقم [٧٧] إلى رقم [٨٣] وكانوا قد نزلوا ليخبروه بإهلاك قومه ونجاة من آمن به.

(٣) يقصد ما ورد في سورة (ص): ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ...﴾ وهذا على قول من يرى أنهم كانوا ملائكة ونزلوا في صورة بشر لابتلاء داود. وقد بحثت هذه النقطة بالتفصيل في كتابي «تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود» ورجحت أنهم كانوا من الإنس ولم يكونوا من الملائكة. يراجع الطبعة الثانية، دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠١٠م.

(٤) يقول تعالى عن مريم في سورتها: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾. وقد اختلف العلماء في كيفية ظهور جبريل وتمثله لها. وأورد الرازي عدة إشكالات وأجاب عنها، ونقل ذلك الألوسي وانتهى إلى أن هذه المسألة لا بد فيها من التفويض ولا سبيل للعقل فيها بشيء تنشرح له القلوب. راجع: «الرازي» ٢١/ ١٩٦، ١٩٧؛ و«الألوسي» ١٦/ ٧٥.

يذكر ابن عطية إن هذا القول هو الأولى في تفسير قضاء الأمر ويؤيده ما بعده من قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ حيث إن أهل التأويل مجمعون على أن ذلك راجع لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤية الملك في صورته(١).

واختار هذا القول أيضاً أبو السعود والألوسي حيث ذكرا أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: لو أنزلنا عليه ملكاً على هيئته أو على صورته الحقيقية حسبما اقترحوه فشاهدوه بأعينهم ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: لأتم أمر إهلاكهم بسبب مشاهدتهم له لمزيد هول المنظر بحيث لا تطيق بمشاهدته قوى الآحاد البشرية مع ما هم فيه من ضعف القوى وعدم اللياقة(٢).

ويستدل أبو السعود على ذلك بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصور البشرية، وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية فما ظنك بمن عداهم من العوام، فلو شاهدوه كذلك، لقضي أمر إهلاكهم بالكلية واستحال جعله نذيراً.

ويرى أن هذا مع كونه خلاف مطلوبهم، فإنه مستلزم بإخلاء العالم عما يدور عليه نظام الدنيا والآخرة من إرسال الرسل، وتأسيس الشرائع وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وفيه كما ترى إيذان بأنهم في ذلك الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه، وأن عدم الإجابة إليه للبقيا عليهم(٣).

---

(١) «تفسير ابن عطية» ٥/ ١٣٢.

(٢) «تفسير أبي السعود» ٢/ ٨٤؛ «روح المعاني» ٧/ ٩٧. ويذكر الألوسي أن هذا القول هو الأولى والمعول عليه، واستشهد بابن عباس في قوله: «لو أتاهم ملك في صورته لماتوا ثم لم يؤخروا طرفة عين إذ لا يطيقون صورته». راجع: ٧/ ٩٧؛ و«القرطبي» ٦/ ٣٩٣.

(٣) «إرشاد العقل السليم» ٢/ ٨٤.

وبجانب هذين القولين: الأول والثاني في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإن هناك أقوالاً أخرى ذكرها العلماء وضربت عنها صفحاً لضعفها وتهافتها[1].

والذي أرجحه وأرى أنه الأولى والأقوى هو القول الأول لا الثاني حيث ورد في معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].

أي: وما كان شأننا الذي مضت به سنتنا أن ننزل الملائكة إلا بالأمر الحق، وهو الرسالة للرسل أو العذاب للأمم الذين يعاندون الرسل فيقترحون عليهم الآيات المخصوصة ويعلقون إيمانهم عليها، ثم يصرون على جحودهم وكفرهم بعد أن يعطوها، فلو نزلت الملائكة عليهم ما كانوا إذ تنزل إلا هالكين لا ينظرون؛ أي: لا يمهلون لأجل أن يؤمنوا.

يذكر الرازي أن الكفار حينما قالوا لرسول الله ﷺ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾.

أجاب الله سبحانه على هذه الشبهة بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والمراد بالحق هنا كما قال المفسرون: الموت أو العذاب؛ والمعنى: أنهم لا ينزلون إلا بالموت وإلا بعذاب الاستئصال ولم يبق بعد نزولهم إنظار ولا إمهال ونحن لا نريد عذاب الاستئصال بهذه الأمة، فلهذا السبب ما أنزلنا الملائكة[2].

والذي يدعم صحة هذا القول ويؤيد اختياره، أن الله ﷻ رد على المقترحين إنزال الملائكة في سورة الفرقان حيث أطلعهم على الرسول الذي ينتظرهم إذا تحقق هذا الاقتراح وبيّن لهم أنهم لا يرون الملائكة

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ١٢/ ١٦٢؛ «الكشاف» ٢/ ٧؛ «روح المعاني» ٧/ ٩٧، ٩٨.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ١٩/ ١٥٩؛ «تفسير القرطبي» ١٠/ ٤، ٥؛ راجع: «تفسير المنار» ٧/ ٢٦٣؛ «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٢٤.

إلا في يوم عصيب هائل، ينتظرهم فيه العذاب الذي لا طاقة لهم به، ولا نجاة لهم منه ذلك هو يوم الحساب والعقاب: فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشراً وكانوا يطلبون أن تنزل عليهم الملائكة بالرسالة من ربهم، بل طلبوا أكبر من ذلك: طلبوا أن يروا ربهم ويخاطب كل واحد منهم بما يريد من إرسال الرسول إليهم، وهو تطاول على مقام الله سبحانه؛ تطاول الجاهل المستهتر الذي لا يحسُّ جلال الله في نفسه ولا يقدر الله حق قدره؛ لأنه تسام واستشراف من أضل البشر وأسفلهم روحاً إلى ما لم يصل إليه أعلاهم مقاماً في هذه الحياة الدنيا، فهذا منتهى الكبرياء والعتو ولذلك فقد أجاب الله سبحانه على طلبهم هذا بقوله: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

يقول أبو السعود: لقد استكبروا في أنفسهم؛ أي: في شأنها حتى اجترؤوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء ﴿وَعَتَوْ﴾؛ أي: تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ بالغاً أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الإلهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التي تخطرها صم الجبال، فذهبوا في الاقتراح كل مذهب حتى منّتهم أنفسهم الخبيثة أماني لا تكاد ترنو إليها أحداق الأمم ولا تمتد إليها أعناق الهمم ولا ينالها إلا أولو العزائم الماضية من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[1].

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ٢٤/٦٨، ٦٩؛ «تفسير أبي السعود» ٤/٨٥؛ «البحر المحيط» ٦/٤٩١؛ «في ظلال القرآن» ١٩/٢٥٥٨.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم بعد استعظامه وبيان كونه في غاية ما يكون من الشناعة.

وإنما قيل ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ دون أن يقال يوم ينزل الملائكة إيذاناً من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه بل على وجه آخر غير معهود.

والمعنى أنهم يوم يتحقق اقتراحهم الذي اقترحوه ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يومئذ لا يبشر المجرمون ولكن يعذبون فيالها من استجابة لما يقولون!

يومئذ يقولون: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾؛ أي: حراماً محرماً وهي جملة اتقاء للشر وللأعداء، كانوا يقولونها استبعاداً لأعدائهم وتحرزاً من أذاهم، وهي تجري في ذلك اليوم على ألسنتهم بحكم العادة من الذهول حين يفاجؤون[(١)].

ويذكر الرازي وأبو السعود أن القائلين بذلك هم الكفار وذلك لأنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه، ثم إذا رأوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة ونزول خطب شنيع شديد[(٢)].

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

يذكر الرازي أن هذا الكلام مبني على ما استدعوه من إنزال

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٤/٨٦؛ «في ظلال القرآن» ١٩/٢٥٥٨.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٤/٧١؛ «إرشاد العقل السليم» ٤/٨٦؛ راجع أيضاً: «تفسير الطبري» ١٩/٢، ٣.

الملائكة، فبيّن سبحانه أنه يحصل ذلك في يوم تشقق فيه السماء بالغمام، ويكون فيه الملك يومئذ الحق للرحمن ويكون يوماً على الكافرين عسيراً.

فالله سبحانه يخوف المشركين بتشقق السماء بالغمام، وقد يكون هو السحب المتراكمة من أبخرة تلك الانفجارات المروعة، وتنزل الملائكة يومئذ على الكافرين كما كانوا يقترحون، لا لتصديق الرسول ﷺ ولكن ليتولوا عذابهم بأمر ربهم في يوم عسير عليهم بما فيه من هول وبما فيه من عذاب، فما لهم يقترحون نزول الملائكة وهم لا ينزلون إلا في مثل ذلك اليوم العسير؟![1].

الوجه الثاني:

فيما يتعلق في الرد عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا﴾ [الأنعام: ٩]؛ أي: لو جعل الرسول ملكاً لجعل الملك متمثلاً في صورة بشر لتمكينهم من رؤيته، وسماع كلامه الذي يبلغه عن الله تعالى، ولو جعله ملكاً في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التي تمثل بها، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشراً ولا ينفكون يقترحون جعله ملكاً، وقد كانوا في غنى عن هذا فهو جواب ثان عن مقترحهم، فيه ارتقاء في الجواب وصالح كما سبق أن بيّنت لرد الاقتراحين معاً[2].

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ٢٤/ ٧٣ ـ ٧٥؛ «تفسير أبي السعود» ٤/ ٨٦؛ «الظلال» ١٩/ ٢٥٦٠.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الألوسي» ٧/ ٩٨ ـ ١٠٠؛ «حاشية الشهاب» للخفاجي ٤/ ٢٥؛ «تفسير أبي السعود» ٢/ ٨٤؛ «تفسير المنار» ٧/ ٢٦٣؛ «التحرير والتنوير» ٧/ ١٤٥.

أما الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾؛ ـ أي: لجعلناه في صورة البشر ـ فإنها تتمثل كما يقول الرازي في الأمور التالية:

الأمر الأول: أن الجنس إلى الجنس أميل، فإلف الناس برسول يأتيهم من جنسهم أكمل من إلفهم بالملك.

الأمر الثاني: أن البشر لا يطيقون رؤية الملك.

الأمر الثالث: أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يقدرونهم في الإقدام على المعاصي.

الأمر الرابع: أن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكاً أو بشراً[١].

ويهمنا هنا أن نشير إلى الأمرين: الأول والثاني[٢].

فقد اختار الأمر الأول الحافظ ابن كثير فذكر في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أنه لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول من البشر[٣].

واختار الطبري ومعه عدد من العلماء[٤] الرأي الثاني فذكر أنه

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ١٦٢؛ و«غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري على هامش الطبري ٧/ ١٠٧.

(٢) انظر: نقد الألوسي للرأيين الثالث والرابع في «روح المعاني» ٧/ ٢٠١، مع العلم بأنني سأتكلم على الأمر الرابع في المبحث القادم.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» ٢/ ١٢٤.

(٤) راجع: «تفسير الطبري» ٧/ ٩٧؛ و«الكشاف» للزمخشري ٢/ ٧؛ «تفسير البيضاوي على حاشية الشهاب» ٤/ ٢٤؛ و«تفسير ابن عطية» ٥/ ١٣٣؛ و«منهاج السُّنة» لابن تيمية ٢/ ٣٣٣.

تعالى يقول: ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء لجعلناه رجلاً؛ أي: في صورة رجل من البشر لأنهم لا يقدرون أن يروا الملك في صورته.

ويضيف الزمخشري والبيضاوي إلى ذلك أن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك في صورته وإنما رآهم كذلك الأفراد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوتهم القدسية، ولذلك سننزله في صورة رجل كما كان ينزل جبريل على رسول الله ﷺ في أعم الأحوال في صورة دحية[(1)].

وقد جمع القرطبي بين الأمرين ـ الأول والثاني ـ فذكر أنهم لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقاربته ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه ويمنعهم من سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم. وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر، فأتوا إبراهيم ولوطاً في صورة الآدميين وأتى جبريل النبي عليهما الصلاة والسلام في صورة دحية الكلبي؛ أي: لو نزل ملك لرأوه في صورة رجل أو بشر كما جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه، فإذا

---

(١) نزول جبريل عليه السلام في صورة دحية حديث متفق عليه. ورواه معهما النسائي والطبراني وأبو نعيم وابن سعد، فقد ورد عن أسامة بن زيد قال: نبئت أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يتحدث ثم قام فقال نبي الله لأم سلمة: من هذا؟ فقالت: دحية الكلبي.

انظر: «جامع الأصول» لابن الأثير ١١/ ٢٨٧، ٢٨٨، حديث رقم (٨٨٥٥)؛ راجع: «تخريج ابن حجر لأحاديث الكشاف» ٢/ ٧؛ و«الفتح السماوي بتخريج أحاديث البيضاوي» ٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠٢.

جعلناه رجلاً التبس عليهم[1]. وهو ما يعنيه قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾.

والمعنى: إنا إذا جعلنا الملك في صورة البشر فهم يظنون كون ذلك الملك بشراً فيعود سؤالهم: إنا لا نرضى برسالة هذا الشخص.

وتحقيق الكلام: أن الله سبحانه لو فعل ذلك لصار تلبيساً نظيراً لفعلهم في التلبيس، وإنما كان ذلك تلبيساً؛ لأن الناس يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلك.

وإنما كان فعلهم تلبيساً لأنهم يقولون لقومهم: إنه بشر مثلكم والبشر لا يكون رسولاً من عند الله تعالى.

وإذا كانوا يلبسون على أنفسهم الحقيقة ومحمد ﷺ يقول لهم: أنا محمد الذي تعرفونه أرسلني الله إليكم لأنذركم وأبشركم، فكيف يكون اللبس إذا جاءهم ملك في صورة رجل لا يعرفونه يقول لهم: أنا ملك أرسلني الله لأصدق رسوله بينما هم يرونه رجلاً كأي منهم[2].

وهكذا يكشف الله سبحانه جهلهم بطبيعة الملائكة، كما كشف لهم جهلهم في معرفة سنته.

إنهم يقترحون أن ينزل الله عليهم الملائكة، ولكن الملائكة خلق آخر غير الخلق الإنساني؛ خلق ذو طبيعة خاصة يعلمها الله وهم ـ كما يقول الله عنهم ـ لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض التي خلقهم الله عليها.

---

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» ٦/ ٣٩٤؛ راجع أيضاً: «فتح القدير» للشوكاني ٢/ ١٠١.

(٢) راجع: «تفسير الرازي» ١٢/ ١٦٢؛ و«الطبري» ٧/ ٩٨؛ و«الألوسي» ٧/ ١٠١؛ و«الكشاف» ٢/ ٨؛ و«أبي السعود» ٢/ ٨٤؛ و«منهاج السُّنة النبوية» لابن تيمية ٢/ ٣٣٣؛ و«الظلال» ٧/ ١٠٤٢؛ و«التفسير القيم» ص٢٣٣.

يقول تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وكان هذا رداً على قولهم الذي كان من أكبر موانعهم عن الإيمان ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ فقد استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر، بل اعتقدوا أن الله تعالى لو أرسل رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة فقالوا هذا القول، وقد نشأ هذا الوهم من عدم إدراكهم لطبيعة الكون وطبيعة الملائكة وأنهم ليسوا مهيئين للاستقرار في الأرض وهم في صورتهم الملائكية حتى يميزهم الناس ويستيقنوا أنهم ملائكة، فلو قدر الله أن الملائكة تعيش في الأرض لصاغهم في صورة آدمية؛ لأنها الصورة التي تتفق مع نواميس الخلق وطبيعة الأرض، والله قادر على كل شيء. ولكنه خلق نواميس وبرأ مخلوقاته وفق هذه النواميس بقدرته واختياره.

وقدر أن تمضي النواميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول لتحقق حكمته في الخلق والتكوين غير أن القوم لا يدركون(١).

ولذلك فإن الله سبحانه قد أجاب على شبهتهم هذه من وجهين:

الأول: قوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾: حيث بيّن الله تعالى فيه فرط عنادهم لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد! وغفلوا عن المعجزة، وتقرير ذلك أن بتقدير أن يبعث الله ملكاً رسولاً إلى الخلق، فالخلق إنما يؤمنون بكونه رسولاً من عند الله لأجل قيام المعجز الدال على صدقه، وذلك المعجز هو الذي يهديهم إلى معرفة ذلك الملك في ادعاء رسالة الله تعالى.

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢١/٥٩؛ «الكشاف» ٢/٦٩٤؛ و«تفسير القرطبي» ١٠/٣٣٢؛ و«الظلال» ١٥/٢٢٥١.

فالمراد من قوله: ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ هو المعجز فقط فهذا المعجز سواء ظهر على يد الملك أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته فثبت أن يكون قولهم بأن الرسول لا بد وأن يكون ملكاً تحكماً فاسداً وتعنتاً باطلاً[(١)].

الوجه الثاني: قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

وقد استنبط العلماء من هذه الآية حكمتين وكلتاهما تصلح رداً على شبهتهم:

الحكمة الأولى: أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة وجب أن يكون رسولهم من الملائكة؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل، أما لو كان أهل الأرض من البشر لوجب أن يكون رسولهم من البشر.

يذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية أن الله سبحانه أجاب على استعجاب الناس من بعثة الرسل من البشر منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه.

فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين كما أنتم فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً؛ أي: من جنسهم! ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة[(٢)].

الحكمة الثانية: اقتضت حكمته تعالى أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله أو إلى الأنبياء ثم قرر ذلك بأن أعلم سبحانه أن الملك إنما يرسل إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل ملكاً إلى الآدميين لم يقدروا أن يروه

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢١/٥٩، ٦٠؛ و«البحر المحيط» ٦/٨١؛ و«تفسير القرطبي» ١٠/٣٣٢.

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» ٣/٦٤، ٦٥؛ و«تفسير الفخر الرازي» ٢١/٦٠.

على الهيئة التي خلق عليها، وإنما أقدر الأنبياء على ذلك وخلق فيهم ما يقدرون به ليكون ذلك آية لهم ومعجزة فقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

أي: قل لهم من قبلنا تبييناً للحكمة وتحقيقاً للحق المزيح للريب: لو كان؛ أي: لو وجد في الأرض بدل البشر ملائكة يتصرفون فيها بالمشي على أقدامهم كما يمشي البشر ولا يطيرون إلى السماء ويعرجون فيها بأجنحتهم فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه مطمئنين ساكنين في الأرض قارين ومقيمين بها.

لو كان الأمر كذلك لنزّلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً يهديهم إلى الحق ويرشدهم إلى الخير ويعلمهم ما لا تستقل قدرهم بعلمه ليمكّنهم من الاجتماع به والتلقي منه، فأما الإنس ما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك لبعد ما بين الملك وبينهم فلا يبعث عليهم لأنهم بمعزل عن استحقاق المفاوضة الملكية، فكيف لا وهي منوطة بالتناسب؟! فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع، وإنما يبعث الملك من بينهم إلى خواصهم؛ لأن الله سبحانه قد وهبهم نفوساً زكية وأيدهم بقوى قدسية وجعل لهم جهتين: جهة ملكية بها من الملك يستفيضون ويتلقون وجهة بشرية بها على البشر يفيضون ويلقون، فهم متعلقون بكلا العالمين الروحي والجسماني وجعل كل البشر كذلك مخل بالحكمة.

وإنزال الملك عليهم على وجه يسهل التلقي عنه بأن يظهر لهم بصورة بشر كما ظهر جبريل عليه السلام مراراً في صورة دحية الكلبي مما لا يجدي نفعاً لأولئك الكفرة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

فمن خصائص الملائكة أنها في طبائعها لا تتجسد وبالتالي إذا وجدت على الأرض فلا ترى ولا تشاهد، ومن ثم لا تستطيع أن تباشر مهمة الرسالة؛ وهي تبليغ الدعوة إلى الناس.

فالحياة الأرضية ليست حياة الملائكة وإنما تناسب الإنسان وحده؛ لأنه خلق من طين؛ أي: من مادة ترابية تنجذب نحو الأرض بينما طبيعة الملك تنجذب نحو السماء؛ أي: نحو السمو والارتفاع، والآية إذ تعبر بالمشي والاطمئنان على الأرض تسلك مسلك الكناية في التعبير عن المناخ والجو الطبيعي الذي يجب أن يعيش فيه الملك وكأنها بذلك تقول: إن جو الأرض ليس هو جو الملك ولذا يستحيل أن يكون الرسول للناس ملكاً(١).

المبحث الثالث

شبهة كون الرسول من الفقراء لا مال له ولا سلطان

بجانب ما ذكرنا سابقاً من اعتراض الكفار على أن يكون الرسول المرسل إليهم بشراً مثلهم، فإنه قد زادوا على ذلك بأن قالوا: إن صدقنا أن الله ينزل الوحي على بشر مثلنا فهلا نزل الوحي على واحد من كبرائنا ورؤسائنا وعظمائنا؟!

وكانت لهم مقاييس مادية في العظمة والرئاسة تقوم كلها على الجانب الدنيوي، وتتطلب مزيداً من الطغيان على الناس، والسيطرة عليهم.

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ١٥/ ١١١، ١١٢؛ و«الكشاف» ٢/ ٦٩٤؛ و«الألوسي» ١٥/ ١٧٢؛ و«الإرشاد» ٣/ ٢٣٣؛ و«البحر المحيط» ٦/ ٨١؛ و«القرطبي» ١٠/ ٣٣٢؛ و«تفسير سورة الإسراء» للدكتور محمد البهي ص٦٩، ٧٠؛ و«مناهل القرآن» للزرقاني ١/ ٧١.

وقد وقع هذا الاستكثار أو الاستنكار من كفار قريش حينما اعترضوا على نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ، فقد حكى القرآن الكريم عنهم أنهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم، وتساءلوا في استنكار وتعجب: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ [ص: ٨].

ثم اقترحوا على الله سبحانه من هو أحق بالرسالة وأولى بأن ينزل عليه القرآن يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ثم قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد رد الله عليهم سبحانه مبيناً بطلان رأيهم وفساد ما ذهبوا إليه من المقاييس الدنيوية والمعايير المادية.

وبيّن سبحانه أيضاً أن قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ قد قاله قوم ثمود في نبيهم صالح عليه السلام: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ بعد أن قالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ. . .﴾ [القمر: ٢٤، ٢٥].

وإن اقتراح مشركي قريش نزول القرآن على رجل من القريتين عظيم قد اقترح مثله فرعون حينما ذكر أنه أولى بالذي جاء به موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

فلننظر في هذا الاعتراض الذي اعترض به كفار قريش ومن قبلهم من الكفار السابقين، والذين يتمثل في تلك الشبهة: شبهة كون الرسول فقيراً لا مال له ولا سلطان، ونبرز الردود التي أجاب بها القرآن مدحضاً لشبهتهم، ومسفهاً لآرائهم وعقولهم التي أفرزتها ونطقت بها ألسنتهم.

يقول تعالى في أول سورة «صٓ» حاكياً عن الكفار قولهم في النبي ﷺ وتعجبهم من إرساله إليهم نذيراً من بينهم، مبتدئاً بحكاية أباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم، فبعد أن حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال تعالى:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ص: ٤]؛ أي: عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم، بل أدون منهم في الرياسة الدنيوية والمال، على معنى أنهم عدُّوا ذلك أمراً عجيباً خارجاً عن احتمال الوقوع، وأنكروه أشد الإنكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه.

وفي قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ وجهان:

الأول: أنهم قالوا: إن محمداً مساو لنا في الخلقة الظاهرة والأخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة، فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة؟!

الثاني: أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم، وذلك لأنه جاءهم رجل يدعوهم إلى التوحيد والإيمان بالآخرة ثم إن هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيداً عن الكذب والتهمة، وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه، ثم إن هؤلاء الأقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله، ونظيره قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فقال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

ومعناه: أن محمداً كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساوياً لهم في الأسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته، ومن الانقياد لتكاليفه، وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وأن يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة، وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب إلا الحسد[(١)].

ثم بيّن سبحانه أنهم يستبعدون نزول القرآن أو الذكر عليه وينكرون تخصيصه من بينهم كلهم بهذا الإنزال فقال تعالى في نفس السورة: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [صٓ: ٨].

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» للرازي ٢٦/١٧٦، ١٧٧؛ و«إرشاد العقل السليم» لأبي السعود ٤/ ٢٨٢.

فقد أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم، وهذا الإنكار ترجمة عما كانت تغلي به صدورهم من الحسد على ما أوتي من شرف النبوة من بينهم[1].

وتقرير شبهتهم من خلال قولهم هذا أنهم قالوا: إن منصب الرسالة والنبوة منصب شريف فلا يليق إلا برجل شريف بل إنها أشرف المراتب، فوجب أن لا تحصل إلا لأشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس، فوجب أن لا تحصل له النبوة.

والمقدمتان الأوليتان صحيحتان لكن الثالثة كاذبة، وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا أن الشرف لا يحصل إلا بالمال والأعوان وذلك باطل.

فإن مراتب السعادة ثلاثة: أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية، وأدونها هي الخارجية وهي المال والجاه، فالقوم عكسوا القضية، وظنوا بأخس المراتب أشرفها، حيث ظنوا أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه، ومحمد ليس كذلك فلا تليق به رسالة الله، ولما وجدوا المال والجاه عند غيره ظنوا أن غيره أشرف منه فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم، ويذكر أبو السعود أن أمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوي[2].

ولهذا لما قالوا هذا الذي دلّ على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال الذكر على الرسول من بينهم رد عليهم القرآن رداً تفوح منه رائحة التهكم والإنذار والتهديد وأجاب عن شبهتهم هذه من وجوه:

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢٣/ ٨١؛ و«تفسير ابن كثير» ٤/ ٢٨؛ و«الكشاف» للزمخشري ٣/ ٣٦١.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٦/ ١٧٩، ٢٧/ ٢٠٩؛ و«إرشاد العقل السليم» ٢٦/ ١٧٩.

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿بَل هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [صٓ: ٨].

إنهم يسألون: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟! وهم في شك من الذكر ذاته، فلم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله، وإن كانوا يمارون في حقيقته، وهو فوق المألوف من قول البشر مما يعرفون.

فقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾؛ أي: من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضهم عن النظر في الدلائل المؤدية إلى العلم بحقيته وليس في عقيدتهم ما يبتون به، فهم مذبذبون بين الأوهام؛ ينسبونه تارة إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق، فلو تأملوا حق التأمل في الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في إبطال النبوة، ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته.

ثم يضرب عن قولهم في الذكر وعن شكهم فيه ليستقبل بهم تهديداً بالعذاب فيقول تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

ومعناه: أنهم لم ينزل بهم بأسنا فيذوقوا وبال تكذيبهم محمداً وشكهم في تنزيلنا هذا القرآن عليه، ولو ذاقوا العذاب على ذلك علموا وأيقنوا حقيقة ما هم به مكذبون[(١)].

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩﴾.

ثم يعقب سبحانه على استكثارهم رحمة الله لسيدنا محمد في اختياره رسولاً من بينهم بسؤالهم إن كانوا يملكون خزائن رحمة الله حتى يتحكموا فيمن يعطون ويمنعون.

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٦/ ١٧٩، ١٨٠؛ و«إرشاد العقل السليم» ٤/ ٢٨٣؛ و«جامع البيان» ٢٣/ ٨٢؛ و«تفسير القرآن العظيم» ٤/ ٢٨؛ و«في ظلال القرآن» ٢٣/ ٣٠١٢، ٣٠١٣؛ و«التحرير والتنوير» ٢٣/ ٢١٤.

ويندد بسوء أدبهم مع الله وتدخلهم فيما ليس من شأن العبيد والله وحده هو المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي من يشاء ويمنع من يريد.

فلذلك قال لهم تعالى منكراً عليهم استكثارهم:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

يذكر الرازي أن هذه الآية هي الوجه الثاني من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب عن تلك الشبهة.

وتقريره أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزاً؛ أي: كامل القدرة، ووهاباً؛ أي: عظيم الجود وذلك هو الله ﷻ وإذا كان هو سبحانه كذلك لم يتوقف كونه واهباً لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنياً أو فقيراً[(١)].

الوجه الثالث: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾.

وهذه الآية ترشيح لما سبق، والمعنى: ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا في الأمور الربانية ويتحكموا في التدابير الإلهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء، فإن ادعوا ذلك فعند هذا يقال لهم: ارتقوا في الأسباب واصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى العرش، حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي على من يختارون ويستصوبون، وفيه من التهكم بهم ما لا غاية وراءه[(٢)].

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ٢٦/ ١٨٠؛ «تفسير الطبري» ٢٣/ ٨٢؛ و«ابن كثير» ٤/ ٢٨؛ و«الكشاف» ٣/ ٣٦١؛ و«إرشاد العقل السليم» ٤/ ٢٨٣؛ و«التحرير والتنوير» ٢٣/ ٢١٥، ٢١٦؛ و«الظلال» ٢٣/ ٣٠١٣.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٦/ ١٨٠؛ و«إرشاد العقل السليم» ٤/ ٢٨٣؛ و«الكشاف» ٣/ ٣٦١، ٣٦٢.

هذا وقد قص الله سبحانه على نبيه ﷺ ضمن ما قص عليه من قصة صالح مع قومه ثمود، مسلياً له ومعزياً بأن قول كفار مكة له ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ ليس بدعاً من قولهم وإنما هم فيه مقلدون لأسلافهم في الكفر وسابقيهم في الإنكار حيث قال قوم صالح (ثمود) له نفس القول:

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٢٤].

وفي سورة «إبراهيم» يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وكان من أسباب كفرهم وشكهم أنهم قالوا لرسلهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

هكذا قالوها جميعاً قولة واحدة وبلسان واحد؛ أي: لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا؟

وتقرير شبهتهم: أن الأشخاص الإنسانية متساوية في تمام الماهية فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحد وهو أن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله مطلعاً على الغيب مخالطاً لزمرة الملائكة، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال أيضا(١).

وقد رد عليهم رسلهم مبطلين شبهتهم بقولهم:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

---

(١) راجع: «الكشاف» ٢/ ٥٤٣؛ و«مفاتيح الغيب» ١٩/ ٩٥؛ و«تفسير أبي السعود» ٣/ ١٢٠.

فقد سلم الأنبياء بقولهم، وأعلنوا أنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها[1] فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، حيث بيّنوا لهم أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة؛ لأن هذا المنصب منصب يمن الله به على من يشاء من عباده، فلم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

يعنون بذلك أن النبوة عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه، فهو سبحانه يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادت على من يشاء المن بها، وما يشاء ذلك إلا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادت هي التي يدور عليها فلك الاصطفاء للنبوة[2].

هذا وقد ردّ الإمام الشهرستاني بنفس القول الذي قال به هؤلاء الرسل لقومهم على البراهمة في إنكارهم للنبوة بدعوى أن أكبر الكبائر في الرسالة اتباع رجل هو مثلك في الصورة والنفس والعقل يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب، حتى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعبد يتقدم إليك أمراً ونهياً.

وتساءلوا: فأي تميز له عليك؟ وأية فضيلة أوجبت استخدامك؟ وما

---

(١) يذكر السيوطي أن قولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم وليس مراداً بل هو من مجاراة الخصم، فكأنهم قالوا: ما ادعيتم من كوننا بشراً لا ننكره ولكن هذا لا ينفي أن يمن الله تعالى علينا بالرسالة. «الإتقان في علوم القرآن» ١٣٧/٢.

(٢) راجع: «الكشاف» ٢/ ٥٤٤؛ و«تفسير الرازي» ١٩/ ٨٦؛ و«تفسير أبي السعود» ٣/ ١٢٠، ١٢١.

دليله على صدق دعواه؟[1].

وعقب على ذكره للآية الكريمة بقوله لهم:

فإذا اعترفتم بأن للعالم صانعاً وخالقاً وحكيماً فاعترفوا بأنه آمر وناه حاكم على خلقه وله في جميع ما نأتي ونذر ونعمل ونفكر حكم وأمر.

وليس كل عقل إنساني على استعداد ما يعقل عنه أمره، ولا كل نفس بشري بمثابة من يقبل عنه حكمه، بل أوجبت منته ترتيباً في العقول والنفوس، واقتضت قسمته أن يرفع ﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ فرحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة وذلك خير مما يجمعون بعقولهم المحتالة[2].

فأجاب الشهرستاني بنفس الآية التي أجاب الله سبحانه بها ورد عليهم في قولهم الذي سنتحدث عنه الآن.

قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾:

بعد أن تعجب كفار قريش من إنزال الذكر على الرسول ﷺ من بينهم، انتقلوا إلى قول آخر اقترحوا فيه من هو أولى بهذا الإنزال.

يحكي الله سبحانه في سورة الزخرف أن هؤلاء الكفار حينما جاءهم الحق وهو القرآن الكريم وصفوه بالسحر وكفروا به.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠].

---

(١) «الملل والنحل» ٢/ ٢٥١.

(٢) راجع: المصدر السابق ٢/ ٢٥١، ٢٥٢؛ راجع أيضاً في الرد على البراهمة في هذا الشأن تعليقات الدكتور سليمان دنيا على كتاب الغزالي «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» ص١٤٥ ـ ١٥٢.

ثم يبين لنا بعد ذلك تخليطهم في القيم والمعايير وتخبطهم في المقاييس والموازين وهم يعترضون على اختيار الله سبحانه لنبينا محمد ﷺ، فأنزل عليه القرآن، فقالوا: إن كان حقاً فهلا أنزل على رجل عظيم من إحدى هاتين القريتين.

يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين؟

يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. واختلف في الرجل الذي وصفوه بأنه عظيم من إحدى القريتين. يقول قتادة: «بلغنا أنه ليس فخذ من قريش إلا قد ادعته وقالوا: هو منا، فكنا نحدث أن الرجلين هما الوليد بن المغيرة من أهل مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف».

وقيل: إنه حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي من الطائف(١).

ويرى الإمام الطبري أن أولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال كما قال جل ثناؤه حيث لم يضع الله تبارك وتعالى لنا الدلالة على الذين عنوا بهم في كتابه ولا على لسان رسوله ﷺ(٢).

ولذلك فإن الحافظ ابن كثير ينتهي إلى أن الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان(٣).

ويذكر الزمخشري في سبب قولهم هذا: أنهم ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً، فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الطبري» ٢٥/٣٩، ٤٠؛ و«تفسير ابن كثير» ٤/١٢٦، ١٢٧؛ و«في ظلال القرآن» ٢٥/٣١٨٦.

(٢) «جامع البيان» ٢٥/٤٠.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» ٤/١٢٧.

يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى جاؤوا بالإنكار من وجه آخر وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين.

ثم ذكر أن قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ ذكر له على وجه الاستهانة به[1].

فهم لم يتفوهوا بهذه المقولة العظيمة حسداً على نزوله إلى الرسول ﷺ دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته، بل فعلوا ذلك استدلالاً على عدمها، بمعنى: أنه لو كان قرآناً لنزل إلى أحد هؤلاء بناء على ما زعموا من أن الرسالة منصب جليل لا يليق به إلا من له جلالة من حيث المال والجاه، ولم يدروا أنها رتبة روحانية لا يترقى إليها إلا همم الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الإنسية.

وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية المتمتعون بالحظوظ الدنية فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف معزل[2].

ولقد كان رسول الله ﷺ من ذؤابة قريش، ثم من ذؤابة بني هاشم وهم في العلية من العرب، كما كان شخصه ﷺ معروفاً بسمو الخلق[3] في بيئته قبل بعثته، ولكنه لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، في بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية، وهذا ما قصد إليه المعترضون من مقاييس العظمة، فقد أرادوا بعظم الرجل رياسته وتقدمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيماً، ولعل عدم اختيار النبي ﷺ بنفس مقاييسهم ومواصفاتهم بأن يكون زعيم قبيلة، أو رئيس عشيرة، أو صاحب جاه وثراء، راجع إلى

(١) «الكشاف» ٣/ ٤٨٥.
(٢) «إرشاد العقل السليم» ٥/ ٤٣.
(٣) راجع بحثنا: «خلق النبي العظيم: من دلائل نبوته وبراهين رسالته»، بحث محكم منشور في حوليّة كلّية أصول الدين بطنطا جامعة الأزهر، العدد الثاني (١٤١٠/ ١٩٩٠).

تطهير هذه الدعوة من ملابسات هذه القيم الأرضية حتى لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف[1] بالإضافة إلى أن الله سبحانه هو وحده أعلم حيث يجعل رسالته.

ولذلك فإن الله سبحانه قد رد عليهم ـ عقب ذكر قولتهم هذه ـ بالاستنكار والتعجب من اعتراضهم وتحكمهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة والتخيُّر لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته، وبيّن سبحانه خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء، ثم ضرب لهم مثلاً فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم وأن الله عز وعلا هو الذي قسّم بينهم معيشتهم وقدّرها ودبّر أحوالهم تدبير العالم بها فلم يسو بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء ومحاويج وموالي وخدماً ليصرف بعضهم بعضاً في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم، ويتسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم. ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمورهم لضاعوا وهلكوا، وإذا كانوا في تدبير المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى، ورأفته العظمى فقال تعالى في سورة الزخرف:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢][2].

---

(١) راجع: «الكشاف» ٣/ ٤٨٥؛ و«الظلال» ٢٥/ ٣١٨٦.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٢٧؛ و«الكشاف» ٣/ ٤٨٦؛ و«ظلال القرآن» ٢٥/ ٣١٨٦.

وتقرير الجواب في هذه الآية على شبهة الكفار من وجوه:

أحدها: أنا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره، فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوة بأن لا يقدروا على التصرف فيه كان أولى.

وثانيها: أن يكون المراد أن اختصاص ذلك الغني بذلك المال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه، فكيف يليق بالعقل أن يجعل إحساننا إليه بكثرة المال حجة علينا في أن نحسن إليه أيضاً بالنبوة.

وثالثها: إن الله سبحانه أوقع التفاوت بين العباد في القوة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول؛ لأنه سبحانه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحداً ولم يصر أحد منهم مسخراً لغيره، وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا.

ورابعها: إنه لم يقدر أحد على تغيير حكمنا ولا على الخروج من قضائنا، فإن عجزوا عن الإعراض عن حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في تخصيص العباد بمنصب النبوة والرسالة[1].

وفي الآيات التالية بيّن الله سبحانه أن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث لو شاء الله لأغدقها إغداقاً على الكافرين به، لولا أن يفتتن الناس والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا في قلوبهم، وخشية أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال فقال

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «مفاتيح الغيب» ٢٧/ ٢٠٩، ٢١٠؛ و«إرشاد العقل السليم» ٥/ ٤٤؛ وفي مجال الرد على البراهمة في هذا الشأن راجع: «التمهيد» للباقلاني ص٩٦ ـ ٩٨.

تـعـالـى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

ففي هذه الآيات أجاب الله سبحانه عن الشبهة التي أوردوها بناء على تفضيل الغني على الفقير بأنه تعالى بيّن أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله، ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للنعيم. وحاصل الجواب كما يقول الرازي: أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغني أولى بمنصب الرسالة من سيدنا محمد ﷺ بسبب فقره، فبيّن تعالى أن المال والجاه حقيران عند الله، وأنهما على شرف الزوال، فحصولهما لا يفيد حصول الشرف.

وهكذا يضع القرآن الكريم الأمور في نصابها، ويكشف عن سنن الله في توزيع الأرزاق في الدنيا والآخرة، ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة، وذلك في صدد الرد على المعترضين على رسالة نبينا محمد ﷺ، واختياره واطراح العظماء المتسلطين![(١)].

قول فرعون عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾:

هذا وقد ورد في نفس سورة الزخرف وفي سياق تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره، واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض هذه الحياة الدنيا عرض حلقة من قصة

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٧/ ٢١١؛ «تفسير القرآن العظيم» ٤/ ١٢٧؛ «في ظلال القرآن» ٢٥/ ٣١٨٨.

موسى عليه السلام مع فرعون وملئه يذكر فيها اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به من يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وتباهيه بما له من ملك ومن سلطان وتساؤله في فخر وخيلاء ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وانتفاخه على موسى عبد الله ورسوله عليه السلام وهو مجرد من الجاه الأرضي والعرض الدنيوي ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

واقتراحه الذي يشبه ما يقترحون ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ وكأنما هي نسخة تكرر أو أسطوانة تعاد[1].

يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

فقد أخبرنا سبحانه عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده، أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها وبالأنهار التي تجري من تحت قصره ويقول لهم: أفلا تبصرون؟ أي: أفلا ترون أيها القوم ما أنا فيه من العظمة والملك والنِّعم والخير، وما فيه موسى من الفقر: فقره وفقر أتباعه؟! فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة محتجاً على جهلة قومه بأن موسى عليه السلام لو كان محقاً فيما يأتي به من الآيات والعبر ولم يكن ذلك سحراً، لأكسب نفسه من الملك والنعمة مثل الذي هو فيه من ذلك جهلاً بالله واغتراراً منه بإملائه ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

---

(١) راجع: «الظلال» ٢٥/ ٣١٩٢.

وحاصل الأمر: أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه ولذلك قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ وهو يعني بالمهانة كونه فقيراً ضعيف الحال؛ بمعنى: أنه لا ملك له ولا سلطان ولا مال، أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين[1]، وذلك كما ورد في سورة «المؤمنون» على لسانه ومعه الملأ من قومه حينما قالوا في حق موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؛ أي: خادمون منقادون لنا كالعبيد.

وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأن الرسولين الكريمين عليهما الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية من منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية، فقد أكدوا إنكار الإيمان لهما بناء على زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسة الدنيوية، الدائرة على التقدم في نيل الحظوظ الدنيوية من المال والجاه، كدأب قريش في تصورهم للعظمة، وجهلهم بأن مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق في حيازة النعوت العلية والملكات السنية جبلة واكتساباً حيث يتفضل الله تعالى بها على من يشاء من خلقه[2].

وعلى أي الأحوال فقول فرعون عن موسى عليه السلام أنه ﴿مَّهِينٌ﴾ هو الكذب بعينه، بل إنه هو ـ أي: فرعون ـ فيما قال ابن كثير: المهين الحقير خلقة وخلقاً وديناً، وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد[3].

أما قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فيعني أنه لا يكاد يفصح عن كلامه،

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» ٢٥/ ٤٨؛ «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٢٩، ١٣٠؛ «في ظلال القرآن» ٢٥/ ٣١٩٣؛ «مفاتيح الغيب» ٢٧/ ٢١٨.

(٢) «إرشاد العقل السليم» ٤/ ٣٣؛ «روح المعاني» ١٨/ ٣٧.

(٣) «تفسير القرآن العظيم» ٤/ ١٣٠.

يذكر العلامة أبو السعود أن فرعون قال ذلك افتراء عليه، وتنقيصاً له عليه السلام في أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام من نوع رتة، وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾[١].

ويعجبني ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير حين قرر: أن هذا الذي قاله فرعون كذب واختلاق، وأنّ ما حمله على ذلك القول كفره وعناده وهو ينظر إلى موسى عليه السلام بعين كافرة شقية وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة تبهر أبصار ذوي الألباب[٢].

أما قوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فلعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تتويجه بالملك إذ كانت هذه عادتهم فيكون الرسول ذا ملك وسلطان[٣].

---

(١) «الإرشاد» ٥/ ٤٦. وقد حاول المفسرون أن يبينوا مقصد فرعون من قوله هذا، واختلفوا في ذلك ودار اختلافهم حول ما قيل عن الرتة التي كانت في لسان موسى وفسّرها البعض بسبب الجمرة التي وضعها في فمه وهو صغير وتساءلوا: ألم يسأل الله أن يزيل الرتة أو الحبسة في قوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾، واستجاب الله بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ إلى آخر هذه المحاولات التي نحن في غنى عنها حينما نقتنع بأن فرعون قال هذا على سبيل التنقيص من موسى عليه السلام فادعى عليه ذلك كذباً وبهتاناً. راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ٢٧/ ٢١٨، ٢١٩؛ و«تفسير ابن كثير» ٤/ ١٣٠.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» ٤/ ١٣٠. ويذكر ابن كثير أيضاً أنه بتقدير أن يكون قد بقي شيء في لسانه لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فإن الأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد للترويج على رعيته فإنهم كانوا جهلة أغبياء ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

(٣) لقد كان من عادة المصريين إذا جعلوا واحداً منهم رئيساً لهم سوّروه بسوار من ذهب وطوّقوه بطوق من ذهب، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة. =

وحاصل الكلام يرجع إلى هدف واحد وهو أن فرعون كان يقول: أنا أكثر مالاً وجاهاً فوجب أن أكون أفضل منه، فيمنع كونه رسولاً من عند الله؛ لأن منصب النبوة يقتضي المخدومية والأخس لا يكون مخدوماً للأشراف.

وهي نفس المقدمة الفاسدة التي تمسك بها كفار قريش في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

يذكر الإمام الرازي أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا المقام تقرير الكلام الذي تقدم.

وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه.

فبيّن الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال:

إني غني كثير المال والجاه، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان؟!

والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من عند الله إلى الملك الكبير الغني؟! فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ قد أوردها بعينها فرعون على موسى عليه السلام ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم.

فالمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين:

= راجع: «تفسير الرازي» ٢٧/ ٢١٩؛ «في ظلال القرآن» ص٣١٩٣، ٣١٩٤.

(١) راجع المصدرين السابقين.

أحدهما: أن الكفار والجهال يحتجون أبداً على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالىٰ بها ولا يلتفت إليها.

والثاني: أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهوراً باطلاً، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا.

فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة(١).

قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

من الأقوال التي رددها كفار قريش أيضاً ما حكاه عنهم في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ففي هذه الآية يبين الله سبحانه مكر هؤلاء الكفار وحسدهم بأنهم إذا جاءتهم آية بيّنة وظهرت لهم معجزة قاهرة تدل على صدق النبي ﷺ وثبوت نبوته قالوا: لن نؤمن حتى يحصل لنا هذا المنصب من عند الله.

قال هذا أكابرهم المجرمون ورؤساؤهم الماكرون وتبعهم عليهم الغوغاء المقلدون، وهذا يدل على نهاية حسدهم، وأنهم إنما بقوا مصرين على الكفر لا لطلب الحجة والدلائل وإنما للتعنت والمكابرة.

فقد ذكر أن الوليد بن المغيرة حينما قال: «والله لو كانت النبوة لكنت أحق بها من محمد فإني أكثر منه مالاً وولداً» نزلت هذه الآية.

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٧/ ٣١٧.

وقال الضحاك: أراد كل واحد منهم أن يخص بالوحي والرسالة كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢][1].

فالمراد إذن من قولهم هذا أنهم قد أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة، كما حصلت لمحمد عليه الصلاة والسلام وأن يكونوا متبوعين لا تابعين، ومخدومين لا خادمين. وهذا هو الرأي المشهور كما يقول الرازي[2].

يذكر ابن كثير أنهم قالوا: لن نؤمن حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل[3].

قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾:

ومن أجل ذلك رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. والمعنى: أن للرسالة موضعاً مخصوصاً لا يصلح وضعها إلا فيه، فمن كان مخصوصاً موصوفاً بتلك الصفات التي لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولاً وإلا فلا، ولا يعلم بتلك الصفات إلا الله تعالى.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ حجة لأهل الحق على أن النبوة فضل من الله تعالى، يختص به من يشاء من خلقه لا ينالها

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ١٣/ ١٧٥؛ و«تفسير المنار» ٨/ ٣٣.

(٢) هناك رأي آخر يذهب فيه أصحابه إلى أن القوم ما طلبوا النبوة وإنما طلبوا أن تأتيهم آيات قاهرة ومعجزات.
قال المحققون: والقول الأول أقوى وأولى. راجع: «مفاتيح الغيب» ١٣/ ١٧٥، ١٧٦؛ و«ابن كثير» ٢/ ١٧٣؛ و«تفسير المنار» ٨/ ٣٣، ٣٤؛ و«روح المعاني» ٨/ ٢٠، ٢١؛ و«تفسير أبي السعود» ٢/ ١٣٤، ١٣٥.

(٣) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٢/ ١٧٣.

أحد بكسب، ولا يتوسل إليها بسبب ولا نسب وأن منصب الرسالة ليس مما ينال بالأماني ولا التشهي ولا بما يزعمونه من كثرة المال والولد، وتعاضد الأسباب والعدد، ودلت الآية أيضاً على أنه تعالى لا يختص بهذه الرحمة العظيمة، وتلك المنقبة الكريمة إلا من كان أهلاً لها بما هو أهل له من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاء النفس، وطهارة القلب وحب الخير والحق.

فهو سبحانه يعلم من يصلح لها ومن لا يصلح، فإن النفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي، والاستعداد له، والطاقة على الاضطلاع بحمله، فلا تصلح للرسالة إلا نفس خلقت قريبة من النفوس الملكية، بعيدة عن رذائل الحيوانية، سليمة من الأدواء القلبية.

ومعنى هذا: أن الرسول يخلق خلقة مناسبة لمراد الله من إرساله، والله حين خلقه عالم بأنه سيرسله، وقد يخلق الله نفوساً صالحة للرسالة ولا يكون هناك حكمة في إرسال أصحابها وهو ما يعنيه كل من أبي السعود والألوسي حينما ذكر أن منصب الرسالة إنما ينال بفضائل نفسانية، ونفس قدسية، أفاضها الله تعالى بمحض الجود والكرم على من كمل استعداده، ونص بعضهم على أنه تابع للاستعداد الذاتي وهو لا يستلزم الإيجاب الذي يقوله الفلاسفة ـ كما سنبين ـ لأنه سبحانه إن شاء أعطى ذلك وإن شاء أمسك وإن استعد المحل.

فالاستعداد إذن مهيئ لاصطفاء الله تعالى وليس موجباً له[1].

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٢/ ١٣٥؛ و«روح المعاني» ٨/ ٢١، ٢٢؛ و«تفسير المنار» ٨/ ٣٤؛ و«التحرير والتنوير» ج٨، القسم الأول، ص٥٤، ٥٥.

رتبة النبوة بين الفلاسفة وأهل الحق:

يرى فلاسفة الإسلام أن النبوة مكتسبة للعبد بمباشرة أسباب خاصة، فيزعمون أن من لازم الخلوة والعبادة ودوام المراقبة وتناول الحلال وإخلاء نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة انصقلت مرآة باطنه، وفتحت بصيرة لبه، وتهيأ لما لا يتهيأ له غيره من التحلي بالنبوة.

لأنهم يفسرونها بأنها صفاء وتجلٍّ للنفس يحدث لها من الرياضات بالتخلي عن الأمور الذميمة والتخلق بالأخلاق الحميدة فهي عندهم عبارة عن اجتماع ثلاث خواص في الإنسان:

الاطلاع على الغيبيات، وظهور خوارق العادات، ومشاهدة الملائكة على صور متخيلة.

فيرون أن من اجتمعت فيه هذه الخواص الثلاث انقادت له النفوس المختلفة، مع ما جبلت عليه من الإباء، وذلت له الهمم المتفاوتة على ما هي عليه من اختلاف الآراء[(١)].

فيجعلون كلام الله ما يفيض على نفس النبي من غير أن يثبتوا لله كلاماً خارجاً عما في نفس النبي وعند التحقيق، فلا فرق عندهم بين الفيض على نفس النبي وسائر النفوس إلا من جهة كونها أصفى وأكمل[(٢)].

فإذا كان في مقدور النبي أن يتصل بالعقل الفعال ـ كما يزعمون ـ

---

(١) راجع في ذلك: «المواقف» للإيجي ص٣٣٧، ٣٣٨؛ و«شرح المواقف» للسيد الشريف ٨/٢١٨ ـ ٢٢٢؛ و«شرح المقاصد» للتفتازاني ٢/١٣٣، ١٣٤؛ و«شرح السنوسية الكبرى» للسنوسي ص٣٤٩، ٣٥٠؛ و«لوامع الأنوار البهية» للسفاريني ٢/٢٦٨؛ و«تحفة المريد» للبيجوري ص١٤٧، ١٤٨.

(٢) راجع: «لوامع الأنوار البهية» ٢/٢٦٨.

بواسطة النظر والتأمل، فإن النبوة تصبح ضرباً من المعرفة يصل إليها الناس على السواء.

فبتأثير العقل الفعال يبحث الإنسان ويفكر ويدرك الحقائق العامة، وبتفاوت أثره في بني الإنسان تختلف درجاتهم ويفضل بعضهم بعضاً، وإذا ما عظم إشراقه على واحد من البشر سما به إلى مرتبة الإلهام والنبوة(١).

فالقول باكتساب النبوة من أقوى المسائل التي كفرت بها الفلاسفة حيث يلزم على قولهم باكتسابها تجويز نبي بعد سيدنا محمد ﷺ أو معه، وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسُّنة وإجماع الأمة، حيث إن عقيدة ختم النبوة بسيدنا محمد ﷺ ثابتة بالكتاب والسُّنة والإجماع(٢).

وخلاصة الأمر: أن النبوة عند أهل الحق، ـ فيما ذكر العلماء ـ ليست صفة راجعة إلى نفس النبي ولا درجة يبلغ إليها أحد بعلمه وكسبه، ولا استعداد نفسه؛ يستحق بها اتصالاً بالروحانيات بل رحمة من الله تعالى ونعمة يمنّ بها على من يشاء من عباده، يختص برحمته من يشاء وهو أعلم حيث يجعل رسالته(٣).

يقول صاحب «الجوهرة»:

ولم تكن نبوة مكتسبة ... ولو رقىٰ في الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن ... يشاء جل الله واهب المنن(٤)

---

(١) راجع تفصيل الحديث عن نظرية النبوة عند الفارابي باعتباره أول من قال بها وتأثر به لاحقوه من الفلاسفة وما يؤخذ على هذه النظرية في كتاب الدكتور إبراهيم مذكور: «في الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق» ١/ ٧٠ ـ ٩٨.

(٢) راجع: «لوامع الأنوار البهية» ٢/ ٢٦٨، ٢٦٩؛ و«تحفة المريد» ص١٤٧؛ وكتابي «غلاة الشيعة» ص٦٣٨ ـ ٦٤٣.

(٣) «نهاية الإقدام في علم الكلام» ص٤٦٢؛ «شرح المقاصد» للتفتازاني ٢/ ١٢٩.

(٤) «تحفة المريد» ص١٤٧.

ويقول صاحب «الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية»:

ولا تنال رتبة النبوة بالكسب والتهذيب والفتوة
لكنها فضل من المولى الأجل لمن يشاء من خلقه إلى الأجل(١)

ويرى الشهرستاني أنه لا تعدم نفس النبي ومزاجه كمالية في الفطرة وحسناً في الأخلاق وصدقاً وأمانةً في الأقوال والأفعال قبل بعثه؛ لأنه بها استحق النبوة أو وصل بسببها إلى الاتصال بالملائكة..

وينتهي إلى أن الأنبياء هم خيرة الله في خلقه، وحجة الله على عباده، والوسائل إليه وأبواب رحمته، وأسباب نعمته فكما يصطفيهم من الخلق قولاً بالرسالة والنبوة يصطفيهم من الخلق فعلاً بكمال الفطرة ونقاء الجوهر وصفاء العنصر وطيب الأخلاق وكرم الأعراق، فيرقيهم مرتبة مرتبة حتى إذا بلغوا أشدهم، وبلغوا أربعين سنة، وكملت قوتهم النفسانية، وتهيأت لقبول الأسرار الإلهية بعث إليهم ملكاً وأنزل عليهم كتاباً(٢).

النبوة والرسالة اصطفاء من الله:

يذكر العلامة ابن خلدون أن الله سبحانه قد اصطفى من البشر أشخاصاً فضّلهم بخطابه، وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده، يعرفونهم بمصالحهم، ويحرضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدلونهم على طريق النجاة(٣).

ولذلك فإنه تعالى حينما يتحدث عن اختيار الأنبياء يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥].

---

(١) «لوامع الأنوار» ٢/ ٢٦٧، ٢٦٨.
(٢) «نهاية الإقدام في علم الكلام» ص٤٦٣.
(٣) «مقدمة ابن خلدون» ١/ ٣٤٥، ٣٤٦.

ويقول عن آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٢٣]. وعن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [صٓ: ٤٧]، ويقول لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ومعنى اصطفاء الله لهم أنه سبحانه صفاهم من الصفات الذميمة، وزيّنهم بالخصال الحميدة، وخصهم بالنفوس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية، والكمالات الجسمانية، حتى إنهم امتازوا كما قيل على سائر الخلق خَلقاً وخُلقاً، وجعلوا خزائن أسرار الله تعالى، ومظهر أسمائه وصفاته، ومحل تجليه الخاص من عباده، ومهبط وحيه، ومبلغ أمره ونهيه(١).

يذكر الإمام الرازي أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية، والقوى الروحانية؛ لأن النفس القدسية مخالفة بماهيتها لسائر النفوس. ومن لوازم تلك النفس: الكمال في الذكاء والفطنة، والحرية، والاستعلاء، والترفُّع عن الجسمانيات والشهوات(٢).

ولذلك فإن المصطفين من الناس للنبوة والرسالة هم المختصون بالنفوس الزكية، المؤيدون بالقوة القدسية، المتعلقون بكلا العالمين: الروحاني والجسماني، يتلقون من جانب ويلقون من جانب. ولذلك قووا على ما لم يقو عليه غيرهم فلا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل إلى جانب الحق فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم، ويعلمونهم شرائعه وأحكامه، كأنه تعالى لما قرر وحدانيته في الألوهية ونفى أن يشاركه فيها

---

(١) «روح المعاني» للألوسي ٣/ ١٣١، ١٣٢.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ٨/ ٢٠ ـ ٢٢.

شيء من الأشياء بيّن أن له عباداً مصطفين للرسالة يتوصل بإجاباتهم والاقتداء بهم إلى عبادته ﷻ وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريراً للنبوة، وتزييفاً لقولهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[1].

(١) راجع: «تفسير أبي السعود» ٤/ ٣٤؛ و«تفسير البيضاوي» ١/ ١٥٦، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، الحلبي.

الفصل الثاني

بشرية الرسل ضرورة تمنع من الغلو والشرك بالله فيهم

وينقسم إلى مبحثين:

المبحث الأول: بشرية المسيح عليه السلام تنفي زعم النصارى القول بألوهيته.

المبحث الثاني: التأكيد على بشرية النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

* * *

المبحث الأول

بشرية المسيح تنفي زعم النصارى القول بألوهيته

بشرية المسيح في الأناجيل الأربعة:

لقد احتوت الأناجيل الأربعة المعتمدة عند النصارى على أقوال وأحوال تدل دلالة قاطعة على بشرية المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله شأنه في ذلك شأن بقية إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

فقد بيّنت هذه الأحوال وتلك الأقوال أنه إنسان تسري عليه أحوال الآدميين من أكل وشرب ونوم وراحة وتعب، وتعتريه مواقف البشر من غضب وخوف وفزع وهلع إلى غير ذلك.

وكان المسيح عليه السلام يعبر عن نفسه دائماً بأنه بشر، إما بقوله: «إنسان» أو «ابن الإنسان»؛ جاء في إنجيل يوحنا قول المسيح: «ولكنكم الآن

تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذي سمعه من الله»[1].

وورد إنجيل لوقا: «لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس»[2]، وكذلك الأمر في بقية الأناجيل.

يقول محمد مجدي مرجان ـ وكان نصرانياً فاهتدى إلى الإسلام ـ: كان عيسى عليه السلام يحرص طوال أحاديثه مع الناس أن يدعو نفسه بلقب «ابن الإنسان» ويتكرر هذا الوصف لنفسه على لسانه في كافة الأناجيل[3].

ويذكر الدكتور نظمي لوقا ـ وهو مفكر نصراني ـ في كتابه: «محمد: الرسالة والرسول» وهو في معرض حديثه عن التوحيد في الإسلام يذكر أن سورة الإخلاص في القرآن وما تحتوي عليه من وحدانية وتنزيه عن الشرك والتعدد نقض لعقائد الشرك وتصحيح لعقائد أهل الكتاب، حيث صار أتباع المسيح إلى القول بألوهيته رغم أنه لم يرد على لسان المسيح في الأناجيل إشارة إلى شيء من ذلك، بل كان يدعو نفسه على الدوام بـ«ابن الإنسان»[4].

وقد ألّف «إميل لودفيغ» كتاباً بعنوان «ابن الإنسان» ذكر فيه أن يسوع لم يفكر في أنه أكثر من نبي، وأنه وجد كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله أنه «ابن الإنسان» وأنه قد سار في ذلك على نهج دانيال وحزقيال[5] اللذين خاطبا الرب بابن الإنسان؛ أي: بآدمي ضعيف[6].

---

(١) يوحنا ٨: ٤٠.
(٢) لوقا ٩: ٥٦.
(٣) راجع: كتابه «المسيح إنسان أم إله» ص٢٢٥، ٢٢٦؛ وكتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمت الله الهندي ص٣٥٠.
(٤) «محمد: الرسالة والرسول» ص٦٥، ٦٦.
(٥) راجع: «قاموس الكتاب المقدس» ص٣٠١، ٣٠٢، و٣٥٧، ٣٥٨ ودانيال وحزقيال من أنبياء العهد القديم.
(٦) ابن الإنسان ص٩٥، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٧م. =

فلننظر في بعض هذه الأحوال التي وقعت للمسيح ﷺ والمواقف التي تعرض لها وظهرت فيها بشريته ظهوراً كاملاً وسيتبين لنا ذلك من خلال عدة شواهد.

الشاهد الأول: تجربة إبليس للمسيح:

يقول متى في إنجيله: «ثم أصعد يسوع إلى البرية من الروح ليجرب من إبليس، فبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة جاع أخيراً فتقدم إليه المجرب وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً... ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك، قال له يسوع: مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك، ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب: «الرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» ثم تركه إبليس»(١).

هذه القصة شاهدة على المسيح بصريح العبودية وافتقار البشرية فقد صرح فيها بأنه يعبد الله تعالى ويسلك الأدب معه على سنن العباد في عدم تجربة الرب تعالى، وكيف يجرب إبليس المسيح ﷺ ويسحبه ويقوده من مكان إلى مكان ويسومه السجود له وهو خالق كل شيء وإله العالم في زعمهم، فكيف تجرؤوا على مقامه الشريف وجعلوا إبليس يجره ويمتحنه ويسحبه.

= ويذكر المؤلف في المقدمة أن مقصده من تأليف الكتاب أن يثبت للذين يرون المسيح من صنع الخيال أنه بشر حقيقي ص١١.

(١) راجع: متى ٤: ١ ـ ١١.

وإذا كان إلهاً يكون إبليس لا مطمع له فيه، فلما طمع فيه وعامله بتلك المعاملة واعترف المسيح بالعبودية دلّ ذلك على أنه عبد لا رب(١).

الشاهد الثاني: قصة يسوع مع الشجرة:

جاء في الإصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متى عن يسوع: «وفي الصبح إذ كان راجعاً إلى المدينة جاع، فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط، فقال لها: لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد، فيبست التينة في الحال فلما رأى التلاميذ ذلك تعجبوا قائلين: كيف يبست التينة في الحال؟!»(٢).

وهذه القصة تدل على بشرية المسيح وعبوديته من وجوه:

١ ـ جوعه وهو ينافي الربوبية ويثبت العبودية.

٢ ـ عدم علمه بعدم ثمرة الشجرة فدل على أنه بشر ولا يعلم إلا ما علم، وذلك يثبت عبوديته وينافي إلهيته.

٣ ـ غضبه على الشجرة لأنه لما انخرم عليه أمله قوي غضبه، وهذه خاصية البشرية ومنافية للربوبية.

٤ ـ تعجب التلاميذ من يبسها بقوله.

ولو كانوا يعتقدون أنه الله تعالى لم يعجبوا من ذلك فإن يسوع عند النصارى هو الخالق العالم وبيده كل شيء، والتلاميذ لم يعتقدوا ذلك فدل على عبوديته عليه السلام وضلال النصارى(٣).

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «الفصل» لابن حزم ٢/ ١٤؛ «الأجوبة الفاخرة» للقرافي ص٩٣؛ «الجواب الصحيح» لابن تيمية ٢/ ٣٢٤؛ و«المنتخب الجليل» لأبي الفضل المالكي ص١٩ ـ ٢١.

(٢) متى ٢١: ١٨ ـ ٢٠.

(٣) راجع: «الأجوبة الفاخرة» ص٩٥ على هامش «الفارق بين المخلوق والخالق».

فقد أدركته في هذه القصة عوارض البشر من الجوع والعطش وما أكثر ما يصفه الإنجيل بذلك، ولما سبق في علم الله تعالى ما سيدعى به من الربوبية حفظ هذه المواضع من الإنجيل وحرسها من التبديل، لتكون قارعة لذوي الأحلام عن عبادة رجل من الأنام يفتقر إلى الشراب والطعام، فيقال لهم: كيف خفي عن يسوع حال الشجرة وهو في زعمكم غرسها؟! أم كيف أفتقر إلى تناول الثمرة، وهو الذي أينعها وأثمرها؟! ولِمَ دعا عليها ومن الذي دعاه حتى ساق التوى إليها؟![١].

الشاهد الثالث: قصة ورد فيها الحزن والاكتئاب والفزع والتضرع:

جاء في إنجيل متى: «حينئذ جاء معهم يسوع إلى ضيعة يقال لها: جثسيماني فقال للتلاميذ: اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك ثم أخذ معه بطرس وابني زيدي وابتدأ يحزن ويكتئب فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت.. وخرّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت.. فمضى أيضاً ثانية وصلى قائلاً: يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك[٢].

يعلق صاحب «المنتخب» بقوله: هل تليق هذه الخصال بصفات ذي الجلال فلو لم يكن في إنجيلهم إلا هذا الفصل لكان قائداً العميان سائقاً إلى غير دين النصرانية من الأديان، إذ هذا وما شاكله من أقوى الأدلة على ضعف البشرية وعجز العبودية فسبحان من أضل عقولهم وأعلم سبيلهم[٣].

---

(١) راجع: «المنتخب الجليل» ص٢٣، ٢٤؛ و«الرد الجميل» للغزالي ص١١٣.

(٢) متى ٢٦: ٣٦ ـ ٤٢.

(٣) «المنتخب الجليل من تنجيل من حرّف الإنجيل» ص٢٤، ٢٥.

فأقواله وأحواله المندرجة في هذه النصوص تدل على عبوديته ونفي ألوهيته، أيحزن ويكتئب ويموت ويصلي لإله آخر ويدعو بغاية التضرع!![1].

ويدل ما في هذه القصة على بشريته من وجوه:

أحدها: أنه وصف نفسه بالحزن والله تعالى لا يحزن بل هو من خصائص البشر.

وهناك نصوص أخرى تتحدث عن حزنه وبكائه واكتئابه[2].

ولنا أن نتساءل: ما سبب هذا الحزن، إما جزعاً من الموت أو أسفاً على بقاء الناس على الكفر؟! وأياً ما كان فقد تحقق عجزه فلا يصلح من هذا للربوبية.

ألم ينقلوا: أنه إنما جاء ليخلص الخلق ويفديهم بدمه الكريم، من الجحيم، فأي معنى حينئذ لحزنه واكتئابه؟[3].

الثاني: ثبت من هذه النصوص وغيرها أن المسيح كان يصلي لله، والمعبود غير العابد فلا يكون هو الله، وأنه سأل الله خير الموت، والسائل غير المسؤول[4].

وفيما يتعلق بالصلاة فقد ورد في كثير من مواضع الأناجيل أن يسوع كان يصلي لله، منها ما ورد في إنجيل متى: «وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي»[5].

(١) راجع: «إظهار الحق» للشيخ رحمت الله الهندي ٣/ ٧٤٩، ٧٥٠، تحقيق د. محمد ملكاوي.

(٢) منها ما ورد في: لوقا ٢٢: ٤٤؛ يوحنا ١١: ٣٣ ـ ٣٥.

(٣) راجع: «الأجوبة الفاخرة» ص٩٧؛ «المنتخب الجليل» ص٣٥.

(٤) راجع: «الأجوبة الفاخرة» ص٩٧.

(٥) متى ١٤: ٢٣؛ ومنها ما ورد في مرقس ١: ٣٥؛ وفي لوقا ٩: ٢٨، ٢٩/٦: ١٢.

فثبت أنه كان يصلي ولا بد أنه يصلي لله فثبت أنه ليس الله وإنما هو عبد مربوب، ولو كان رباً أو إلهاً كما يزعمون لدعا إلى عبادة نفسه؛ لأنه لا يجوز للإله أن يدعو إلى عبادة غيره.

الوجه الثالث: وفي النص أيضاً ما يفسد أمانتهم ويفسد شريعتهم وهو قوله: «ولكن ليس كإرادتي، ولكن كإرادتك» فغاير بين الإرادتين فبطل قولهم في الأمانة: المسيح إله حق من إله حق؛ من جوهر أبيه، فقد جعل إرادة الله فوق إرادته فلا يكون هو الله تعالى.

وهذه الوجوه كلها دالة على عدم الربوبية وإثبات العبودية[(١)] بالإضافة إلى ما زعموا أنه صرخ به وصاح وهو على خشبة الصليب: «إلهي إلهي لماذا تركتني أو لِمَ تركتني؟؟!!».

يقول الإمام الغزالي: «وأي إله هذا شأنه: شك في استطاعة عبور الكأس ورفع صوته مستفهماً من إلهه: لِمَ تركه؟»[(٢)].

ويذكر الشيخ رحمة الله الهندي أن هذا القول الذي صدر عنه في آخر نفس من نفسات الحياة ينفي ألوهية المسيح رأساً؛ لأنه لو كان إلهاً لما استغاث إلهاً آخر[(٣)].

وهكذا كان يسوع يهرب ويخاف ويفزع ويجزع شأنه في ذلك شأن كل البشر «وورد ذلك في نصوص أخرى من الأناجيل»[(٤)].

يذكر القاضي عبد الجبار أنه كان إذا ذكر أمامه البعث والحساب والقيامة يكون منه البكاء والقلق والجزع ما لا يكون من أحد، ويكون من صلاته وصيامه وعبادته وخشوعه ما لا يكون من أحد من زمانه.

---

(١) راجع: «الأجوبة الفاخرة» ص٩٧؛ و«المنتخب الجليل» ص٢٥.

(٢) «الرد الجميل» ص١٤١. (٣) «إظهار الحق» ٣/ ٧٤١.

(٤) راجع: يوحنا ١٠: ٣٩/٨: ٥٩؛ لوقا ٤: ٢٩، ٣٠.

ومثل هذا من أقواله وأفعاله أكثر من أن يحصى، وهو معهم وفي أناجيلهم حتى لقد أحصى أهل المعرفة والعلم فوجدوا المسيح عليه السلام له من الإقرار على نفسه بالعبودية والضعف والحاجة والفقر والفاقة لله عز وجل بالغنى والربوبية ما لم يكادوا يجدونه لأحد من الأنبياء والصالحين ثم تقول فيه النصارى ما تقول من تأليه وربوبية!![١].

وبعد أن أورد ابن حزم عدداً من النصوص المتناقضة في أناجيلهم بيّن هذا التناقض الظاهر بين البشرية والإلهية في تصورهم للمسيح فذكر من هذه الأمور أنه كان يجوع ويأكل ويطلب ما يأكل، ويعطش ويشرب، ويعرق من الخوف ويلعن الشجرة، إذ لم يجد فيها تيناً يأكله، ويفشل فيركب حماره ويؤخذ ويلطم وجهه ويضرب رأسه بالقصبة، وبزق في وجهه ويضرب وجهه بالسياط ويميته الشرط ويتهكمون به، ويسقى الخل في الحنظل ويصلب بين سارقين ويسمر يداه ومات في الساعة ودفن ثم يحيىٰ بعد الموت ولم يكن له همّ بعد أن حيي بعد الموت واجتمع بأصحابه إلا طلب ما يأكل فأطعموه الخبز والحوت المشوي وسقوه العسل ثم انطلق إلى شغله، هذا كله من خلال النصوص الواردة في أناجيلهم[٢].

أما صاحب «المنتخب الجليل» فقد أورد عدداً من النصوص تحت عنوان: «فيما سلم من التبديل من ألفاظ الإنجيل مما فيه الشهادة من عبودية المسيح من الأدلة الواضحة والإشارات اللائحة بما ساوى فيه الأنبياء والمرسلين»[٣].

وانتهى بعد دراسة هذه النصوص وتحليلها إلى أنه لا خلاف بين النصارى أن أم المسيح عليه السلام ولدته في بيت لحم ولفّته في الخرق ووضعته في معلف دابة حيث نزلا فلما تمت له ثمانية أيام سموه يسوعاً، ولما

---

(١) راجع: «تثبيت دلائل النبوة» ١/ ١١٤، تحقيق د. عبد الكريم عثمان.

(٢) راجع: «الفصل» لابن حزم ٢/ ٥٩. (٣) راجع من ص١٤ إلى ص٢٧.

أكملوا أيام فطرهم أقاموه ليقربوا عنه زوجي يمام أو فرخي حمام كسنة الناموس، وأنها أرضعته ثديها، وأفرشته حجرها، ونشأ نشأة الآدميين ولم يتميز عنهم في حال من الأحوال من صغره إلى ابتداء دعوته قد عرف طوله وقدره وكميته واغتذاؤه بالطعام وانتقل من مكان إلى مكان.

وقد شهد الإنجيل أن مريم هربت به إلى مصر خوفاً من هيرودس الذي ولد في عهده، ثم أعادته إلى الشام حين هلك أعداؤه وأقام نيفاً وثلاثين سنة يتعلم العلم ويقرأ التوراة ونبوات الأنبياء ويركب الحمير، ويقضي الأوقات باليسير من الأقوات ويلجأ إلى الله في حوائجه ومآربه إذا أعوزته وجوه مطالبه، ويفرح ويغتم ويلبس ويعتم ويفر من السلطان.

وإذا كان هذا حاله على ما وصفناه فقد ثبت أنه مخلوق محدث وأن إله الأنبياء هو خالقه ومحدثه، فإن تحامت النصارى وزعموا أنه هو الله أو صفة من صفاته أو أنه تعالى ساكن في إهابه فقد حكموا أن القديم الأزلي ولدته امرأة حل في بطنها بين فرث ودم، وخرج من فرجها بعد ضيق وغم، ولفّته في الخرق ووضعته في مذود ثور، فقد أجهلوا الباري.

ثم يقول أبو الفضل المالكي: «وهذه أقوال متوافرة على أنه مربوب، وينادي النصارى بأن يستحيوا من عبادة إنسان قد حملت به أمه كما تحمل النساء بالأجنة ورددت عليه أطوار الخلق، ينسب إلى يوسف مرة وإلى داود أخرى، يغتذي بالطعام ويتردد بين الأنام وتعتريه العوارض؛ يعافي ويمرض ويحزن ويطرب، ويعيا ويركب ويستريح ويتعب ويعطش ويسغب ويأكل ويشرب ويستتر من عدوه حين يطلب ويقرن باللصوص ـ حاشا وكلا ـ ويسحب، ويحمل صليبه فيقتل ويصلب ويدفن في المقابر فيبكىٰ عليه ويندب ـ حسب زعمهم ـ.

وينتهي إلى أن القول بأنه قد ثبت بما قدمناه أن المسيح من عباد الله بقوله وفتواه وأنشد عدداً من الأبيات نذكر منها:

هـو عـبـد مـقـرب ونـبـي ورسـول قـد خـصـه مـولاه
والأنـاجـيـل شـاهـدات وعـنـه إنـمـا الله ربّـه لا سـواه
كـان لله خـاشـعـاً مـسـتـكـيـنـاً راغـبـاً راهـبـاً يـرجـي رضـاه
لـيس يـحـيي ولـيس يـخـلق إلا إن دعـاه، وقـد أجـاب دعـاه
إنـمـا فـاعـل الـجـمـيـع هـو الـلـ ـه ولكن على يديه قضاه[1]

وإذا كان قد ثبت من خلال هذه النصوص التي أوردناها وغيرها من الأناجيل أن المسيح عليه السلام قد جاع وشبع واطمأن وجزع وناله النفع والضرر واعتورت عليه أحوال البشر شأنه في ذلك شأن غيره من بني الإنسان، فإن النصارى قد يحملون هذا ـ فيما يزعمون ـ على ناسوته دون لاهوته فيقال لهم: لم يكن الاتحاد الذي تدعونه ناسوتاً متميزاً عن اللاهوت حتى يخص بهذه النقائص والعوارض البشرية بل صار به شيئاً واحداً والشيء الواحد لا يقال: جاع ولم يجع ومات ولم يمت!

وحول ذلك يقول لهم ابن حزم:

أنتم تقولون في كل هذا: فعل المسيح وقال المسيح؛ وللمسيح عندكم طبيعتان ناسوتية ولاهوتية وعند اليعقوبية طبيعة واحدة وكلكم تقولون: إن اللاهوت اتحد بالناسوت فأنتم كذبتم وأضفتم كل هذا إلى اللاهوت وإنما كان الحق على أصلكم هذا الملعون أن تقولوا: فعل نصف المسيح وقال نصف المسيح وخاطب إبليس نصف المسيح فعلى كل حال قد كذبتم[2].

وإذا كان المسيح قبل الاتحاد كان يدركه عوارض الآدميين، فكونه بعد الاتحاد كهو قبله فلا معنى للاتحاد بل هو مجرد تسمية ساذجة عن المعنى.

---

(١) راجع: «المنتخب الجليل» ص٢٦ ـ ٢٨.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: «الفصل» ٢/١٧، ٦١؛ و«الأجوبة الفاخرة» ص٩٤؛ و«المنتخب الجليل» ص٢٠، ٢٤؛ «الرد الجميل» ص١٣٧، ١٣٨.

وإذا ثبت أنه تناول الطعام وصلى وصام والتزم الأحكام فقد أربى في العبودية على سائر الأنام[١].

نبوة المسيح ورسالته في الأناجيل:

وإذا كانت بشرية المسيح قد ثبتت ثبوتاً كاملاً من خلال نصوص الأناجيل فإن هناك نصوصاً أخرى وكثيرة أيضاً[٢] تثبت اعترافه الصريح وإقراره الظاهر بأنه بجانب كونه عبداً من عباد الله وبشراً تسري عليه أحوال البشر فهو نبي الله ورسوله أرسله ربه إلى بني إسرائيل، ولم يقم بهذه الرسالة من نفسه بل بمشيئة الرب الذي أرسله.

جاء في إنجيل يوحنا: «إنني خرجت من قبل الله وأتيت إليكم؛ إنني لم آت من نفسي بل هو أرسلني»[٣].

ومن الملاحظ أن المسيح قد صرح في الأناجيل الأربعة بأنه عبد الله ورسوله إلا أن إنجيل يوحنا ـ الذي أنشأه صاحبه لإثبات ألوهية المسيح والرد على منكريها ويعتبر هو الحجة الأولى في تلك الألوهية ـ يعد من أكثر الأناجيل التي وردت فيه نصوص تثبت نبوة المسيح ورسالته. منها ما ورد في الإصحاح الرابع منه: «قال لهم يسوع: طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله»[٤].

وهذا إعلان منه عليه السلام بالعبودية والرسالة وأنه ليس له من الأمر شيء ولا يعمل شيئاً من تلقاء نفسه بل هو مأمور بتبليغ مشيئة الله تعالى وذلك مثل ما ورد أيضاً في الإصحاح الثاني عشر: «فنادى يسوع وقال: الذي

(١) «المنتخب الجليل» ص٢١.

(٢) أورد صاحب كتاب «الفارق بين المخلوق والخالق» مائة وعشرة من الشواهد في الأناجيل تثبت أن المسيح بشر ورسول وعبد من عباد الله: ص٣٤٦ ـ ٣٦٠.

(٣) يوحنا ٨: ٤٢. (٤) يوحنا ٤: ٣٤.

يؤمن بي ليس يؤمن بي بل بالذي أرسلني». «لأني لم أتكلم من نفسي لكن الأب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم»[(١)].

وفي إنجيل لوقا حين تآمر عليه كهنة اليهود يريدون قتله وأراد أن يترك أورشليم فارّاً بنفسه قال: إنه ينبغي أن يسير خارج أورشليم؛ لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم، ثم دعا على المدينة الظالمة بقوله: «يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين!!».

هكذا يوضح السيد المسيح طبيعته للناس، ما هو إلا إنسان أتى برسالة من عند الله، ليست الرسالة من عنده ولكن الله أرسله بها، أما هو فليس إلا نبياً مرسلاً من قبل الله يريد أهالي أورشليم أن يقتلوه، فيترك المدينة ويسير خارجها حيث الأمان فخارج أورشليم لا يهلك الأنبياء[(٢)].

أما تلاميذ المسيح وحواريوه فإنهم لم يعرفوه إلا على أنه بشر مرسل من الله «ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل» «فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم»[(٣)].

وكذلك الشعب اليهودي الذي عاش المسيح في وسطه لم يكن يرى فيه سوى إنسان نبي من قبل الله:

فقد ورد في إنجيل متى أن كهنة اليهود حين تآمروا عليه وأرادوا قتله وهمّوا بالقبض عليه، خافوا من جموع الشعب الذين كانوا يقدرونه ويجلّونه كنبي مرسل من الله.

---

(١) يوحنا ١٢: ٤٤، ٤٩، ٥٠.

(٢) راجع محمد مجدي مرجان: «الله واحد أم ثالوث» ص١٠٧، ١٠٨.

(٣) راجع: متى ٢١: ١١؛ يوحنا ٦: ٢٤.

«ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم، وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي»[1].

وبذلك فإن المسيح ﷺ يتحدث عن نفسه فيعلن أنه إنسان مرسل من الله، ويتحدث عنه تلاميذه والمقربون منه بما رأوه وعرفوه عنه فيقولون: إنه نبي، وتنظر إليه جموع الشعب أيضاً على أنه نبي؛ تماماً مثل سائر إخوانه من الأنبياء الذين سبقوه ولم يقل أحد إنه أكثر من بشر، أو أكثر من رسول[2].

ومتى ثبت أن المسيح رسول الله بطل كونه إلهاً فإن كونه هو الله مع كونه رسول الله متناقض.

وإذا قال النصارى: إنه إله بلاهوته ورسول بناسوته، فإنه كلام باطل من عدة وجوه يحسن الرجوع إليها في «الجواب الصحيح» للإمام ابن تيمية ونقتصر هنا على وجهين:

الأول: إن الذي كان يكلم الناس إما أن يكون هو الله أو هو رسول الله.

فإن كان هو الله بطل كونه رسول الله، وإن كان رسول الله بطل كونه هو الله.

الثاني: أن خطابه خطاب رسول ونبي كما ثبت ذلك عنه في عامة المواضع[3].

---

(١) متى ٢١: ٤٥، ٤٦.

(٢) راجع: «الله واحد أم ثالوث» ص١٠٨ ـ ١١٠؛ و«المسيح إنسان أم إله» ص٢١٨ ـ ٢٢٥.

(٣) راجع: «الجواب الصحيح» ٢/ ٤٦ ـ ٤٨، الطبعة المحققة، نشر دار العاصمة بالرياض ١٤١٤هـ.

وبعد أن أورد المهتدي محمد مجدي مرجان أقوالاً منسوبة إلى الأقانيم الثلاثة يخاطب كل منها الآخر ويتحدث عنه أو إليه؛ عقب عليها فبيّن أن هذا التخاطب بين الأقانيم وخروج أحدها عن الآخر وإرسال أحدها للآخر؛ يعني: انفصالاً يمنع الوحدة بل المساواة بينها.

ففي موضوع الإرسال مثلاً: لا شك أن المرسِل أعلى درجة من المرسَل أو الرسول فحين يرسل الأب الابن مثلاً فلا شك أن الأب أعلى من الابن فهو كإرسال السيد خادمه أو كإرسال الرئيس مرؤوسه.

يقول المسيح: «الحق الحق أقول لكم: إنه ليس عبد أعظم من سيده، ولا رسول أعظم من مرسله»[1].

بشرية المسيح ونبوته ورسالته في القرآن الكريم:

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة لتصحيح عقيدة النصارى في المسيح عيسى ابن مريم وبيان أنه عبد الله ورسوله شأنه في ذلك شأن إخوانه من الأنبياء والمرسلين، فتحدث القرآن عن بشرية المسيح وعبوديته لله سبحانه، ليثبت بهما وحدانية الله تعالى وينفي بها أيضاً زعم النصارى القول بألوهية المسيح.

جاء هذا على لسان المسيح نفسه فاعترف بالعبودية والرسالة فكانت أول كلمة نطق بها وهو لا يزال في المهد كما ورد في سورة أمه «مريم» ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٩] وحينما بعث إلى بني إسرائيل قال لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وأمر قومه بعبادة الله وحده معلناً أنه ربه ـ فهو عبده ـ وربهم وحذرهم من الشرك وعاقبته.

---

(١) يوحنا ١٣: ١٦؛ راجع: «الله واحد أم ثالوث» ص٣٢، ٣٣.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ويوم يجمع الله الرسل يقول الله سبحانه لعيسى بن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾، فـيـكـون جـوابـه ﷺ ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ [المـائـدة: ١١٦، ١١٧].

وإذا كان هذا كله قد وقع على لسان المسيح نفسه فإن القرآن الكريم قد أخبر عن عبودية المسيح لله رب العالمين وأنه لن يستنكف عن عبادته.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ [النساء: ١٧٢].

وحينما نهى النصارى عن الغلو في دينهم عقب على ذلك بأن المسيح الذي غلوا فيه وتجاوزوا فيه الحد فرفعوه إلى درجة الإلهية إنما هو رسول الله ونهاهم عن الشرك والتثليث ودعاهم إلى الوحدانية فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

يذكر الرازي أنه لما أجاب عن شبهات اليهود تكلم بعد ذلك مع النصارى في هذه الآية والتقدير: يا أهل الكتاب من النصارى لا تغلوا في دينكم؛ أي: لا تفرطوا في تعظيم المسيح ولا تقولوا على الله إلا الحق؛ يعني: لا تصفوا الله بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان أو روحه ونزّهوه عن هذه الأحوال ولما منعهم عن طريق الغلو أرشدهم إلى طريق الحق وهو أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وعبده[(١)].

وجاء في «تفسير ابن كثير» لهذه الآية: أن الله تعالى ينهى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً أو صحيحاً أو كذباً ولهذا قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وقال الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**..». وهذا حديث صحيح مسند وهكذا رواه البخاري[(٢)].

قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ﴾:

وحينما احتج النصارى بولادة عيسى عليه السلام من غير أب وجعلوا ذلك ذريعة للقول بألوهيته وأنه ابن الله[(٣)] بيّن لهم القرآن الكريم ضعف

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» ١١/ ١١٥؛ راجع أيضاً: «روح المعاني» للألوسي ٦/ ٢٤.

(٢) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٥٩١، دار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ.

(٣) يستند النصارى على ميلاد عيسى عليه السلام من عذراء وبدون أب في القول بألوهيته ويسمونه «الميلاد العذراوي» حيث يقولون: لو لم يولد من عذراء لكان إنساناً، =

حجتهم، وأن ولادة عيسى إذا كانت عجيبة في مألوف البشر فإن الأعجب منها ولادة آدم الذي يقرون نشأته من التراب دون أن يصوغوا حوله الأساطير التي صاغوها حول عيسى فقال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

يقول جل وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قدرته حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾؛ أي: من غير أب ولا أم، فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى. ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً(١) .

يذكر ابن القيم أنهم ـ أي: النصارى ـ إن استدلوا على كونه إلهاً بأنه لم يولد من البشر فإن كان استدلالهم صحيحاً فآدم إله المسيح، وهو أحق بأن يكون إلهاً منه؛ لأنه لا أم له ولا أب والمسيح له أم(٢)، فآدم لم يباشر الأرحام ولا سقم الأطفال ولا تطور في أطوار البشر، وكم في العالم من الحيوانات خلقها الله تعالى من غير أب(٣). فالله سبحانه قد نوّع خلق آدم وبنيه إظهاراً لقدرته وأنه يفعل ما يشاء، فخلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عبده المسيح من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى.

= ويدعونه من أجل ذلك ابن الله. راجع تفصيل ذلك في كتاب محمد مجدي مرجان: «المسيح إنسان أم إله» ص١٨٥.

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ١/ ٣٦٧؛ و«في ظلال القرآن» ٣/ ٤٠٤، ٤٠٥.

(٢) راجع: «هداية الحيارى» ص١٨٦.

(٣) «الأجوبة الفاخرة» للقرافي ص١٤٤.

ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقال ههنا: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾؛ أي: هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه وماذا بعد الحق إلا الضلال[1].

قوله: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾:

وفي معرض محاجته للنصارى بيّن لهم بالبراهين الساطعة والدلائل القاطعة بشرية المسيح وأمه وأنهما لا يملكان من أمرهما شيئاً؛ لأنهما كانا دائماً في احتياج وافتقار إلى الله سبحانه، وأنه رسول مثل سائر الرسل فقال تعالى:

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦].

فبعد أن بيّن القرآن الكريم بطلان التثليث وحكم على القائلين به بالكفر، أجاب الله سبحانه عن التساؤلات التي يوردها من أكبروا أن يكون المسيح بشراً كسائر الناس، ورد على القائلين بألوهيته فبدأ بذكر خصوصيته التي امتاز بها على أكثر الناس، ثم ثنى ببيان حقيقته التي يشارك بها هو وأمه كل أفراد البشر.

أما الخصوصية فهو أنه ليس إلا رسولاً من رسل الله تعالى الذين بعثهم لهداية عباده، قد خلت ومضت من قبله الرسل الذين اختصهم الله مثله تعالى بالرسالة وأيدهم بالآيات.

---

(١) راجع: «تفسير ابن كثير» ١/٣٦٧؛ و«هداية الحيارى» ص١٨٦.

فبهذه الخصوصية امتاز هو وإخوته الرسل على جماهير الناس فقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾؛ أي: أن له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام[1].

فقد أثبت له الرسالة بصورة الحصر؛ أي: ما المسيح ابن مريم شيء مما تدعيه النصارى من كونه أحد آلهة ثلاثة بل ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله وتقدموا عليه، وإن ظهرت الآيات على يديه فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل فإن كان إلهاً فليكن كل رسول إلهاً!! فهذا رد لقولهم واحتجاج عليهم[2].

وقد أضاف أبو السعود وتبعه الألوسي بُعداً آخر لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ حيث ذكرا أنه صفة لرسول منبئة عن اتصافه بما ينافي الألوهية، فإن خلو الرسل السالفة عليهم السلام قبله منذر بخلوه وذلك مقتض لاستحالة الألوهية.

أي: أنه ما هو إلا رسول؛ كالرسل الخالية من قبله خصه الله تعالى ببعض الآيات كما خص كلّاً منهم ببعض آخر منها، ولعل ما خص به غيره أعجب وأغرب مما خصه به فإنه عليه الصلاة والسلام إن كان قد أحيا بإذن الله من مات من الأجسام التي من شأنها الحياة، فقد أحيا موسى عليه السلام الجماد[3] وإن كان قد خلق من غير أب فآدم عليه الصلاة والسلام قد خلق من غير أب وأم فمن أين لكم

---

(١) انظر: «تفسير المنار» ٦/٤٨٦؛ «تفسير ابن كثير» ٢/٨١.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٢/٦١؛ «البحر المحيط» ٣/٥٣٧؛ «تفسير القرطبي» ٦/٢٥٠.

(٣) راجع: «هداية الحيارى» ص١٩٠؛ و«المسيح إنسان أم إله» ص١٨٧ ـ ١٨٨.

وصفه بالألوهية؟[1].

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾؛ أي: وما أمه أيضاً إلا كسائر النساء اللواتي يلازمن الصدق أو التصديق ويبالغن في الاتصاف به، فمن أين لكم وصفها بما عري عنه أمثالها.

ويرى الرازي أن ذكر أمه هنا يراد به أن من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً لا إلهاً[2].

وبعد أن بيّن سبحانه حقيقة حال المسيح وحال أمه بالإشارة أولاً إلى ما امتاز به من نعوت الكمال حتى صارا من أكمل أفراد الجنس، أشار آخراً إلى الوصف المشترك بينهما وبين جميع أفراد البشر بل أفراد الحيوانات، استنزالاً لهم بطريق التدريج عن رتبة الإصرار على ما تقولوا عليهما وإرشاداً لهم إلى التوبة والاستغفار[3] فبيّن تعالى أن حقيقتهما الشخصية والنوعية مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما بدليل أنهما كانا يأكلان الطعام، فهو مفتقر إلى ما يقيم بنيته ويمد حياته، لئلا ينحل بدنه وتضعف قواه فيهلك، بالإضافة إلى ما يستلزمه أكل الطعام من الحاجة إلى دفع الفضلات، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن مساو لسائر الممكنات المخلوقة في حاجتها إلى غيرها، فلا يمكن أن يكون رباً خالقاً، ولا ينبغي أن يكون رباً معبوداً[4].

فقال تعالى عن المسيح وأمه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾.

---

(١) «تفسير أبي السعود» ٢/ ٥٠؛ «روح المعاني» ٦/ ٢٠٨.

(٢) راجع تفاسير: «ابن كثير» ٢/ ٨١؛ و«الرازي» ١٢/ ٦١؛ و«أبي السعود» ٢/ ٥٠؛ و«الألوسي» ٦/ ٢٠٨.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾. راجع: «محاسن التأويل» ٦/ ٢١٠٤؛ و«الألوسي» ٦/ ٢٠٩.

(٤) راجع: «تفسير أبي السعود» ٢/ ٥٠؛ و«روح المعاني» ٦/ ٢٠٨.

يقول ابن كثير: «أي: يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فِرَق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة»(١).

ويذكر ابن تيمية أن هذا من أظهر الصفات النافية للإلهية لحاجة الآكل إلى ما يدخل في جوفه ولما يخرج منه مع ذلك من الفضلات(٢).

فأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح ﷺ وأمه الصديقة لم يتمكنوا من إنكارها وإخفائها(٣)، وهي خصيصة من خصائص الأحياء الحادثين، ودليل قاطع ومؤكد على بشرية المسيح وأمه، حيث إن أكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لا مراء فيها.

يذكر القرطبي أن عيسى مولود مربوب فمن ولدته النساء وكان يأكل الطعام مخلوق محدث كسائر المخلوقين، ولم يدفع هذا أحد منهم فمتى يصلح المربوب لأن يكون رباً؟!(٤).

فقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ تنبيه على سمة الحدوث وتبعيد عما اعتقدته النصارى فيهما من الإلهية؛ لأن من احتاج إلى الطعام وما يتبعه من العوارض؛ كالهضم والنقض لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وغير ذلك وهو مما يدل على مصنوع مؤلف مدبّر كغيره من الأجسام والإله هو الذي يكون غنياً عن جميع الأشياء فكيف يعقل أن يكون هذا المحتاج إلى الطعام إلهاً؟!(٥).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ٢/ ٨١، ٨٢.
(٢) «الجواب الصحيح» ١/ ١٧١، الطبعة المحققة، نشر دار العاصمة بالرياض.
(٣) فقد سبق أن بيّنّا نصوص الأناجيل في ذلك بدون تبديل.
(٤) راجع: «تفسير القرطبي» ٦/ ٢٥٠؛ و«ظلال القرآن» ٦/ ٩٤٥.
(٥) راجع: «تفسير الرازي» ١٢/ ٦١؛ و«البحر المحيط» لأبي حيان ٣/ ٥٣٧؛ و«تفسير النسفي» ١/ ٢٩٥، ٢٩٦.

فالمراد إذن من أكل الطعام حقيقته.

لكن بعض العلماء يرى أن قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ كناية عن قضاء الحاجة بخروج الطعام، وهذا ـ فيما يقول ـ الألوسي أمر ذوقاً في أفواه مدّعي ألوهيتهما لما في ذلك مع الدلالة على الاحتياج المنافي للألوهية من بشاعة عرفية وليس المقصود سوى الرد على النصارى في زعمهم المنتن، واعتقادهم الكريه[١].

ويرى أبو حيان أنه لا حاجة إلى هذه الكناية، وإنما ذلك تنبيه على سمات الحدوث والحاجة إلى التغذي المفتقر إليه الحيوان في قيامه المنزّه عنه الإله فقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[٢] وإن كان يلزم من الاحتياج إلى أكل الطعام خروجه فليس مقصوداً من اللفظ[٣].

وقد ضعف الإمام الرازي حمل الكلام على الكناية من وجوه:

الأول: أنه ليس كل من أكل أحدث؛ فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدِثون.

الثاني: أن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام وهذه الحاجة أقوى الدلائل على أنه ليس بإله فأي حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر.

الثالث: أن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلهاً لقدر على دفع الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلهاً للعالمين؟! وبالجملة ففساد

---

(١) راجع: «روح المعاني» ٦/ ٢٠٩.

(٢) أكد سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أنه تعالى يجب أن يتوجه إليه وحده بالدعاء، ومعناه: أنه يرزق الناس الطعام ولا يحتاج إلى من يرزقه ويطعمه؛ لأنه منزّه عن الحاجة إلى الطعام وغيره، غني بنفسه عن كل ما سواه. راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الرازي» ١٢/ ١٦٩؛ و«تفسير المنار» ٧/ ٢٧٧.

(٣) «البحر المحيط» ٣/ ٥٣٧.

قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل[1].

ومن أجل ذلك ونظراً لوضوح هذا المنطق الواقعي ونصاعته التي لا يجادل فيها إنسان يعقل، فإن الله سبحانه يعقب عليه باستنكار موقف النصارى، والتعجيب من حالهم حين يدعون المسيح وأمه الربوبية ولا يرعوون عن ذلك بعدما بيّن لهم حقيقة الحال بياناً لا يحوم حوله شائبة ريب، وانصرافهم عن ذلك تمام الانصراف، فقال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: انظر أيها الرسول وأيها السامع نظر تعقل وتفكر كيف نوضح ونظهر لهؤلاء النصارى الآيات والبراهين الدالة على بطلان دعواهم في المسيح، ثم انظر بعد هذا الإظهار وذلك الوضوح كيف يصرفون وبأي قول يتمسكون وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون[2].

قوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾:

وبعد أن أقام الله تعالى البرهان من حال المسيح وأمه على بطلان كونه إلهاً وبين ما يشاركان به أشرف البشر من المزية الخاصة وما يشاركان به سائر البشر من صفاتهم العامة، وقفّىٰ على ذلك بالتعجيب من بعد التفاوت ما بين قوة الآيات التي حججهم بها، وشدة انصرافهم عنها.

بعد ذلك لقّن سبحانه نبيّه حجة أخرى أوردها في سياق الإنكار عليهم وتبكيتهم على عبادة ما لا فائدة في عبادته، ولا يستحق شيئاً من الإلهية فقال تعالى:

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ٦١.

(٢) راجع: «تفسير ابن كثير» ٢/ ٨٢؛ و«روح المعاني» ٦/ ٢٠٩؛ و«تفسير المنار» ٦/ ٤٨٧؛ «وفي ظلال القرآن» ٦/ ٩٤٥.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧١].

فهو أمر بتبكيتهم إثر التعجيب من أحوالهم.

والمراد بما لا يملك هو عيسى أو هو وأمه عليهما السلام.

والمعنى: أتعبدون ما لا يستطيعان أن يضراكم بمثل ما يضركم به الله من البلاء والمصائب في الأنفس والأموال ولا أن ينفعاكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب؛ ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فهو بإقدار الله وتمكينه فكأنهما لا يملكان منه شيئاً[1].

ولذلك فإن هذه الآية الكريمة تعد دليلاً آخر على فساد قول النصارى وهو يحتمل أنواعاً من الحجة:

الأول: أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكان أنصاره وتلامذته يحبونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهاً؟!

الثاني: أن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزّقوا أضلاعه ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخريه، ومن كان في الضعف هكذا كيف يعقل أن يكون إلهاً؟!

الثالث: أن إله العالم يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه، ويكون كل ما سواه محتاجاً إليه، فلو كان عيسى عليه السلام كذلك لامتنع كونه مشغولاً بعبادة الله تعالى؛ لأن الإله لا يعبد شيئاً، إنما العبد هو الذي يعبد الإله.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٢/ ٨٢؛ وتفاسير: «النسفي» ١/ ٢٧٧؛ و«أبي السعود» ٢/ ٥١؛ و«الألوسي» ٦/ ٢٠٩؛ و«المنار» ٦/ ٤٨٨.

ولما عرف بالتواتر كونه كان مواظباً على الطاعات والعبادات علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجاً في تحصيل المنافع ودفع المضار إلى غيره.

ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم؟!.

وإذا كان كذلك كان عبداً كسائر العبيد[1].

قوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾:

ومن هذا القبيل فإن الله سبحانه بعد أن أخبر عن كفر النصارى في ادعائهم أن المسيح ابن الله ـ وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه ـ وأنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال لرسوله ﷺ رداً على النصارى واحتجاجاً على فساد مذهبهم:

قل يا أيها الرسول لهؤلاء النصارى المتجرئين على مقام الألوهية بهذا الزعم الباطل: من يملك من أمر الله وإرادته شيئاً يدفع به الهلاك والإعدام عن المسيح وأمه، وعن سائر أهل الأرض إن أراد ﷻ أن يهلكهم ويبيدهم؟!

يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ١٧].

أي: لو أراد ذلك فمن الذي كان يمنعه منه ومن ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟!

---

(١) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ٦٢؛ و«تفسير القرطبي» ٦/ ٢٥١.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتجهيل؛ أي: أن المسيح وأمه من المخلوقات التي هي قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها كسائر أهل الأرض، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعاً لا يوجد أحد يستطيع أن يرد إرادته؛ لأنه هو المالك لأمر الوجود كله[(١)].

فإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك أو عن والدته كما أنه لا يستطيع غيره أن يدفعه عنه إذا أراد الله تعالى إنزاله به، فكيف يكون هو الله بيده ملكوت كل شيء؟!

فمن حق من يكون إلهاً أن لا يتعلق به ولا بشأن من شؤونه بل بشيء من الموجودات قدرة غيره، فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه.

فلما كان عجزه بيّناً لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل عما يقولون فيه[(٢)].

وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه الألوهية في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره تعالى وملكوته سبحانه.

وقيل: وصفه بذلك للتنبيه على أنه حادث تعلّقت به القدرة بلا شبهة لأنه تولد من أم.

وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف لزيادة تأكيد عجز المسيح، ولعل نظمها في سلك من فرض إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجاً لحال بقية من فرض إهلاكه، والمعنى: أن من اشتمل عليه رحم

---

(١) راجع: «تفسير القرآن العظيم» ٢/ ٣٤؛ و«تفسير المنار» ٦/ ٣١٠.

(٢) راجع: «تفسير المنار» ٦/ ٣١٠ ـ ٣١١؛ «روح المعاني» ٦/ ٩٩.

الأمومية متى يفارقه نقص البشرية، ومن لاحت عليه شواهد الحدثية أنى يليق به نعت الربوبية؟!

ونفي المالكية المذكورة بالاستفهام الإنكاري عن كل أحد من تحقق الإلزام والتبكيت بنفيها عن المسيح فقط بأن يقال: فهل يملك شيئاً من الله إن أراد أن يهلكه، لتحقيق الحق بنفي الألوهية عن كل ما عداه سبحانه، وإثبات المطلوب في ضمنه بالطريق البرهاني، فإن انتفاء المالكية المستلزم لاستحالة الألوهية متى ظهر بالنسبة إلى الكل ظهر بالنسبة إلى المسيح على أبلغ وجه وآكده فيظهر استحالة ألوهيته قطعاً.

والعلة في تعميم إرادة الإهلاك رغم حصول الغرض بقصرها على عيسى عليه الصلاة والسلام هي تهويل الخطب وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره وملكوته تعالى لا يقدر على دفع ما أريد به فضلاً عما أريد بغيره.

وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك، كما أنه أسوة لهم في العجز، وعدم استحقاق الألوهية والربوبية[1].

وهكذا تبيّن لنا ثبوت بشرية المسيح عليه السلام من خلال نصوص أناجيلهم المعتمدة عليهم، واستخدام القرآن الكريم لهذه البشرية الثابتة بالواقع وما يصاحبها من أعراض وأوصاف في إبطال زعمهم ونقض قولهم بألوهيته عليه السلام.

وإذا كانت بشرية المسيح تنفي زعمهم القول بألوهيته، فإنه كان لا بد من التأكيد على بشرية نبينا محمد ﷺ حتى لا يقع فيه المسلمون بمثل ما وقع النصارى في عيسى ابن مريم.

---

(١) راجع: «البحر المحيط» ٣/ ٤٤٩؛ «تفسير النسفي» ١/ ٢٧٧؛ و«تفسير أبي السعود» ٢/ ١٤، ١٥.

المبحث الثاني

التأكيد على بشرية النبي محمد ﷺ

في هذا المبحث الأخير نريد أن نبين هنا علة توكيد الإسلام مراراً وتكراراً على بشرية نبينا محمد ﷺ، ليتأكد لنا ضرورية البشرية للرسول حتى تكتمل الرسالة وتتحقق النبوة، وذلك بعد أن بيّنا أن بشرية المسيح في الأناجيل النصرانية وفي القرآن الكريم تنفي بكل جلاء، بل تنسف بكل ما فيها من قوة زعم النصارى ألوهيته.

فالذي يقرأ آيات القرآن الكريم، أو يتأمل نصوص السُّنة النبوية، ويطلع على أحوال سيرته ﷺ، يقابله ذلك التوكيد بأساليب شتى، حيث تظهر له بشرية النبي عليه الصلاة والسلام واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض؛ خالصة نقية لا شائبة فيها من تلك الشوائب التي علقت بالأديان السابقة.

فقد بعث الله سبحانه رسله وأنبياءه وأرسلهم إلى البشر لهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ولكن كثيراً من الناس أفرطوا في وصفهم وغلوا في تعظيمهم فرفعوهم من منزلة الرسل والأنبياء إلى منزلة الإله المعبود أو إلى منزلة شبيهة بذلك(١).

ذلك أن انحرافات كثيرة في التصور الاعتقادي جاءت لأهل

---

(١) وإنك لترى في هياكل الشام وبابل ومصر تماثيل الكهنة والأحبار تمثل الله ﷻ وتنتحل بعض صفاته، وكذلك الهنادك جعلوا الأنبياء المبعوثين فيهم بالهداية والحكمة آلهة متجسدة، وكذلك فعل أتباع بوذا والجينيون بصلحاء ملتهم وهداة نحلتهم فاتخذوهم أرباباً. راجع تفصيل ذلك في: كتاب «الرسالة المحمدية» ص٢٢٦، للسيد سليمان الندوي؛ وانظر أيضاً: الفصل الخاص بالأديان الوثنية التي اختلط بها اليهود في: كتابي «تأثر اليهودية بالأديان الوثنية»، دار البشير بطنطا ١٩٩٤م. والطبعة الجديدة: دار الآفاق العربية، القاهرة ٢٠١١م.

الكتاب من قبل من جراء الخلط بين طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ـ وذلك كما بيّنا في المبحث السابق في العقائد النصرانية ـ حيث خلعت على عيسى عليه السلام خصائص الألوهية والربوبية ودخل أتباع شتى الكنائس في متاهة من الخلافات العقدية والمذهبية بسبب ذلك الخلط المنافي للحقيقة:

يذكر الدكتور نظمي لوقا أن هذا الخلط قد أدى إلى فتنة بل إلى فتن بين صفوف أتباع المسيح والمنتسبين إليه حيث جمعت المجامع، ووقعت المذابح، وصار الإيمان سبيلاً إلى اللدد والفرقة، لا إلى الألفة واجتماع العقول والقلوب على عقيدة يطمئن إليها الجميع[(١)].

ولم تكن عقائد النصارى وحدهم هي التي دخلت في تلك المتاهة فقد خبطت شتى الوثنيات في ذلك التيه، وتصورت للنبوة صفات غامضة، بعضها يصل بين النبوة والسحر، وبعضها يصل بين النبوة والتنبؤات الكشفية! وبعضها يصل بين النبوة والجن والأرواح الخفية[(٢)].

وشاعت في هذه الجاهليات المتنوعة صور من «النبوءات» الزائفة، يدعيها «متنبئون» ويصدقها مخدوعون، ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون! حيث يدّعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب، والاتصال بالجن والأرواح وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ، أو بالدعوات والصلوات أو بغيرها من الوسائل والأساليب، وتتفق كلها في الوهم والضلالة، وتختلف بعد ذلك في النوع والشكل والمراسم والأساليب.

(١) «محمد: الرسالة والرسول» ص٦٦، ٦٧.

(٢) راجع: «في ظلال القرآن» ١٣/ ٢٠٦٩.

يذكر الأستاذ عباس العقاد أن القرآن الكريم قد أحصى النبوءات الغابرة بأنواعها فلم يدع منها واحداً يعرفه اليوم أصحاب المقارنة بين الأديان، ومن تلك الأنواع نبوءة السحر، ونبوءة الكهانة، ونبوءة الجذب والجنون، ونبوءة التنجيم وطوالع الأفلاك، وكلها مما يدّعيه المتنبئون ويدعون معه العلم بالغيب والقدرة على تسخير نواميس الطبيعة، ولكنها على اتفاقها في هذه الدعوة تختلف بمصادرها ونظرة الناس إليها أيما اختلاف[1].

وعبثت التصورات الوثنية بالرسالات والرسل حتى ابتعدت بها عن حقيقة الرسالة والنبوة، وطبيعة الرسول والوحي، ودخلت بها في خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل، حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضاً، وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب وأن يأتي بالخوارق، وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر! فقد اعتقد الناس فيهم أنهم يعلمون الغيب، ويتصرفون في أمور الأرض، فيوسعون على الناس الرزق، ويقضون الحاجات بقوة غيبية إلهية.

فلما جاء الإسلام قام بتخليص صورة النبوة والنبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل التي شاعت في الجاهليات كلها، وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم، وكلها تشترك في تشويه

---

(١) راجع تفصيل هذه النبوءات وأحوالها في كتابه «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» ص٦١ ـ ٧٣. وانظر: «الظلال» ٧/ ١٠٩٥ ـ ١٠٩٧؛ و«مقدمة ابن خلدون» ١/ ٣٥٧ ـ ٣٦٤.

والمقصود من إحصاء القرآن الكريم لهذه النبوءات كما ذكر العقاد أنه نفاها عن النبي ﷺ كما سنبين ذلك.

صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه[1].

يذكر الأستاذ العقاد أن رسالة الإسلام قد برئت من شوائب النبوة الغليظة التي لصقت بها في عقائد الأقدمين من أتباع الديانات الوثنية والديانات الكتابية، وخلصت من بقايا السحر والكهانة، كما خلصت من شعوذة الإيهام الخيالي وبدوات الجنون الذي كانوا يسمونه قديماً بالجنون المقدس، لاعتقادهم أن المصابين به يخلطون هذيانهم بوحي الأرواح العلوية التي تستولي عليهم.

ويذكر أيضاً أنها كانت بمثابة تنقية للنبوءات السابقة، وتطهيراً من كل ما لصق بها من بقايا الكهانات والادعاءات.

وانتهى إلى أن النبوة في الإسلام تعد مصححة ومتممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة، كما كانت عقيدة الإسلام الإلهية مصححة ومتممة لكل ما تقدمها من عقائد بني الإنسان في الإله[2].

بشرية النبي ﷺ ورسالته في القرآن الكريم:

هذا ولم تكن براءة النبوة الإسلامية من هذه الشوائب عرضاً مسوقاً في أطواء العقيدة بغير قصد ولا بيّنة، بل كان وصف النبوة على هذه الصفة المطهرة فريضة مكتوبة على المسلم يعلمها من نصوص كتابه ويؤمن بها إيمانه برسالة نبيه ﷺ.

يذكر الدكتور نظمي لوقا أنه لا تأليه ولا شبهة تأليه في معنى النبوة الإسلامية، فما أقرب الناس لو تركوا لأنفسهم أن يعتقدوا في الرسول أو

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير المنار» ٨/ ٢٤٤، ٢٤٥؛ و«في ظلال القرآن» ٧/ ١٠٩٤؛ «الرسالة المحمدية» ص٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) انظر كتابه: «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» ص٥٨ ـ ٦١؛ وكتابه «مطلع النور» أو «طوالع البعثة المحمدية» ص١٢٥ ـ ١٢٧.

النبي أنه ليس بشراً كسائر البشر، وأن له صفة من صفات الألوهية على نحو من الأنحاء.

ولذا نجد توكيد هذا التنبيه على بشرية الرسول متواتراً مكرراً في آيات القرآن الكريم، بالإضافة إلى أن توكيد القيمة البشرية بحدودها للرسول ليس بلفظ الآيات فحسب، بل هو معنى تنطق به كيفية الرسالة كلها وتاريخ الرسول كله(١).

فقد جاء القرآن الكريم ليجلي الحقيقة كاملة عن طبيعة النبوة والنبي وطبيعة الرسالة والرسول، وبيّن الله سبحانه في كثير من الآيات والسور التي تتحدث عن الأنبياء بطلان ما شاع قبل الإسلام بين الوثنيين، وأهل الكتاب، وخلص العقول والأفكار من رواسب الوثنيات والأساطير التي أفسدت العقائد وخربت العقول.

فالأنبياء والرسل عباد لله، وليسوا أشباهه، ولا أنداداً له، وليسوا أبناء الله ولا أقرباءه، إن هم إلا بشرٌ بعثوا إلى البشر، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء، وليسوا على اتصال بعوالم الجن والخفاء المسحور!

كل ما يمتاز به الرسل على غيرهم من البشر، أن الله سبحانه ميزهم بالوحي وعصمهم من الخطأ في تبليغ ما أمرهم بتبليغه قولاً وعملاً، ومما يحول دون التأسي بهم.

فليس لهم وراء الوحي شيء من القدرة على الخوارق إلا بإذن الله حين يشاء(٢).

---

(١) راجع: «محمد: الرسالة والرسول» ص٨٥ ـ ٨٧؛ عباس العقاد «حقائق الإسلام» ص٥٨.

(٢) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير المنار» ٨/ ٢٤٥؛ «الوحي المحمدي» ص١٧٣؛ «الرسالة المحمدية» ص٢٢٧؛ «في ظلال القرآن» ١٣/ ٢٠٦٩ ـ ٢٠٧١.

ولذلك ورد التأكيد على البشرية مصحوباً بالرسالة والنبوة والوحي.

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ هذه في آخر سورة الكهف.

وفي أول سورة فصلت: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

وحينما كانوا يطلبون منه نزول الآيات، ويتعنتون في طلب المقترحات كان الجواب عليهم حسبما أمره ربه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

ومن الواضح أن كفار مكة قد طالبوا بهذه المقترحات المذكورة عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالإعجاز التنزيلي وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن في العادة وجوده، ولا تقتضي الحكمة وقوعه من الأمور كما هو ديدن المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة.

فقد قصر إدراكهم عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية[١] فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة

(١) فقد وردت هذه الآيات بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

العقلية، ويتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج.

وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات التي طلبوها إلا العناد واللجاج، ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات ما زادهم ذلك إلا مكابرة، وإلا فقد كان يكفيهم ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال(١).

ولذلك فإن ابن كثير يذكر أن هذا المجلس الذي اجتمع له هؤلاء القرشيون وطلبوا فيه هذه المطالب، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم يطلبون ذلك كفراً وعناداً فقيل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال: بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة(٢).

ولذلك فإن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ أن يجيب على طلبهم هذه المقترحات بجواب قاطع وحاسم حيث بيّن لهم أنه ليس إلا بشراً رسولاً يقف عند حدود بشريته ويعمل وفق تكاليف رسالته، لا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه، فالرسالة لا تخرج الرسول عن طور البشر في صفاتهم البشرية، حيث لا يستطيعون إيجاد شيء مما يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه غير الخالق سبحانه.

---

(١) راجع: «الكشاف» ٢/ ٦٩٣، ٦٩٤؛ «تفسير أبي السعود» ٣/ ٢٣٢؛ «في ظلال القرآن» ١٥/ ٢٢٥٠، ٢٢٥١.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ٦٣. وقد أورد ابن كثير عدداً من الروايات في هذا الشأن وذكر منها سبب نزوله قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.. راجع ٣/ ٤٧ ـ ٤٨؛ راجع أيضاً: «الطبري» ١٥/ ٧٤ ـ ٧٥؛ «الكشاف» ٢/ ٦٧٤؛ «الرازي» ٢٠/ ٢٣٤؛ «تفسير أبي السعود» ٣/ ٢٢٢؛ «الدر المنثور» للسيوطي ١٥/ ٣٠٦، ٣٠٧؛ «منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب» للشيخ عبد العزيز بن حمد ص٢٢٦ ـ ٢٣٢.

قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

ومعناه: قل: تعجباً من شدة شكيمتهم وفرط حماقتهم ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أو قل ذلك تنزيهاً لساحة الجلال عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات التي تضمنت ما هو من أعظم المستحيلات كإتيان الله تعالى على الوجه الذي اقترحوه، وتنبيهاً على بطلان ما قالوه:

هل كنت إلا بشراً (ولست ملكاً) حتى يتصور مني الرقي في السماء، رسولاً؛ أي: مأموراً من قبل ربي بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لي خبرة في الأمر، إن أتبع إلا ما يوحي إليّ ربي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الآيات التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات؟

وكونه بشراً توطئة لذلك رداً لما أنكروه من جواز كون الرسول بشراً ودلالة على أن الرسل عليهم السلام من قبل كانوا كذلك، ولهذا قال الزمخشري: هل كنت إلا رسولاً كسائر الرسل؛ بشراً مثلهم.

فما أنا إلا رسول كسائر الرسل عليهم السلام، وكانوا لا يأتون أقوامهم إلا بما يظهره الله تعالى على أيديهم حسبما تقتضيه الحكمة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه سبحانه، حيث كانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أؤمن حتى أوتىٰ بآية خلاف ما طلب غيري، وهذا يؤول إلى أن يكون التدبير إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله تعالى[1].

---

(١) راجع: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ١٠/٣٣١؛ «تفسير أبي السعود» ٣/٢٣٢ ـ ٢٣٣؛ «روح المعاني» للألوسي ١٥/١٦٩.

وحاصل الكلام أنه سبحانه قد بيّن بهذا الجواب كون هؤلاء على الضلال في الإلهيات وفي النبوات:

أما في الإلهيات فيدل على ضلالهم قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾؛ أي: سبحانه عن أن يكون له إتيان ومجيء وذهاب بمثل ما طلبوا.

وأما في النبوات فيدل على ضلالهم قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ وتقرير ذلك ـ كما يذكر الرازي ـ أن يقال:

إما أن يكون مرادكم من هذه المقترحات أنكم طلبتم الإتيان بها من عند نفسي، وإما أن تطلبوا مني أن أقترحها على الله سبحانه فأطلب منه تعالى إظهارها على يدي لتدل على كوني رسولاً حقاً من عند الله.

والأول: باطل لأني بشر، والبشر لا قدرة لهم على الإتيان بتحقيق هذه المقترحات.

والثاني أيضاً: باطل لأني قد أتيتكم من عند الله بمعجزة القرآن الكريم، وهو وحده كاف في إثبات نبوتي.

معنى ذلك: أن طلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة إليه ولا ضرورة له، فكأن طلبها يجري مجرى التعنت والتحكم، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على الله، فسقط هذا السؤال، فثبت بذلك أن قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ جواب كاف في هذا الباب[1].

وحينما كانوا يطالبونه بالتنبؤ بالغيب تارة، وبالتأثير في النواميس الكونية عن طريق الكهانة أو طريق السحر تارة أخرى جاءت التقريرات المكررة في القرآن الكريم لتؤكد طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول.

ومن هذه التقريرات أن الله سبحانه أمر رسوله ﷺ أن يقدم لهم نفسه بشراً مجرداً من كل الأوهام والأساطير التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي

---

(١) راجع: «التفسير الكبير» ٢١/٥٩؛ و«تفسير القرطبي» ١٠/٣٣١.

والنبوة والتي كانت بمثابة المعين الذي يغترف منه المشركون مقترحاتهم.

فأمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يعلن لهم أنه لا يملك خزائن الله، ولا يقعد عليها ليغدق على من يتبعه، ولا يملك مفاتيح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن، ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكاً؛ إنما هو بشر ورسول(١) يقول تعالى:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

أي: قل يا أيها الرسول ـ الذي لم يبعث إلا كما بعث غيره من الرسل مبشراً من أجاب دعوته بحسن الثواب ومنذراً من ردها سوء العقاب ـ لهؤلاء الكفار المنكرين نبوتك المشاغبين لك بغير علم يميزون به بين شؤون الألوهية وحقيقة الرسالة، الذين يقترحون عليك من الآيات الكونية ما يعلمون أن البشر لا يقدرون عليه؛ لأنهم ـ وإن قالوه تعجيزاً ـ يتوهَّمون أن الرجل من البشر لا يكون رسولاً إلا أن يخرج من حقيقة البشرية، ويصير إلهاً قادراً على ما لا يقدر عليه البشر، وعالماً بكلِّ ما يَعجز عن علمه البشر، وإن لم يكن من موضوع الرسالة التي عهد إليه أمر تبليغها، أو يصير مَلكاً من الملائكة في متعلق قدرته ومتناول علمه؛ لأن أمر الرسالة في خيالهم ينافي البشرية التي حقرها في أنفسهم جهلُهم وسوء حالِهم وفساد أعمالهم(٢).

يرى الإمام الرازي أن هذه الآية من بقية الكلام على قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حيث قال الله تعالى: «قل لهؤلاء الأقوام إنما بعثت مبشراً ومنذراً وليس لي أن أتحكم على الله تعالى»،

---

(١) راجع: «تفسير المنار» ٨/ ٢٤٤، ٢٤٥؛ «في ظلال القرآن» ٧/ ١٠٩٥، و١٣/ ٢٠٧٠؛ محمد عزة دروزة: «عصر النبي ﷺ وبيئته» ص٦٨٦.

(٢) راجع: «تفسير الطبري» ٧/ ١٢٦؛ «الكشاف» ٢/ ٢٥؛ «تفسير أبي السعود» ٢/ ١٠١؛ «تفسير المنار» ٧/ ٣٥٢.

وأمره الله سبحانه أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة[1]:

* **الأمر الأول: قوله:** ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾:

وكان القوم يقولون له: إن كنت رسولاً من عند الله، فاطلب من الله حتى يوسع علينا من منافع الدنيا وخيراتها، ويفتح علينا أبواب سعادتها. فأمره الله تعالى أن يقول لهم: لا أقول لكم عندي خزائن الله حتى أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات.

ولا أدعي أن خزائن مقدوراته تعالى مفوضة إليّ حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات أو إنزال العذاب أو قلب الجبال ذهباً أو غير ذلك مما لا يليق بشأن الرسول ولا هو من موضوع الرسالة[2].

* **الأمر الثاني:** ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾:

ومعناه: أن القوم كانوا يقولون له: إن كنت رسولاً من عند الله فلا بد وأن تخبرنا عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار حتى نستعد لتحصيل تلك المصالح ولدفع تلك المضار.

فهم إن كانوا في المقام الأول يطلبون منه الأموال الكثيرة والخيرات الواسعة فإنهم في هذا المقام طلبوا منه الإخبار عن الغيوب ليتوسلوا بمعرفة تلك الغيوب إلى الفوز بالمنافع والاجتناب عن المضار والمفاسد فأمره الله تعالى أن يخبرهم بأنه لا يعلم الغيب[3].

والغيب قسمان:

الأول: غيب حقيقي مطلق: وهو ما غاب علمه عن جميع الخلائق حتى الملائكة، وفيه يقول تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

---

(١) «مفاتيح الغيب» ١٢/ ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق و«تفسير أبي السعود» ٢/ ١٠١؛ و«الكشاف» ٢/ ٢٥؛ و«تفسير المنار» ٧/ ٣٥٢.

(٣) «التفسير الكبير» للرازي ١٢/ ٢٣٠.

الثاني: غيب إضافي: وهو ما غاب علمه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر مثلاً، وكالغيب الذي يطلق الله للرسل الوارد في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧][1].

ومن الغيب الحقيقي المطلق الذي استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه: علم الساعة.

فقد سأل المشركون رسول الله ﷺ عنها استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها.

والرسول ﷺ بشر لا يدّعي علم الغيب مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه، وأن يعلمهم أنه من خصائص الألوهية، وأنه هو بشر لا يدّعي شيئاً خارج بشريته، ولا يتعدّى حدودها، إنما يعلمه ربه ويوحي إليه ما شاء: ولذلك فإن الله سبحانه أمره أن يبلغهم أن علم الساعة عند ربه، فهو سبحانه مختص بعلمها، وأنه وحده هو الذي يعلم جلية أمرها، حيث ثقل علمها في السماوات والأرض.

يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لكونه حصراً حقيقياً وإبطال لظن الذين يحسبون أن شأن الرسل أن يكونوا عالمين بكل مجهول ومن ذلك وقت الساعة بالنسبة إلى أوقاتهم يستطيعون إعلام الناس، فيستدلون بعدم علم الساعة على عدم صدق مدّعي الرسالة، وهذا الاعتقاد ضلالة ملازمة للعقول الآفنة، فإنها تتوهم الحقائق على غير ما هي عليه، وتوقن بما

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير المنار» ٧/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥.

يخيل إليها وتجعله أصولاً تبني عليها معارفها ومعاملاتها[(١)].

قوله: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾:

ومن اللوازم الدالة على عدم معرفة الرسول ﷺ للغيب المطلق أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما مسه السوء.

ولذلك فإن الله سبحانه، بعد أن أمره في الآية المشار إليها آنفاً أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله وحده، أمره في الآية التالية مباشرة أن يبين للناس أن كل الأمور بيد الله تعالى وحده، وأن علم الغيب كله عنده، وأن ينفي كلاً منهما عن نفسه ﷺ.

فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨][(٢)].

يذكر الرازي أن القوم لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب وطالبوه بإعطاء الأموال الكثيرة ذكر أن قدرته قاصرة وعلمه قليل، وبيّن أن كل من كان عبداً كان كذلك، والقدرة الكاملة والعلم المحيط ليسا إلا لله تعالى، فكيف يحصل العبد على هذه القدرة وهذا العلم[(٣)].

وكان الناس قد فتنوا منذ قوم نوح عليه السلام بمن اصطفاهم الله ووفقهم لطاعته وولايته؛ من الأنبياء ومن دونهم من الصالحين، فجعلوهم

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير ابن كثير» ٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٣؛ «تفسير المنار» ٩/ ٣٨٦ ـ ٣٩٣؛ «التحرير والتنوير» الكتاب الثاني ٩/ ٢٠٦؛ «في ظلال القرآن» ٩/ ١٤٠٩.

(٢) راجع: «تفسير المنار» ٩/ ٤٢٣، ٤٢٤.

(٣) «مفاتيح الغيب» ١٥/ ٨٣.

شركاء لله تعالى فيما يرجوه عباده من نفع يسوقه إليهم وما يخشونه من شر يمسهم، فيدعونه ليكشفه عنهم، وصاروا يدعونهم كما يدعونه لذلك إما استقلالاً وإما إشراكاً.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: ٣].

فلما كان ملك الضر والنفع بهذا الإطلاق خاصاً برب العباد، وخالقهم، وكان طلب النفع أو كشف الضر عبادة لا يجوز أن توجه إلى غيره من عباده مهما يكن فضله تعالى عظيماً عليهم، أمر الله رسوله ﷺ أن يصرح بالبلاغ عنه أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، وقد تكرر هذا الأمر له في القرآن مبالغة في تقريره وتوكيده(١).

فقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ارتقاء في التبرؤ من معرفة الغيب ومن التصرف في العالم، وزيادة من التعليم للأمة بشيء من حقيقة الرسالة والنبوة، وتمييز ما هو من خصائصها عما ليس منها.

والجملة مستأنفة ابتدائية، قصد من استينافها الاهتمام بمضمونها، كي تتوجه الأسماع إليها، ولذلك أعيد الأمر بالقول مع تقدمه مرتين في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ... قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] للاهتمام باستقلال المقول، وأن لا يندرج في جملة المقول المحكي قبله، وخص هذا المقول بالإخبار عن حال الرسول عليه الصلاة والسلام نحو معرفة الغيب ليقلع من عقول المشركين توهّم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوة، إعلاناً للمشركين بالتزام أنه لا يعلم الغيب، وأن ذلك ليس بطاعن في نبوته حتى ييستيئسوا من تحديه بذلك، وإعلاماً للمسلمين بالتمييز بين ما تقتضيه النبوة وما لا تقتضيه، ولذلك نفى عن نفسه معرفة أحواله المغيّبة،

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: «تفسير المنار» ٩/ ٤٢٤ ـ ٤٢٦.

فضلاً على معرفة المغيبات من أحوال غيره إلا ما شاء الله[1].

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾: هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب؛ أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما للمماليك والعبيد إلا ما شاء لي ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني[2].

قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾:

ثم أمره تعالى أن ينفي عن نفسه علم الغيب مستدلاً عليه ومحتجاً بانتفاء أظهر منافعه القريبة فقال: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾.

والمعنى المراد: ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من تحصيل الخير، ولاحترزت عن الشر حتى صرت بحيث لا يمسني سوء[3].

يقول الزمخشري: ولو كنت أعلم الغيب لكانت حالي على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير واستعزاز المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسني شيء منها ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب ورابحاً وخاسراً في التجارات ومصيباً ومخطئاً في التدابير[4].

فالاستدلال على انتفاء الاستكثار من الخير وتجنب السوء هو استدلال بأخص ما لو علم المرء الغيب لعلمه أول ما يعلم وهو الغيب الذي يهم نفسه، ولأن الله سبحانه لو أراد إطلاعه على الغيب لكان القصد من ذلك إكرام الرسول ﷺ فيكون إطلاعه على ما فيه راحته أول ما ينبغي إطلاعه عليه، فإذا انتفى ذلك كان انتفاء غيره أولى[5].

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» الكتاب الثاني ٩/ ٢٠٧.
(٢) «الكشاف» ٢/ ١٨٥.
(٣) راجع: «تفسير الطبري» ٩/ ٩٧؛ «مفاتيح الغيب» ١٥/ ٨٥؛ و«تفسير المنار» ٩/ ٤٢٦.
(٤) «الكشاف» ٢/ ١٨٥.
(٥) «التحرير والتنوير» الكتاب الثاني ٩/ ٢٠٨، الدار التونسية للنشر ١٩٧٢م.

قوله: ﴿إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

ولما كان السامعون يتوهمون أن ما نفاه عن نفسه هو أخص صفات النبي فمن شأنهم أن يتعجبوا من نفيه ذلك عن نفسه وهو يقول إنه رسول الله إليهم، ويسألوا عن علمه ما هو، بعد أن نفى عنه ما نفى، فبيّن لهم ضمن تمام القول المأمور به أن الرسالة منحصرة في النذارة على المفاسد وعواقبها، والبشارة بعواقب الانتهاء عنها واكتساب الخيرات، فقال تعالى: ﴿إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة، شأني حيازة ما يتعلق بهما من العلوم الدينية والدنيوية، لا الوقوف على الغيوب التي لا علاقة بينها وبين الأحكام والشرائع[1].

وبهذا الإعلان الواضح تتم لعقيدة التوحيد في الإسلام كل خصائص التجريد المطلق، من الشرك في أية صورة من صوره، وتنفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها البشر في شيء منها ولو كان هذا البشر محمداً رسول الله وحبيبه ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه، فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية، ويقف العلم البشري، وعند حدود البشرية يقف شخص رسول الله ﷺ وتتحدد وظيفته بالإنذار والتبشير.

ولذلك فإن هذه الآية الكريمة تعد من أعظم أصول الدين، وقواعد عقائده؛ ببيانها لحقيقة الرسالة، والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية، وهدمها لقواعد الشرك، ومباني الوثنية من أساسها[2].

وبذلك فإنه قد علم مما تقرر من نفي الرسول ﷺ هذين الأمرين: الأول والثاني عن نفسه، أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يعطوا علم

---

(١) راجع: «إرشاد العقل السليم» ٢/ ٢١٨؛ «روح المعاني» ٩/ ١٣٧؛ و«التحرير والتنوير» الكتاب الثاني ٩/ ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) انظر: «تفسير المنار» ٩/ ٤٢٣؛ و«الظلال» ٩/ ٢٤١٠؛ و«حقائق الإسلام» ص٦٠، ٦١.

الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم الكسبية، كما أنهم لم يعطوا قوة التصرف في خزائن ملك الله.

ونفي ادعاء الرسول لكل من الأمرين يتضمن أيضاً التبرؤ من ادعاء الإلهية، أو ادعاء شيء من صفات الإله.

كذلك فإن هذا النفي يتضمن بيان جهل المشركين بحقيقة الإلهية وحقيقة الرسالة.

يذكر الإمام الرازي أن المراد من قوله: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ معناه: إني لا أدّعي كوني موصوفاً بالقدرة اللائقة بالله تعالى، ومن قوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾؛ أي: ولا أدّعي كوني موصوفاً بعلم الله تعالى، وبمجموع هذين الكلامين حصل أنه لا يدّعي الإلهية[1].

* **الأمر الثالث: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾:**

ومعناه: أن القوم كانوا يقولون «ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج ويخالط الناس» فقال الله تعالى: «قل لهم إني لست من الملائكة حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيق به البشر من الرقي في السماء ونحوه، أو تعدوا عدم اتصافي بصفات الملائكة قادحاً في أمري»[2].

ومن أسرار البلاغة في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ أنه أعاد فيه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ولم يعدها في نفي علم الغيب.

ونكتة ذلك: أن نفي علم الغيب ونفي التصرف في خزائن الله يؤلفان التبرؤ من دعوى واحدة، هي: دعوى الصفات الخاصة بالله تعالى.

وأما نفي ادعاء الملكية فهو شيء آخر، فأعيد العامل لإفادة ذلك،

---

(١) راجع: «تفسير الرازي» ١٢/ ٢٣١؛ «تفسير المنار» ٧/ ٣٥٥.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ٢٣٠؛ «إرشاد العقل السليم» ٢/ ١٠١؛ و«روح المعاني» ٧/ ١٥٥.

كأنه قال: إنني لا أدّعي صفات الإله حتى تطلبوا مني ما لا يقدر عليه أو ما لا يعلمه إلا الله.

ولا أدّعي أني ملك ـ وهو دون ما قبله ـ حتى تطلبوا مني ما جعله الله في قدرة الملائكة ولم يجعله من مقدور البشر، بل ادعيت أني عبد الله ورسوله، وإنما وظيفة العبد الطاعة، ووظيفة الرسول التبليغ(١).

وهذا هو ما يعنيه كل من الزمخشري والرازي حينما يذكران نفي المَلَكية في قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ عقب ما سبق؛ يعني: قول النبي ﷺ: إنني لم أدع إلهية ولا ملكية لأنه ليس بعد الإلهية درجة أعلى ولا منزلة أرفع من منزلة الملائكة، فصار حاصل الكلام كأنه يقول: لا أدّعي الإلهية ولا أدّعي الملكية ولكني أدّعي الرسالة والنبوة، وهذا منصب لا يمتنع حصوله للبشر فكيف أطبقتم على استنكار قولي ودفع دعواي(٢).

والخلاصة: أن نفي النبي ﷺ هذه الأحوال الثلاثة عن نفسه يراد منه بالدرجة الأولى أن يظهر من نفسه التواضع لله والخضوع له والاعتراف بعبوديته حتى لا يعتقد فيه الناس مثل اعتقاد النصارى في المسيح عليه السلام وأنه لا يدّعي إلا الرسالة والنبوة.

وهو ما يعنيه قوله ﷺ حسبما أمره الله عقب نفيه عن نفسه هذه الأحوال الثلاثة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: ما أفعل من حيث أنا عبدٌ رسولٌ إلا اتباع ما يوحيه إليَّ من أرسلني؛ من تبليغ دينه بالتبشير والإنذار والعمل به، من غير أن يكون لي مدخل ما في الوحي أو في الموحى بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلاً.

وحاصله أنني عبد يمتثل أمر مولاه ويتبع ما أوحاه، ولا أدّعي شيئاً من تلك الأشياء، حتى تقترحوا عليّ ما هو من آثارها وأحكامها، وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة ما أدّعيه من الرسالة.

---

(١) راجع: «تفسير المنار» ٧/ ٣٥٥، ٣٥٦.

(٢) راجع: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ٢٣١؛ و«الكشاف» ٢/ ٢٥؛ و«تفسير الطبري» ٧/ ١٢٦.

ولا يخفى أن هذا أبلغ من قوله: «إني نبي أو رسول» ولذا عدل إليه[1].

والنبي ﷺ في نفيه هذه الأمور الثلاثة عن نفسه، وإعلانه أنه ما هو إلا رسول، إنما هو في ذلك شأنه شأن إخوانه من الأنبياء والرسل، فقد قالها نوح لقومه من قبل؛ يقول تعالى ـ عنه ـ في سورة هود: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] ولذلك يقول تعالى له:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

يذكر الإمام ابن تيمية أن قوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾[2] نفي لعلمه بجميع ما يفعل به وبهم، فليس من شرط الرسول أن يعلم كل ما يكون فإن هذا لا يعلمه إلا تبارك وتعالى.

بالإضافة إلى أنه يتضمن اعتراف النبي ﷺ بأنه عبد الله ورسول من الله لا يتعدى حد الرسالة ولا يدّعي المشاركة في الألوهية كما ادعته النصارى في المسيح عليه السلام وهذا من كمال صدقه وعدله، وعبوديته لله، وطاعته، وتمييز ما يستحقه الخالق وحده مما يستحقه العبد، فإن العلم بعواقب الأمور على وجه التفصيل مما استأثر الله بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل[3].

---

(١) انظر: «مفاتيح الغيب» ١٢/ ٢٣١؛ و«إرشاد العقل السليم» ٢/ ١٠١؛ و«روح المعاني» ٧/ ١٥٦؛ و«تفسير المنار» ٧/ ٣٥٦.

(٢) حمل أكثر العلماء قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ على أحوال الدنيا واستبعدوا حمله على الآخرة؛ لأن هذا هو اللائق بالنبي ﷺ كما ذكره ابن كثير واختاره وعوّل عليه ابن جرير. راجع تفصيل ذلك في: «تفسير الطبري» ٢٦/ ٥، ٦؛ «ابن كثير» ٤/ ١٥٥؛ «مفاتيح الغيب» ٢٨/ ٨؛ «الجواب الصحيح» ٢/ ٧٩ ـ ٨١.

(٣) «الجواب الصحيح» ٣/ ١٥٧ ـ ١٦٠، الطبعة المحققة ١٤١٤هـ.

وصف النبي ﷺ بالعبودية في كثير من آي القرآن:

بالرجوع إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن نجد أن الله سبحانه قد وصف رسوله ﷺ بالعبودية في كثير من آياته.

فقد ذكره مرة واحدة يصفه بالعبودية المجردة ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ١٠] وفي بقية المرات ينسبه إلى ذاته فيضيفه إلى لفظ الجلالة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، أو يضيفه إليه سبحانه بضمير المتكلم أو الغائب: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١] إلى غير ذلك من الآيات.

ووصفه الله سبحانه بالعبودية في أشرف المقامات؛ منها ما ورد في ذكر الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١٠]، وفي ذكر المعراج ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠][1].

وإيثار لفظ «العبد» للإيذان بتمحضه ﷺ في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غاية الغايات القصية، ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الإسراء ومنتهاه.

والعبودية ـ على ما نص عليه العارفون ـ أشرف الأوصاف وأعلى المراتب وبها يفتخر المحبون، ولو كان للنبي ﷺ اسم أشرف من قوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ لسماه به في تلك الحالة العلية، لكنه لما وصل إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة أوحى الله تعالى إليه بمَ نشرفك؟ قال: بنسبتي

(١) بعد قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ وقد فسّر الرازي القوس هنا بالبعد وأراد به البعد النوعي الذي كان للنبي ﷺ، فإنه على كل حال كان بشراً وجبريل كان على كل حال ملكاً، فالنبي ﷺ قد زال عنه كثير من الصفات فارتفع حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية، ولعل هذا هو سر التعبير بالعبودية ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾. راجع: «مفاتيح الغيب» ٢٨/ ٢٨٧.

إليك بالعبودية، فأنزل الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾. ويقول القشيري: لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية، وأرقاه فوق الكواكب العلية ألزمه اسم العبودية تواضعاً للأمة.

ويذكر الإمام الألوسي أن في التعبير بقوله: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ هنا دون حبيبه مثلاً سداً لباب الغلو فيه كما وقع للنصارى في نبيهم عليه السلام[1].

وإيثار صفة العبودية في مقام الإسراء والعروج إلى الدرجات التي لم يبلغها بشر لتقريرها وتوكيدها، وذلك كي لا تنسى هذه الصفة، ولا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية كما التبسا في العقائد النصرانية بعد عيسى عليه السلام بسبب ما لابس مولده ورفعه إلى السماء، وبسبب الآيات التي أعطيت له، فاتخذها بعضهم سبباً للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية. وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة من قريب أو من بعيد[2].

ومن أجل ذلك فقد أخطأ من زعم أن الرسول ﷺ قد تحول إلى الملائكية في رحلة المعراج حتى تجاوز سدرة المنتهى فصار فوق الملائكية؛ لأن جبريل عليه السلام قال له: «**لو تقدمتُ لاحترقت، أما أنت لو تقدمت لاخترقت وما منا إلا له مقام معلوم**».

وهذا أمر خطير في مجال العقيدة الإسلامية في تصويرها للنبوة والرسالة، فليس فوق الملائكية إلا الألوهية، ويستحيل أن يقول مسلم بذلك.

والصحيح في هذا الأمر أن الرسول ﷺ ظل على حاله من البشرية في إسرائه ومعراجه، وارتقى إلى ما ارتقى إليه وهو على ما هو عليه بشراً

---

(١) راجع: «روح المعاني» ١٥/ ٤.
(٢) راجع: «ظلال القرآن» ٥/ ١١.

رسولاً، وخرق الله له قوانين الكون والسماوات، ولم يغير من طبيعته شيئاً، مثلما فعل سبحانه مع الخليل إبراهيم عليه السلام، حيث خرق له قوانين النار فأبطل ما فيها من إحراق، ولم يغير جسده إلى مادة غير قابلة للاشتعال مثلاً، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وهذا أبلغ في الإعجاز.

ومعنى ذلك أن كمال المخلوق يكون دائماً في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية، ازداد كماله، وعلت درجته. وبالعبودية استحق نبينا ﷺ التقديم على الناس في الدنيا والآخرة، ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة، إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء عليهم السلام: «**اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»(١) فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى(٢).

بشرية النبي ﷺ في نصوص السيرة والسُّنة:

وقد بيّن النبي ﷺ بأقواله وأفعاله وأخلاقه هذه العبودية والتواضع لخالقه بما لا يدع لتأويل الآيات السابقة سبيلاً، حتى فطن لذلك بعض علماء الإفرنج فقال:

«إن محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم أن يقولوا: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله»(٣).

فقد كان على علو منصبه ورفعة رتبه أشد الناس تواضعاً، وحسبك

---

(١) قطعة من حديث مطول في الشفاعة أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم.
(٢) انظر تفصيل ذلك في: «شرح العلامة ابن أبي العز لعقيدة الإمام الطحاوي» ١/ ١٣٩، ١٤٠، مؤسسة الرسالة ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
(٣) «الوحي المحمدي» ص١٧٣، ١٧٤.

أنه خُيِّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له، أنك سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق الأرض عنه»[١].

فاشتهر ﷺ بتواضعه للناس وهم أتباع، وخفض جناحه لهم وهو مطاع، يمشي في الأسواق ويجلس على التراب، ويمتزج بأصحابه وجلسائه فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه، فصار بالتواضع متميزاً وبالتذلل متعززاً.

ولقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيبته، وأصابته رعدة، فقال له: «خفض عليك»، أو «هوّن عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»[٢].

وهذا من شرف أخلاقه وكريم شِيَمه فهي غريزة فطر عليها، وجبلة طبع بها لم تندر فتعد ولم تحصر فتحد[٣].

ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته، تواضعاً لله تعالى.

وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس.

يذكر القاضي عياض أنه ﷺ كان في بيته في مهنة أهله يفلي ثوبه (أي: يفتش ثوبه لخرق فيه أو تعلق شيء به من شوك ونحوه) ويحلب

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة ٢/ ٢٣١؛ والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس ٢/ ٣٦٩؛ راجع: «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» للسيوطي ص٧٣.

(٢) رواه ابن ماجه حديث رقم (٣٣٥٥) ٢/ ٢٤٢؛ راجع نصّه في «سننه» تحقيق وفهرسة محمد مصطفى الأعظمي.

(٣) «أعلام النبوة» للماوردي ص٢٨٨.

شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق[1].

ونقل عن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئاً على عصا فقمنا له، فقال: لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضاً.

وقال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

إن ناساً قالوا: يا رسول الله، ويا خيرنا وابن خيرنا، ويا سيدنا وابن سيدنا، فقال رسول الله ﷺ: «**السيد الله**»، قالوا: أنت أفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً، فقال: «**يا أيها الناس عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، إني لا أريد أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله تبارك وتعالى، أنا محمد بن عبد الله، ورسوله**»[3].

ويريد بقوله: «**السيد الله**» أن حقيقة السؤدد لله، وأن الخلق كلهم عبيد له، وإنما منعهم أن يدعوه سيداً، مع قوله: «**أنا سيد ولد آدم**» وقوله يوم كلّم بني قريظة: «**قوموا إلى سيدكم**» يريد سعد بن معاذ من أجل أنهم حديثو عهد بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة هي كأسباب الدنيا، وكان لهم رؤساء يعظمونهم، وينقادون لأمرهم، ويسمونهم «السادات» فعلمهم الثناء عليه، وأرشدهم إلى الأدب في ذلك

---

(١) راجع: «الشفا» ١/ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) أسنده من طريق أبي داود ٥/ ٣٩٨؛ وأخرجه ابن ماجه ٢/ ١٢٦١؛ ورواه مسلم بمعناه. راجع: «مناهل الصفا» للسيوطي ص٧٤؛ وراجع: «الشفا» ١/ ١٦٨.

(٣) رواه أحمد في «المسند» ٣/ ١٥٣، وإسناده صحيح؛ راجع: «جامع الأصول» لابن الأثير ١١/ ٥٠.

فقال: «**قولوا بقولكم**»؛ أي: قولوا بقول أهل دينكم وملتكم وادعوني نبياً ورسولاً كما سماني الله ﷻ في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ولا تسموني سيداً كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم، فإني لست كأحدهم إذ كانوا يسودونكم في أسباب الدنيا، وأنا أسودكم في النبوة والرسالة(١).

وبذلك فقد كان كل همّ رسول الله ﷺ أن يتحقق بالعبودية ويظهر على واقعه عبداً خالص الطاعة والعبودية لله، فإذا انحاز الناس إلى تعظيمه فنسبوا إليه ما ليس محققاً فيه اعترضهم ممانعاً مجاهراً بحقيقته البشرية وبأنه عبد الله ورسوله وكان هذا بدافع الحرص على عقيدة التوحيد، وخوفاً من أن يحذو المسلمون في حقه بمثل ما فعل النصارى في حق المسيح عليه السلام وهذا واضح جداً في قوله ﷺ فيما رواه ابن عباس قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(٢).

والإطراء كما يقول ابن الأثير هو مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه، وذكر ابن حجر أن الإطراء: هو المدح بالباطل والإفراط فيه. وقوله: «**كما أطرت النصارى ابن مريم**»؛ أي: في دعواهم فيه الإلهية وغير ذلك(٣).

وقد حدث أيضاً أن بعض المؤمنين قد أحاطوا نبينا محمداً ﷺ وذريته بهالة من العظمة الإلهية فنسبوا إليه التأثير في الكواكب.

---

(١) راجع: «جامع الأصول» ١١/ ٥٠، ٥١.

(٢) أخرجه البخاري حديث رقم (٣٤٤٥)، كتاب أحاديث الأنبياء؛ راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٧٨؛ راجع: «جامع الأصول» ١١/ ٥١ حديث رقم (٨٥١٧).

(٣) راجع: «فتح الباري» ٦/ ٤٩٠؛ و«جامع الأصول» ١١/ ٥١.

حدث هذا حينما توفي ابنه إبراهيم رضي الله عنه، فقد انكسفت الشمس ساعة دفنه، وتصايح المسلمون حول القبر: إنها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد عليه الصلاة والسلام.

وكسوف الشمس يومئذ خبر من أخبار الفلك الثوابت أيده حساب الفكليين في العهد الأخير.

وإنها لفرصة نادرة سنحت للنبي ﷺ ليكتسي من طابع التعظيم الإلهي بغير حساب ـ وحاشاه ـ فلو كان صلوات الله وسلامه عليه رسولاً من الرسل الذين يتصيدون الخوارق، أو ينكرونها؛ لأنهم لا يستطيعون أن يدعوها لما كلفته هذه الخارقة إلا أن يسكت عنها فلا يدّعيها ولا ينكرها ولو سكت عنها لحسبها له الناس معجزة من المعجزات لم يتحقق مثلها من قبل لأحد من المرسلين.

لكنه لم ينس في ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه، وبادرهم لساعتها مذكراً لهم بآيات الله، وأن الشمس والقمر آيتان من آياته، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته.

فقد خرج إلى المسجد مسرعاً حينما بلغه تقول الناس وزعمهم، واهتم بهذا الأمر بالغ الاهتمام حيث لم ينتظر موعد الصلاة بل تعجل لرفض ذلك بإباء عزيز وتواضع جم، فخطب معلناً عن حقيقته المتلقاة المأمورة، وبيّن أن هذه حادثة كونية حصلت بمشيئة الله تعالى المنظم المتصرف في الكون كله، تدل على عظيم قدرته، وليس لها أدنى صلة بوفاة ابنه إبراهيم[(١)].

أخرج البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس

---

(١) راجع عباس العقاد: «حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» ص٥٩؛ و«مطلع النور» ص١٢٧؛ راجع أيضاً: «نبوة محمد في القرآن» للدكتور حسن ضياء الدين عتر ص٢٧٦، ٢٧٧.

لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله**».

وأخرج البخاري والنسائي عن أبي بكرة قال: كنا عند النبي ﷺ فانكسفت الشمس فقام رسول الله ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، وثاب الناس إليه، فصلى بهم ركعتين حتى انجلت الشمس فقال: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا يخسفان لموت أحد، فإذا كان ذلك فصلوا وادعو حتى يكشف ما بكم**»، وذلك أن ابناً للنبي ﷺ مات يقال له: إبراهيم، فقال الناس في ذلك.

وفي رواية ثالثة: «يجر رداءه مستعجلاً»، ورواية رابعة: «من العجلة». روى أحمد والنسائي وابن ماجه وصححه ابن خزيمة قال: انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فخرج يجر ثوبه فزعاً حتى أتى المسجد، فلم يزل يصلي حتى انجلت، فقال: «**إن الناس يزعمون أن الشمس والقمر لا ينكسفان إلا لموت عظيم من العظماء وليس كذلك..**».

وروى النسائي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنّه خرج يوماً مستعجلاً إلى المسجد وقد انكسفت الشمس، فصلّى حتى انجلت، ثم قال: «**إن أهل الجاهلية كانوا يقولون: إن الشمس والقمر لا ينخسفان إلا لموت عظيم من عظماء أهل الأرض!! وإن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما خليقتان من خلقه، يحدث الله في خلقه ما يشاء، فأيهما انخسف فصلوا حتى ينجلي أو يحدث الله أمراً**»(١).

وروى مسلم من حديث أسماء: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ففزع فأخطأ بدرع حتى أدرك بردائه؛ يعني: أنه أراد لبس

---

(١) راجع هذه الروايات وغيرها من الأحاديث الواردة في الكسوف في «جامع الأصول» لابن الأثير ٦/١٥٦ ـ ١٩١؛ و«مجمع الزوائد» للهيثمي ٢/٢٠٦ ـ ٢١١؛ و«فتح الباري» لابن حجر ٢/٥٢٨؛ «صحيح مسلم بشرح النووي» ٦/١٩٨ كتاب الكسوف.

ردائه فلبس الدرع من شغل خاطره بذلك كما قال الحافظ ابن حجر[١].

وذكر الإمام النووي: أن معناه: أنه لشدة سرعته واهتمامه بذلك أراد أن يأخذ رداءه، فأخذ درع بعض أهل البيت سهواً ولم يعلم ذلك لاشتغال قلبه بأمر الكسوف فلما علم أهل البيت أنه ترك رداءه لحقه به إنسان.

وفي رواية أنهم قالوا: كسف لموت إبراهيم. فقال النبي ﷺ هذا الكلام رداً عليهم.

قال العلماء: والحكمة في هذا الكلام أن بعض الجاهلية الضُّلّال كانوا يعظِّمون الشمس والقمر، فبيّن ﷺ أنهما آيتان مخلوقتان لله تعالى، لا صنع لهما، بل هما ـ كسائر المخلوقات ـ يطرأ عليهما النقص والتغير كغيرهما.

وكان بعض الضُّلّال من المنجِّمين وغيرهم يقول: لا ينكسفان إلا لموت عظيم أو نحو ذلك ـ مما أوردته الأحاديث ـ، فبيّن أن هذا باطل لا يغتر بأقوالهم، لا سيما وقد صادف موت إبراهيم رضي الله عنه[٢].

يذكر ابن حجر أن في هذه الأحاديث إبطالاً لما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من تأثير الكواكب في الأرض، وهو نحو قولهم في الاستسقاء: «مطرنا بنوء كذا».

قال الخطابي: كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير في الأرض من موت أحد أو ضرر، فأعلم النبي ﷺ أنه اعتقاد باطل وأن الشمس والقمر خلقان مسخران لله ليس لهما سلطان في غيرهما ولا قدرة على الدفع عن أنفسهما، وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من الشفقة على أمته وشدة الخوف من ربه[٣].

---

(١) «فتح الباري» ٢/ ٥٢٧.

(٢) راجع: «شرح النووي على صحيح مسلم» ٦/ ٢٠١ ـ ٢١٢، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٨م.

(٣) راجع: «فتح الباري» لابن حجر ٢/ ٥٢٨.

وما موقف رسول الله ﷺ في كشف حقيقة الكسوف والخسوف إلا موقف راسخ في الصدق مرهف الأمانة موقف نبوي جليل.. يفيض على الأفئدة السليمة إثباتاً لنبوة محمد ﷺ وثقة بها، ويستجيش فيها إيماناً حازماً جريئاً دافقاً، يتجاوز حدود العصبية ولا يعبأ بالأحقاد الطائفية الكالحة:

فهذا هو الشاعر النصراني إلياس قنصل[1] يستدل بثاقب فكره، وإنعام نظره في هذه الحادثة وغيرها على أن سيدنا محمداً ﷺ نبي مخلص، صادق، ورع، يرتفع عن اهتبال الفرص المواتية لإقامة صرح أمجاد شخصية فيعلن إيمانه به نبياً ورسالته ديناً إلهياً قويماً.

فقد ذكر هذا الموقف في قصيدة له مطولة بلغت أبياتها ثلاثة وثمانين بيتاً بعنوان: «النبي العربي الكريم» ألمّ فيها بتاريخ حياة النبي ﷺ وجهاده في سبيل نشر الدعوة وتصدي المشركين له بالإيذاء:

يقول إلياس قنصل:

إني ذكرتك يا نبي ملوعاً ... بشدائد الآلام والأحزان
تحنو على إبراهيم يلفظ روحه ... وشبابه ما زال في الريعان
فنفيت ما نسب الصحابة للسما ... وعلى جفونك مدمع الثكلان
هي فرصة لو نالها متنبئ ... أغنته عن عمل وعن برهان

---

(١) الشاعر الياس قنصل هو من شعراء المهجر حيث ولد في يبرود بسوريا عام ١٩١٤م ثم هاجر إلى البرازيل وبعد ذلك إلى الأرجنتين، وكان في كثير من المناسبات يمتدح النبي ﷺ ويمتدح القرآن. راجع تفصيل الحديث عنه والترجمة له في: جورج صيدح «أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية» ص٦٢٦ ـ ٦٣٢؛ وأحمد قبش «تاريخ الشعر العربي الحديث» ص٣٣٨، ٣٣٩؛ ونظمي عبد البديع «أدب المهجر» ص٣٧٠ ـ ٣٧٩؛ وعيسى الناعوري «أدب المهجر» ص٥٩٢ ـ ٦٠١.

إن لـم يكن فيمـا أتيت رسـالـة　　للحق كان الحق في بطلان[1]

وهكذا كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على تذكير أمته دائماً بأنه بشر وأنه عبد الله ورسوله.

العوارض البشرية:

وفيما يخصه ﷺ من الأمور الدنيوية ويطرأ عليه من العوارض البشرية فإن الرسالة لم تنزع من قلبه عواطف البشر، ولا جردته من وجدانهم، ولا عصمته مما يجوز عليهم فيما يتصل بالنبوة، فقد كان يسكن إلى زوجه ويشغل بالأبناء، ويعاني مثل الذي يعانيه بنو آدم من حب وكره ورغبة وزهد، وخوف وأمل وحنين واشتياق، ويجري عليه ما يجري على سائر البشر من تعب، ويُتم وثكل ومرض وموت.

فقد كان ﷺ وسائر الأنبياء والرسل من البشر، وجسمه وظاهره خالص للبشر، يجوز عليه من الآفات والتغييرات، والآلام والأسقام وتجرع كأس الحمام ما يجوز على البشر، وهذا كله ـ كما يقول القاضي عياض ـ ليس بنقيصة فيه لأن الشيء إنما يسمى ناقصاً، بالإضافة إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه، وقد كتب الله على أهل هذه الدار: فيها تحيون وفيها تموتون، ومنها تخرجون. وخلق جميع البشر بمدرجة الغير[2].

فقد مرض ﷺ، واشتكى، وأصابه الحر والقر وأدركه الجوع والعطش، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياء والتعب، ومسه الضعف والكبر، وسقط فجحش شقه، وشجه الكفار، وكسروا رباعيته، وسُقِي السم، وسحر وتداوى، واحتجم، وتنشر، وتعوّذ، ثم قضى نحبه،

---

(١) راجع: د. حسن ضياء الدين عتر «نبوة محمد في القرآن» ص٢٧٩؛ د. نظمي عبد البديع «أدب المهجر» ص٣٧٦ ـ ٣٧٩.

(٢) مدرجة: طريق، والغير: غير الدهر: حوادثه المتغيرة من حال إلى حال، والمراد: أنهم مستعدون ومعرضون لها لا محالة.

فتوفي ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى، وتخلص من دار الامتحان والبلوى وهذه سمات البشر التي لا محيص عنها[1].

يذكر الإمام الغزالي أن رسول الله ﷺ لم يكن أحد أكرم على الله منه، لكنه لم يمهله ساعة عند انقضاء مدته، ولم يؤخره لحظة بعد حضور منيته بل أرسل إليه ملائكته الكرام، فجدوا بروحه الزكية، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر، إلى مقعد صدق في جوار الرحمٰن، فاشتد مع ذلك في النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه، وارتفع حنينه، وتغير لونه، وعرق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لموته من حضره، وانتحب لشدة حاله من شهد منظره، ولم يدفع عنه منصب النبوة مقدوراً، ولم يراقب فيه الملك أهلاً ولا عشيراً، هيهات!

بل امتثل ما كان مأموراً، واتبع ما وحده في اللوح مسطوراً[2].

يقول تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ولذلك فإن أبا بكر رضي الله عنه حينما ذكر عمر رضي الله عنه بهذه الآية وتلاها على المسلمين، دهشوا كأنهم يسمعونها تتلى عليهم لأول مرة[3] وقال أبو بكر كلمته المشهورة:

«من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله

---

(١) راجع: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ٢/ ٨٦٠؛ راجع د. بنت الشاطئ في «تراجم سيدات بيت النبوة» ص١٩٨؛ راجع أيضاً: «نسيم الرياض» للخفاجي، و«شرح الشفا» للملا علي القاري ٤/ ٢٣٨ ـ ٢٤٢.

(٢) راجع: «إحياء علوم الدين» ٤/ ٤٦٨، ٤٦٩.

(٣) وكان عمر رضي الله عنه من كثرة تعلُّقه بالنبي ﷺ وشدة صدمته بوفاته أعلن في الناس أنه لم يمت.

فإن الله حي لا يموت[1].

ولو شاء الله سبحانه لعصم نبيه مما عانى من سكرات الموت، ولأعفاه مما ذاق من حر الثكل في بنيه، وفداحة المصاب في خديجة ومحنة الإفك في عائشة رضي الله عنها، ولجعل حياته نصراً متصلاً لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة وأراحه من اضطهاد أعدائه، وكيد المنافقين ممن تظاهروا باتباعه.

ولكنه الابتلاء الذي يبتلي الله به سبحانه أنبياءه ورسله، والذي أشار إليه النبي ﷺ في احتضاره فقال: «**ليس أحد أشد بلاء من الأنبياء، كما يشدد علينا البلاء كذلك يضاعف لنا الأجر**»[2].

وقال أيضاً: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»[3].

يقول القاضي عياض: «وهكذا سائر أنبيائه مبتلى معافى، وذلك من تمام حكمته، ليظهر شرفهم في هذه المقامات، ويبين أمرهم، ويتم كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشريتهم، ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى ابن مريم، وليكون في محنهم تسلية لأممهم، ووفور لأجورهم عند ربهم تماماً على الذي أحسن إليهم»[4].

وهكذا تبين لنا أن بشرية نبينا وبشرية المسيح وبشرية الأنبياء جميعاً

---

(١) راجع لمزيد من التفاصيل عن احتضار النبي عليه الصلاة والسلام ووفاته وموقف المسلمين بعد وفاته: «السيرة النبوية» لابن كثير ٤/ ٤٧٠ ـ ٤٨٤؛ «دلائل النبوة» للبيهقي ٧/ ٢٠٣ ـ ٢٢٠؛ «الوفا» لابن الجوزي ٢/ ٥٠٥ ـ ٥٤١.

(٢) «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي ٢/ ٥١١، ٥١٢.

(٣) رواه الترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه. راجع تفاصيل ذلك في «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» حديث رقم (٣٣١٠) ج٥.

(٤) راجع: «الشفا» ٢/ ٨٦٣؛ راجع: «سيدات بيت النبوة» ص١٩٨.

صلوات الله وسلامه عليهم ضرورة من ضرورات النبوة والرسالة؛ لأنها تمنع من الغلو فيهم وتحول دون الإفراط في وصفهم، ومن هنا ندرك لماذا التأكيد على بشرية سيدنا محمد ﷺ.

لست كهيْأتِكم:

إلا أنه ينبغي أن أنبه إلى نقطة هامة ودقيقة فقد يظن البعض أن بشرية الرسول تجعله يتوقف عندها ويحاول التركيز عليها ويوجه الانتباه كله إليها فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ويندفع في هذا الاتجاه المنحرف اتجاهاً لا يتناسب قط مع قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

بل إنه كما قال شيخنا الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ينسى في اندفاعته الهوجاء ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ويهملها إهمالاً[(١)].

ولذلك فإن بعض المحققين أكد على هذه النقطة وبيّن أن الطوارئ والتغييرات التي ذكرناها إنما تختص بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومة البشر، ومعاناة بني آدم لمشاكلة الجنس، وأما بواطنهم فمنزّهة غالباً عن ذلك معصومة منه متعلقة بالملأ الأعلى والملائكة لأخذها عنهم، وتلقيها الوحي منهم.

واستدلوا بقوله ﷺ: «**إني لست كهيأتكم؛ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[(٢)]، وقوله: «**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي**»[(٣)].

فأخبر ﷺ بذلك أن سره وباطنه وروحه بخلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التي تحل ظاهره من ضعف وجوع، وسهر، ونوم، لا يحل

---

(١) راجع: «دلائل النبوة ومعجزات الرسول» ص٢٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم. راجع: «جامع الأصول» لابن الأثير ٦/ ٣٨١.

(٣) رواه البخاري ومسلم. راجع: «جامع الأصول» لابن الأثير ٦/ ٩٣.

منها شيء باطنه، بخلاف غيره من البشر، في حكم الباطن؛ لأن غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه، وهو ﷺ في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته، وكذلك غيره إذا جاع ضعف لذلك جسمه وخارت قوته، فبطلت بالكلية جملته، وهو ﷺ قد أخبر أنه لا يعتريه ذلك وأنه بخلافهم لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[1].

وقد عقب القاضي عياض على ذلك بقوله: إنه ﷺ في هذه الأحوال كلها من وصب ومرض وسحر وغضب لم يجز على باطنه ما يخل به، ولا فاض منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به كما يعتري غيره من البشر[2].

---

(١) راجع: «الشفا» ٢/٨٦٣، ٨٦٤؛ و«نسيم الرياض» ٤/٢٤٥ ـ ٢٤٧؛ و«شرح الشفا» للملا علي القاري نفس الصفحات.

(٢) «الشفا» ٢/ ٨٦٤.

المصادر والمراجع

كتاب بشرية الرسل بين شبهات المنكرين

القرآن الكريم.

السُّنة النبوية.

١ - الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي، نشر المكتبة الثقافية، بيروت.
٢ - الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة: للقرافي على هامش الفارق.
٣ - ابن الإنسان (حياة نبي): إميل لودفيغ، ترجمة عادل زعيتر، عيسى الحلبي، ١٩٤٧م.
٤ - إحياء علوم الدين: للغزالي، دار المعرفة، بيروت.
٥ - أدب المهجر: عيسى الناعوري، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.
٦ - أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب: د. نظمي عبد البديع، دار الفكر العربي.
٧ - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية: دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٤م.
٨ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: للعلامة أبي السعود، المطبعة المصرية.
٩ - إظهار الحق: للشيخ رحمت الله الهندي، تحقيق د. ملكاوي، الرياض ١٤١٠هـ.
١٠ - أعلام النبوة: للماوردي، دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١١ - الله واحد أم ثالوث: محمد مجدي مرجان، دار النهضة العربية ١٩٧٢م.
١٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للعلامة البيضاوي ١٣٥٨هـ - ١٩٦٨م، الحلبي.
١٣ - البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي، مطابع النصر الحديثة بالرياض.
١٤ - تأثر اليهودية بالأديان الوثنية: للدكتور فتحي محمد الزغبي، دار البشير ١٤١٤هـ.
١٥ - تاريخ الشعر العربي الحديث: أحمد قبش ١٩٧١م.

١٦ ـ تثبيت دلائل النبوة: للقاضي عبد الجبار، تحقيق د. عبد الكريم عثمان، دار العربية، بيروت.
١٧ ـ التحرير والتنوير: للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ١٩٧١م.
١٨ ـ تحفة المريد على جوهرة التوحيد: شرح البيجوري ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
١٩ ـ تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: دار العاصمة بالرياض ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.
٢٠ ـ تراجم سيدات بيت النبوة: د. بنت الشاطئ، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢١ ـ تفسير سورة الإسراء: الدكتور محمد البهي، مكتبة وهبة ١٩٧٦م.
٢٢ ـ تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار): الشيخ رشيد رضا، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣م.
٢٣ ـ تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، دار التراث بالقاهرة، ودار الفكر، بيروت ١٤٠١هـ.
٢٤ ـ التفسير القيم: لابن القيم، تحقيق محمد الفقي، مطبعة السُّنة المحمدية ١٣٦٨هـ.
٢٥ ـ تفسير النسفي: دار إحياء الكتب العربية.
٢٦ ـ التمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة: للباقلاني، نشر دار الفكر العربي ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م.
٢٧ ـ تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود: للدكتور فتحي الزغبي ١٤١٢هـ، والطبعة الثانية، دار البشائر الإسلامية، بيروت ٢٠١٠م.
٢٨ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول: لابن الأثير ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
٢٩ ـ جامع البيان في تفسير القرآن: للطبري، دار المعرفة، بيروت.
٣٠ ـ الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٧م.
٣١ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: لابن تيمية، طبعة المدني، وطبعة دار العاصمة بالرياض.
٣٢ ـ حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي: دار صادر، بيروت.
٣٣ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد ١٩٥٨م.
٣٤ ـ خلق النبي العظيم من دلائل نبوته وبراهين رسالته: للدكتور فتحي الزغبي، مجلة كلية أصول الدين بطنطا، العدد الثاني ١٤١٠هـ.
٣٥ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للسيوطي، دار الفكر ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
٣٦ ـ دلائل النبوة ومعجزات الرسول: للدكتور عبد الحليم محمود، دار الإنسان.
٣٧ ـ دلائل النبوة ومعرفة صاحب الشريعة: للبيهقي، دار الكتب.

٣٨ ـ الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل: تحقيق د. الشرقاوي، دار الهداية ١٤٠٦هـ.
٣٩ ـ الرسالة المحمدية: للسيد سليمان الندوي، المكتب الإسلامي، بيروت.
٤٠ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للألوسي، دار إحياء التراث، بيروت.
٤١ ـ السيرة النبوية: لابن كثير، دار إحياء التراث العربي، تحقيق مصطفى عبد الواحد.
٤٢ ـ شرح السنوسية الكبرى: لأبي عبد الله السنوسي، د. عبد الفتاح بركة، دار القلم، الكويت.
٤٣ ـ شرح الشفا: للملا علي القاري على هامش نسيم الرياض.
٤٤ ـ شرح العقيدة الأصفهانية: لابن تيمية، دار الكتب الحديثة.
٤٥ ـ شرح العقيدة الطحاوية: للقاضي محمد بن أبي العز، مؤسسة الرسالة.
٤٦ ـ شرح المقاصد: للعلامة التفتازاني، نسخة مصورة عن طبعة إستانبول.
٤٧ ـ شرح المواقف: للسيد الشريف الجرجاني، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٧م.
٤٨ ـ شرح النووي على صحيح مسلم: دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م.
٤٩ ـ الشفا: للقاضي عياض، تحقيق البجاوي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٠ ـ عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة: محمد عزة دروزة، دار اليقظة العربية.
٥١ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للنيسابوري، دار الفكر، بيروت ١٩٨٦م.
٥٢ ـ غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام: د. فتحي الزغبي ١٩٨٨م.
٥٣ ـ الفارق بين المخلوق والخالق: باجه جي، دار الكتاب الإسلامي.
٥٤ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: المطبعة السلفية ومكتبتها.
٥٥ ـ الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير البيضاوي: للمناوي، دار العاصمة بالرياض.
٥٦ ـ فتح القدير: للشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣م.
٥٧ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل: لابن حزم، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٢١هـ.
٥٨ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة: للغزالي، تحقيق وتعليق د. سليمان دنيا ١٩٦١م.
٥٩ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق ١٩٨٧م.

٦٠ ـ في الفكر الديني الجاهلي: د. محمد إبراهيم الفيومي، دار القلم، الكويت ١٩٨٠م.
٦١ ـ في الفلسفة الإسلامية (منهج وتطبيقه): للدكتور إبراهيم مدكور، دار المعارف ١٩٨٣م.
٦٢ ـ قاموس الكتاب المقدس: د. بطرس عبد الملك وآخرين ١٩٨١م.
٦٣ ـ قصص الأنبياء: لابن كثير، تحقيق محمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م.
٦٤ ـ الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف: هامش، دار التراث العربي، بيروت.
٦٥ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: للزمخشري، دار المعرفة ودار التراث العربي، بيروت.
٦٦ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية بشرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية: للسفاريني، قطر.
٦٧ ـ محاسن التأويل: للقاسمي، محمد فؤاد عبد الباقي ١٩٥٨م، دار إحياء الكتب العربية.
٦٨ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، الدوحة ١٩٨٣م.
٦٩ ـ محمد: الرسالة والرسول: د. نظمي لوقا، الطبعة الثانية ١٩٥٩م.
٧٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٤م.
٧١ ـ المسيح إنسان أم إله محمد مجدي مرجان، دار النهضة العربية ١٩٧٥م.
٧٢ ـ المطالب العالية من العلم الإلهي: للرازي، دار الكتب العربي، بيروت ١٩٨٧م.
٧٣ ـ مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية: للعقاد، دار العروبة، القاهرة.
٧٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة المعارف بالرياض.
٧٥ ـ مفاتيح الغيب: للرازي، دار إحياء التراث العربي، وطبعة طهران.
٧٦ ـ مقدمة ابن خلدون: تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي.
٧٧ ـ الملل والنحل: للشهرستاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٥م.
٧٨ ـ مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا: للسيوطي.
٧٩ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن: للزرقاني، دار إحياء التراث العربي.

٨٠ ـ المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الإنجيل: لأبي الفضل المالكي ١٣٢٢هـ.
٨١ ـ منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب: للشيخ عبد العزيز بن حمد ١٩٣٩م.
٨٢ ـ منهاج السُّنة النبوية: لابن تيمية، جامعة الإمام بالرياض، د. محمد رشاد سالم.
٨٣ ـ المواقف في علم الكلام: للإيجي، مطبعة العلوم بمصر.
٨٤ ـ النبوات: لابن تيمية، مكتبة الرياض الحديثة.
٨٥ ـ النبوات وما يتعلق بها: للرازي، مكتبة الكليات الأزهرية، ودار ابن زيدون ١٩٨٦م.
٨٦ ـ نبوة محمد ﷺ في القرآن: حسن ضياء الدين، دار النصر، حلب ١٩٧٣م.
٨٧ ـ النبوة والأنبياء: للصابوني، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
٨٨ ـ نسيم الرياض في شرح شفا: القاضي عياض، للخفاجي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٨٩ ـ نهاية الإقدام في علم الكلام: للشهرستاني، حرره وصححه ألفرد جيوم.
٩٠ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى: لابن القيم، مكتبة القرآن.
٩١ ـ الوحي المحمدي: رشيد رضا، مطبعة المنار.
٩٢ ـ الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي، المؤسسة السعيدية بالرياض.
٩٣ ـ الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى (العهدين القديم والجديد): دار الكتاب المقدس في العالم العربي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

تعريف بالمؤلف ومؤلفاته

أ.د. فتحي محمد أحمد الزغبي

أستاذ بقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، فرع طنطا.

أستاذ بقسم أصول الدين بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة.

(رئيس القسم لمدة ثلاث سنوات من ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٩م).

منسق مجموعة بحوث العقائد والأديان والمذاهب المعاصرة.

عضو لجنة محور التاريخ والحضارة الإسلامية والتحديات المعاصرة.

منسق مساق الثقافة الإسلامية.

التخصص العام: أصول الدين.

التخصص الدقيق: (العقيدة والفلسفة).

الأديان والمذاهب، الملل والنحل.

تاريخ الميلاد: ٢/ ٩/ ١٩٥٧م

الجنسية: مصري

البريد الالكتروني: E.mail: alzoghby@sharjah.ac.ae

العنوان البريدي: دولة الإمارات - الشارقة (ص ب 27272)
جامعة الشارقة - كلية الشريعة ـ قسم أصول الدين

أولاً: الشهادات العلمية

تلقى تعليمه الابتدائي وحفظ القرآن الكريم بقرية شوني، مركز طنطا، محافظة الغربية، بجمهورية مصر العربية، ثم التحق بمعهد طنطا الإعدادي الأزهري في العام الدراسي ١٩٦٩/ ١٩٧٠م.

حصل على شهادة الثانوية الأزهرية من معهد طنطا الأحمدي الثانوي في العام الدراسي ١٩٧٦/ ١٩٧٧م. **وجاء ترتيبه (الثاني)** ـ بتوفيق الله ـ على مستوى جمهورية مصر العربية.

شهادة الإجازة العالية (الليسانس):

تخرج في كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، في العام الدراسي الجامعي ١٩٧٩/ ١٩٨٠م، حيث حصل على شهادة الإجازة العالية (الليسانس) في أصول الدين والدعوة الإسلامية، دورة مايو/أيار ١٩٨٠م، قرار مجلس الجامعة ٢٦/ ٧/ ١٩٨٠م، **بتقدير عام (ممتاز مع مرتبة الشرف)** ـ حيث كان **ترتيبه (الأول)** بتقدير عام ممتاز ـ بفضل الله ـ مدة سنوات الدراسة الأربع.

درجة التخصص (الماجستير):

حصل على تقدير جيد جدّاً في مرحلة الدراسات العليا (أصول الدين: تخصص الأديان والمذاهب). **وكان ترتيبه الأول** في السنة الأولى عام ١٩٨١م، وفي السنة الثانية عام ١٩٨٢م.

وكان ممن درَّسوا له في هذه المرحلة: فضيلة الأستاذ الدكتور محمد البهي، المفكر الإسلامي المعروف، ومدير جامعة الأزهر، ووزير الأوقاف المصري سابقاً.

وفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الجليل شلبي، المفكر الإسلامي المعروف، وأمين عام مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سابقاً.

وفضيلة الأستاذ الدكتور عوض الله حجازي أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر بالقاهرة وجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ومدير جامعة الأزهر سابقاً.

ثم حصل على درجة التخصُّص (الماجستير) في (أصول الدين ـ الأديان والمذاهب) بتقدير (ممتاز) من كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، وبقرار مجلس الكلية ١٠/ ٢/ ١٩٨٥م، وقرار مجلس الجامعة في ١٦/ ٢/ ١٩٨٥م، وكان له شرف الحصول على أول ماجستير تمنحه الكلية.

وسجَّل الرسالة تحت إشراف: فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الشاذلي، أستاذ العقيدة والفلسفة بالكلية، وبعد أن أعير فضيلته إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، انتقل الإشراف إلى فضيلة الأستاذ الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل أستاذ العقيدة والفلسفة بالكلية، الذي رجع إليها من إعارته في جامعة الإمارات العربية المتحدة بالعين.

وكان موضوع الرسالة: «غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام: اليهودية، المسيحية، المجوسية».

وتم طبعها ونشرها في كتاب بالعنوان نفسه في طبعتين.

درجة العالمية (الدكتوراه):

حصل على درجة العالمية (الدكتوراه) في (أصول الدين ـ العقيدة والفلسفة) بتقدير: ممتاز (مع مرتبة الشرف الأولى) من كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر فرع طنطا، بقرار مجلس الكلية بتاريخ ٢٢/ ٨/ ١٩٨٧م، وقرار مجلس الجامعة بتاريخ: ٢٩/ ٨/ ١٩٨٧م وكان له شرف الحصول على أوّل دكتوراه تمنحها الكلية.

وكان موضوع الرسالة: (تأثر اليهودية بالأديان الوثنية).

وقد طبعت ونشرت كذلك بالعنوان نفسه في طبعتين.

وسجل الرسالة وناقشها تحت إشراف: فضيلة الأستاذ الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل (أستاذ العقيدة والفلسفة، وعميد كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، وأستاذ ورئيس قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الإمارات)، والذي ترأس لجنة المناقشة بعضوية كل من: فضيلة الأستاذ الدكتور عبد العزيز عبيد (أستاذ العقيدة والفلسفة المتفرغ بالكلية، والذي كان أستاذاً وعميداً لكلية أصول الدين بالقاهرة، وأستاذاً بجامعة أم القرى بمكة المكرمة)، وفضيلة الأستاذ الدكتور رؤوف شلبي (أستاذ مقارنة الأديان بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر بالقاهرة وطنطا، وجامعة قطر، وجامعة الإمارات، وعميد كلية أصول الدين بالمنصورة، وعميد كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة، ووكيل الأزهر الشريف سابقاً).

ثانياً: التدرج الوظيفي

صدر قرار رئيس جامعة الأزهر بتكليفه (معيداً) في قسم مقارنة الأديان بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، بتاريخ ١٧/ ٩/ ١٩٨٠م.

صدر قرار رئيس جامعة الأزهر بتعيينه (مدرساً مساعداً) أي (محاضراً) في قسم مقارنة الأديان بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٨٥م.

صدر قرار مجلس الجامعة بتعيينه (مدرساً) أي (أستاذاً مساعداً) في قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، بتاريخ ٧/ ١٠/ ١٩٨٧م.

أعير إلى كلية الشريعة بالرياض: قسم الثقافة الإسلامية، جامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالمملكة العربية السعودية، فعمل أستاذاً مساعداً، ثم أستاذاً مشاركاً، منذ أول سبتمبر/أيلول ١٩٩٠م إلى آخر أغسطس/آب ١٩٩٥م.

ترقَّى إلى رتبة (أستاذ مساعد) أي (أستاذ مشارك) في قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، بتاريخ ٦/١١/١٩٩١م.

وافقت اللجنة العلمية الدائمة للترقيات في قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر على ترقيته إلى رتبة (أستاذ) في قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، بتاريخ ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٦م. ثم صدر قرار مجلس الجامعة بذلك في الأول من يناير/كانون الثاني (١/١/١٩٩٧م).

عمل أستاذاً بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا ـ منذ هذا التاريخ وحتى تاريخه ـ، ثم أعير منها إلى دولة الكويت؛ حيث عمل (أستاذاً مشاركاً) بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية: جامعة الكويت، قسم العقيدة والدعوة؛ لمدة ثلاث سنوات، من شهر سبتمبر/أيلول ٢٠٠٠م إلى أغسطس/آب ٢٠٠٣م.

ثم انتقلت إعارته إلى دولة الإمارات العربية المتحدة؛ حيث عمل أستاذاً للعقيدة والأديان والفلسفة الإسلامية بقسم أصول الدين: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة بإمارة الشارقة منذ أول سبتمبر ٢٠٠٣م حتى تاريخه، حيث تعاقد مع الجامعة أوَّلاً لمدة سنتين، ثم جدد له في المرة الأولى لمدة ثلاث سنوات انتهت في أغسطس/آب ٢٠٠٨م، وفي المرة الثانية لمدة أربع سنوات تنتهي بإذن الله في أغسطس/آب ٢٠١٢م.

يعمل حالياً أستاذاً بقسم أصول الدين بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة؛ حيث صدر قرار مدير الجامعة بتعيينه رئيساً

للقسم: في أول سبتمبر/أيلول ٢٠٠٦م، لمدة عام، بعد انتخابه من أعضاء مجلس القسم، ثم أعيد انتخابه مرتين أخريين، وصدر قرار بتعيينه رئيساً للقسم للسنة الثانية من سبتمبر/أيلول ٢٠٠٧م، والسنة الثالثة من سبتمبر/أيلول ٢٠٠٨م إلى آخر أغسطس/آب ٢٠٠٩م.

قام بأداء خطبة الجمعة وهو طالب في المرحلة الثانوية الأزهرية، في المسجد الكبير بقريته (شوني مركز طنطا)، ثم بجامع المعمورة الشاطئ بمدينة الإسكندرية من عام ١٩٨١ - ١٩٩٠ م، وفي الرياض ألقى بعض المحاضرات والدروس الدينية في مركز الأمم المتحدة، بالتنسيق مع القنصلية المصرية في الرياض، ثم عاد إلى أداء خطبة الجمعة بمسجد حاتم (سموحة) بالإسكندرية، ومسجد الجمعية الشرعية، ومسجد مجمع الإيمان بالمنصورة، ومسجد مجمع الرحمن بطلخا، وألقى عدداً من الدروس والمحاضرات بالمسجد الأحمدي ومسجد السلام بطنطا، ومسجد جامعة الكويت بالكويت، ويلقي بعض خطب الجمعة، وعدداً من الدروس والمحاضرات بمسجد جامعة الشارقة بالشارقة.

ثالثاً: الخبرة التدريسية

بدأت خبرته بالتدريس في كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، منذ أن عين معيداً ١٩٨٠م، ثم مدرساً مساعداً ١٩٨٥م، في مقارنة الأديان، ثم مدرساً ١٩٨٧م، ثم أستاذاً مساعداً ١٩٩١م، ثم أستاذاً في الأول من يناير/كانون الثاني ١٩٩٧م (في العقيدة والفلسفة،في مرحلتي الليسانس والدراسات العليا)، مع تدريسه في جامعة الإمام بالرياض في مرحلتي الليسانس والدراسات العليا (١٩٩٠ ـ ١٩٩٥م)، وجامعة الكويت بالكويت (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٣م)، وجامعة الشارقة بالشارقة (من ٢٠٠٣م إلى الآن) في مرحلتي البكالوريوس والدراسات العليا، بجانب مشاركته في التدريس في معاهد

إعداد الدعاة، والمراكز الثقافية، ودورات تدريبية لأئمة المساجد والوعاظ والدارسين بوزارة الأوقاف بمصر والكويت، والجمعيات الأهلية مثل الجمعية الشرعية بمصر.

حيث درس المقررات والمواد أو المَسَاقات الآتية في مرحلتي الإجازة العالية (الليسانس أو البكالوريوس) والدراسات العليا:

١ ـ العقيدة الإسلامية (علم التوحيد).

٢ ـ العقيدة الإسلامية (١).

٣ ـ العقيدة الإسلامية (٢).

٤ ـ الأخلاق الإسلامية.

٥ ـ الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب.

٦ ـ الفلسفة الإسلامية.

٧ ـ الملل والنحل.

٨ ـ مقارنة الأديان.

٩ ـ التصوف الإسلامي.

١٠ ـ مذاهب فكرية معاصرة.

١١ ـ حاضر العالم الإسلامي.

١٢ ـ الثقافة الإسلامية.

١٣ ـ النظم الإسلامية.

١٤ ـ مناهج البحث العلمي.

١٥ ـ الفلسفة اليونانية.

١٦ ـ الإسلام والتيارات المعادية.

١٧ ـ قضايا إسلامية معاصرة.

١٨ ـ حركات ودعوات إصلاحية في العصر الحديث.

١٩ ـ الفرق الإسلامية.

٢٠ ـ تيارات فكرية معاصرة.

٢١ ـ دراسة نصية في العقيدة الإسلامية.

٢٢ ـ المنطق.

رابعاً: مؤلفاته العلمية

الأبحاث والمؤتمرات مرتبة من الأحدث للأقدم على النحو الآتي:

٣٠ بحثاً منشوراً في مجلات علمية محكمة.

٧ أبحاث منشورة في واقع المؤتمرات.

٧ أبحاث مقدمة في المؤتمرات مع طبع ملخصاتها.

١٧ كتاباً مطبوعة ومنشورة منها (كتابان) هما في الأصل (رسالتا الماجستير والدكتوراه).

وكتاب مشترك في (الثقافة الإسلامية) متطلب جامعي إجباري في جامعة الشارقة.

مع التأكيد على أن الأبحاث والكتب المذكورة (٤٤ بحثاً + ١٥ كتاباً) لا علاقة لها ببحثَي الماجستير والدكتوراه على الإطلاق، وتم تأليفها ونشرها بعد الحصول على درجة الدكتوراه.

أ ـ الأبحاث المنشورة في المجلّات العلمية المحكَّمة:

١ ـ «بين الفلسفة والدين لدى الكندي (فيلسوف العرب والإسلام) دراسة تحليلية نقدية».

بحث محكَّم ومنشور في حولية كلية الآداب جامعة المنوفية بمصر، الإصدار رقم ٤٠ إبريل/ نيسان (٢٠١٠م).

٢ ـ **«مشكلة اشتقاق كلمة (التصوف)، وإطلاق واشتهار كلمة (صوفي)** دراسة تحليلية نقدية».

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد العشرون ١٤٣١هـ/ ٢٠٠٩م).

٣ ـ **«تعريف (الصوفي) وتحديد معنى (التصوف)** دراسة تحليلية نقدية».

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد الواحد والعشرون ١٤٣٢هـ/ ٢٠١٠م).

٤ ـ **«الأخلاق وارتباطها بالعقيدة في الإسلام»**.

بحث محكَّم ومنشور في مركز الخدمة للاستشارات البحثية بكلية الآداب، جامعة المنوفية بمصر، (العدد الثالث، مارس/آذار ٢٠٠٩م)

٥ ـ **«الغزو الفكري في العصر الحديث (دوافعه وميادينه)»**.

بحث محكَّم ومنشور في مركز الخدمة للاستشارات البحثية بكلية الآداب، جامعة المنوفية بمصر، (العدد العاشر، أكتوبر/ تشرين أول ٢٠٠٩م).

٦ ـ **«مشكلات أولية في الفلسفة الإسلامية**. دراسة تحليلية نقدية»:

بحث محكَّم منشور بكلية الآداب جامعة المنوفية، مركز الخدمة للاستشارات البحثية (٢٠٠٧م).

٧ ـ **«من استدلالات القرآن الكريم على البعث والرد على منكريه: الاستدلال بأواخر سورة يس»**:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية، فرع جامعة الأزهر بطنطا، (العدد السابع عشر ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م).

٨ ـ **«الصداقة والسعادة في فلسفة مسكويه الأخلاقية»**:

بحث محكَّم منشور بمجلة بحوث، (حولية) كلية الآداب، جامعة المنوفية (٢٠٠٦م).

٩ ـ «الصلة بين الفلسفة الإسلامية وبين علم الكلام والتصوف والأصول»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد السادس عشر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

١٠ ـ «مرحلة الزهد في التصوف الإسلامي خلال القرنين الأول والثاني للهجرة»:

بحث محكَّم منشور بمركز الخدمة للاستشارات البحثية، كلية الآداب، جامعة المنوفية (٢٠٠٥م).

١١ ـ «مدى تأثر مسكويه بالأدب الفارسي في حكمته الأخلاقية»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد الخامس عشر ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

١٢ ـ «منزلة الغزالي في علم الأخلاق من خلال كتابه (إحياء علوم الدين)»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد الخامس عشر ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م).

١٣ ـ «الذبيح عند اليهود والنصارى (عرض ونقد)»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين بطنطا، (العدد الثالث عشر ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

١٤ ـ «الذبيح عند المسلمين (عرض ونقد)»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد الثالث عشر ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م).

١٥ ـ «مدى تأثر مسكويه بالشريعة الإسلامية في فلسفته الأخلاقية»:

بحث محكَّم منشور بالمجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، فرع الزقازيق، (العدد الرابع عشر ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢م).

١٦ ـ «فطرية الأخلاق واكتسابها بين مسكويه والغزالي»:

بحث محكَّم منشور بالمجلة العلمية لكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، فرع الزقازيق، (العدد الرابع عشر ٣٠/٦/ ٢٠٠٢م).

١٧ ـ «خصائص التصوف في القرنين: الثالث والرابع الهجريين من خلال المحاسبي والجنيد»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين جامعة الأزهر، فرع المنصورة، (العدد الثامن ٢٠٠٢م).

١٨ ـ «قوى النفس وفضائلها عند مسكويه ومدى تأثره في ذلك بفلاسفة اليونان»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين بالمنصورة، (العدد الثامن ٢٠٠٢م).

١٩ ـ «مدى تأثر مسكويه بالكندي والرازي في فلسفته الأخلاقية»:

بحث محكَّم منشور بكلية الآداب جامعة المنوفية ـ مركز الخدمة للاستشارات البحثية، (العدد السادس يونية/ حزيران ٢٠٠٢م).

٢٠ ـ «أهم مصادر مسكويه في فلسفة الأخلاق (المصدر الأول: فلاسفة اليونان: أفلاطون، أرسطو/ جالينوس)»:

بحث محكَّم منشور بكلية الآداب جامعة المنوفية ـ مركز الخدمة للاستشارات البحثية، (العدد الثاني، فبراير/ شباط ٢٠٠٢م).

٢١ ـ «مسكويه ودوره في علم الأخلاق»:

بحث محكَّم منشور بكلية الآداب جامعة المنوفية ـ مركز الخدمة للاستشارات البحثية، (العدد الأول يناير/ كانون الثاني ٢٠٠٢م).

٢٢ ـ «تاريخ علم العقيدة: نشأته وتطوره»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين بطنطا، (العدد الحادي عشر ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٣ ـ «مقدمات في علم العقيدة»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد الحادي عشر ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م).

٢٤ ـ «شبهات حول عصمة الخليل إبراهيم عليه السلام والرد عليها (الشبهة الثالثة)»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، فرع طنطا، (العدد العاشر ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

٢٥ ـ «شبهات حول عصمة الخليل إبراهيم عليه السلام والرد عليها (الشبهتان: الأولى والثانية)»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين (العدد التاسع ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

٢٦ ـ «رياضة الصبيان وتهذيب أخلاقهم بين الفيلسوفين: بروسن اليوناني ومسكويه المسلم»:

بحث محكَّم منشور في العدد الثامن من حولية كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية، جامعة الأزهر، فرع طنطا، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

٢٧ ـ «شبهات حول عصمة الملائكة والرد عليها»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين بطنطا، (العدد السابع ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٢٨ ـ «عصمة النبي سليمان بن داود مما رماه به اليهود»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين بطنطا، (العدد السابع ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م).

٢٩ ـ «بشرية الرسل بين شبهات المنكرين وضرورتها للنبوة والرسالة»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين بطنطا، (العدد السادس ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م).

٣٠ ـ «خلق النبي العظيم: من دلائل نبوته وبراهين رسالته»:

بحث محكَّم منشور بحولية كلية أصول الدين بطنطا، جامعة الأزهر، (العدد الثاني ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

ب ـ الأبحاث المنشورة في واقع وكتب المؤتمرات:

١ ـ «نظرية الفيض: ذروة التفاعل الفكري مع الفلسفة الإغريقية»:

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الخامس عشر للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة بعنوان: «آفاق التفاعل مع الفكر الغربي» في الفترة من ١٨ ـ ١٩ إبريل/ نيسان ٢٠١٠م، وقد تم نشر البحث في كتاب المؤتمر.

٢ ـ «إنكار معاد الأبدان في فلسفة الإنسان عند ابن سينا: تحليل ونقد»:

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الرابع عشر للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة بعنوان: «الإنسان في الفكر الإسلامي» في الفترة من ١٤ ـ ١٥ إبريل/ نيسان ٢٠٠٩م، وقد تم نشر البحث في كتاب المؤتمر.

٣ ـ «منهج الغزالي في البحث عن الحقيقة والوصول إلى اليقين»:

بحث شاركت به باسم جامعة الشارقة قسم أصول الدين ـ بالحضور والمناقشة وإلقاء البحث ومناقشته ـ في المؤتمر الدولي الثاني عشر للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، بالتعاون مع كلية العلوم جامعة القاهرة ومركز الدراسات المعرفية بالقاهرة، تحت عنوان: «مناهج العلوم وفلسفتها من منظور إسلامي» (في أيام: الثلاثاء، الأربعاء، الخميس: ٧، ٨، ٩ ربيع الآخر ١٤٢٨هـ/ ٢٤، ٢٥، ٢٦ إبريل/ نيسان ٢٠٠٧م)، والذي عقد في إطار احتفالات جامعة القاهرة بعيدها المئوي.

وقد تم تحكيم البحث وطبعه ونشره في كتاب المؤتمر الثاني عشر (٢٠٠٧م).

٤ ـ بحث بعنوان «دور الغزالي في إحياء وتجديد التصوف السني»:

بحث شاركت به باسم جامعة الشارقة قسم أصول الدين ـ بالحضور والمناقشة وإلقاء البحث ومناقشته ـ في المؤتمر الدولي العاشر للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، بعنوان: «مناهج العلوم الإسلامية بين التقليد والتجديد: التصوف بين الواقع والمأمول»، (يومي الثلاثاء والأربعاء: ١٠ ـ ١١ ربيع الأول ١٤٢٦هـ/١٩ ـ ٢٠ إبريل/نيسان ٢٠٠٥م).

وقد تم تحكيم البحث وطبعه ونشره في كتاب المؤتمر العاشر (٢٠٠٥م).

٥ ـ جهود العلماء المعاصرين في نقض مزاعم المستشرقين والمنصرين حول زواج النبي ﷺ بالسيدة زينب بنت جحش»:

بحث مقدم للمؤتمر السنوي لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة بعنوان: «الجهود المبذولة في خدمة السنة النبوية من بداية القرن الرابع عشر الهجري إلى اليوم»، (الأربعاء والخميس ٢٥ ـ ٢٦ ربيع الأول ١٤٢٦هـ الموافق ٤ ـ ٥ مايو/أيار ٢٠٠٥م).

وتم طبعه ونشره ضمن أعمال المؤتمر في الجزء الثاني من كتاب الوقائع، أصدره مركز البحوث والدراسات بجامعة الشارقة (١٣٢٧هـ/ ٢٠٠٦م) سلسلة النشر العلمي (٣٦).

٦ـ بحث بعنوان: «أهداف علم الكلام بين الدفاع عن العقائد وإثباتها في القديم والجديد»:

شاركت به باسم جامعة الشارقة، قسم أصول الدين ـ بالحضور والمناقشة وإلقاء البحث ومناقشته ـ في المؤتمر الدولي التاسع للفلسفة

الإسلامية، الذي عقد بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ بمصر (في الفترة من ٢٠ ـ ٢١ إبريل/ نيسان ٢٠٠٤م) تحت عنوان: «مناهج العلوم الإسلامية بين التجديد والتقليد: الحلقة الأولى: علم الكلام».

وتم تحكيم البحث وطبعه ونشره في الكتاب الخاص بأعمال المؤتمر التاسع (٢٠٠٤م).

٧ ـ «دور عباس محمود العقاد في الدفاع عن حقائق الإسلام ضد أباطيل خصومه».

بحث شاركت به موفداً من جامعة الكويت قسم العقيدة والدعوة ـ بالحضور والمناقشة، وإلقاء البحث ومناقشته ـ في المؤتمر الدولي السادس للفلسفة الإسلامية، الذي عقد بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ بمصر (في الفترة من ٢٠ ـ ٢١ إبريل/ نيسان ٢٠٠١م).

ثم حكِّم البحث وطبع ونشر ضمن كتاب المؤتمر السادس عام (٢٠٠١م).

ج ـ الأبحاث المقدمة في المؤتمرات للمناقشة، مع طبع ملخَّصاتها:

٨ ـ «دراسة حول كتاب «تهافت الفلاسفة» لحجة الإسلام الإمام الغزالي»:

بحث ألقي في الطاولة المستديرة الثالثة التي نظمها المنتدى الإسلامي بالشارقة، حيث قام الأمين العام للمنتدى الإسلامي بتقديم الباحث، واستغرق إلقاء البحث من بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب، ثم كانت تعقيبات ومناقشات الحضور من أساتذة الجامعة المتخصصين والباحثين وتعقيب الباحث عليها، من بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء، وذلك بمقر المنتدى بالشارقة (في يوم ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٠م).

وقد تم نقل وقائع الطاولة المستديرة بالبث المباشر على موقع المنتدى وموقع اتصالات.

٩ ـ «موقف الغزالي من علم الكلام والمتكلمين»:

بحث مقدم لندوة مناهج البحث والتأليف في العقيدة الإسلامية، والتي نظمتها مجموعة بحوث العقائد والأديان والمذاهب المعاصرة بجامعة الشارقة (في يوم الأحد ١٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ١٠ ـ ٥ ـ ٢٠٠٩م).

١٠ ـ «دور الإمام الغزالي في النهوض بالأمة ومناقشة دعوى مسئوليته عما أصابها من تخلف وجمود»:

بحث شاركت به باسم جامعة الشارقة قسم أصول الدين بالحضور والمناقشة، وإلقاء البحث ومناقشته، في المؤتمر الدولي الثالث عشر للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة بعنوان: «السنن الإلهية وأثرها في نهضة الأمم»، (يومي الثلاثاء والأربعاء: ٢٣، ٢٤/ ١٤٢٩هـ ٢٩/ ٣٠ إبريل/ نيسان ٢٠٠٨م).

١١ ـ «دور الغزالي الفيلسوف في أسلمة العلوم الفلسفية»:

بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الأول لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين، المنعقد بكلية الآداب والعلوم، بالاشتراك مع كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة، تحت شعار: «أثر العلوم العربية والإسلامية في خدمة الإنسانية»، (في الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ مارس/ آذار ٢٠٠٨م).

وقد تم طبع ملخَّص البحث المطول ضمن كتاب ملخَّصات الأبحاث المطولة ونشرها في كتاب المؤتمر.

١٢ ـ «جهود الدكتور محمد عبد الله دراز في الحوار مع الآخر»:

بحث شاركت به في المؤتمر السنوي لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة، بالاشتراك مع الأمانة العامة للأوقاف

بالشارقة، وأشرفت عليه كرئيس لقسم أصول الدين حيث كنت رئيس اللجنة العلمية، ورئيس اللجنة التحضيرية، ورئيس لجنة صياغة التوصيات، ورئيس إحدى جلسات المؤتمر. وكلفني فضيلة أ.د. عبد الناصر أبو البصل عميد الكلية بتسيير أعمال المؤتمر (وذلك في الفترة من ٢٨ ـ ٣٠ ربيع الأول ١٤٢٨هـ/١٦ ـ ١٨ إبريل/ نيسان ٢٠٠٧م).

١٣ ـ «دور الاستعمار الغربي في تخلف العالم الإسلامي»:

بحث شاركت به موفداً من جامعة الكويت كلية الشريعة: قسم العقيدة والدعوة ـ بالحضور والمناقشة وإلقاء البحث ومناقشته ـ في المؤتمر الدولي الثامن للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، بعنوان: «حاضر العالم الإسلامي: أسباب التخلف، وعوامل النهوض»، (في الفترة من ١٨ ـ ١٩ صفر ١٤٢٤هـ/ ٢٠ ـ ٢١ إبريل/ نيسان ٢٠٠٣م).

وقد طبع البحث ضمن ملخصات أبحاث المؤتمر.

١٤ ـ تصحيح الصورة المشوهة للمرأة المسلمة في الغرب: من خلال بيان موقف الإسلام من المرأة»:

بحث شاركت به موفداً من جامعة الكويت كلية الشريعة: قسم العقيدة والدعوة ـ بالحضور والمناقشة وإلقاء البحث ومناقشته ـ في المؤتمر الدولي السابع للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، بعنوان: «الإسلام والغرب»، (في الفترة من ٧ ـ ٨ صفر ١٤٢٣هـ/ ٢٠ ـ ٢١ إبريل/ نيسان ٢٠٠٢م).

وقد طبع البحث ضمن ملخصات أبحاث المؤتمر.

د ـ الكتب والمؤلفات:

١ ـ **«غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام** (اليهودية، المسيحية، المجوسية)».

أول رسالة ماجستير بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا،

(يناير/كانون الثاني ١٩٨٥م). ثم طبعت في كتاب بنفس العنوان (عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ويعاد طبعه الآن بدار الآفاق العربية، القاهرة ـ مصر.

٢ ـ **«تأثر اليهودية بالأديان الوثنية»**:

أول دكتوراه بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا، (أغسطس/آب ١٩٨٧م)، ثم طبعت في كتاب بنفس العنوان (في عام ١٤١٤هـ/١٩٩٤م) نشر دار البشير للعلوم والثقافة بمصر، ويعاد طبعه الآن بدار الآفاق العربية، القاهرة ـ مصر.

٣ ـ **«القرابين البشرية والذبائح التلمودية عند الوثنيين واليهود»**، ومعه نص كتاب: **«إظهار سر الدم المكتوم» أو: «طريقة استنزاف دم الأطفال، الجارية عند اليهود»**، للحاخام ناوفيطوس:

مطابع غباشي بطنطا، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م). ويعاد طبعه الآن بدار الآفاق العربية، القاهرة ـ مصر.

٤ ـ **«تنزيه نبي الله داود عن مطاعن وأكاذيب اليهود في العهد القديم والإسرائيليات»**: (١٤١٢هـ/١٩٩١م). الطبعة الثانية: دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

٥ ـ **«قصة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين (عرض ونقد)»**: دار البشير بطنطا، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م). الطبعة الثانية: دار البشائر الإسلامية، بيروت ـ لبنان (١٤٣١هـ/٢٠١٠م).

٦ ـ **«فلسفة الأخلاق عند مسكويه: دراسة تحليلية مقارنة لأهم مصادرها وأبرز جوانبها»**: (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). وأعيد طبعه (في عام ١٩٩٨م/١٤١٨هـ).

٧ ـ **«دراسات ونصوص في العقيدة الإسلامية»**: (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٨ ـ **«ملل ونحل قديمة ومعاصرة»**: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

٩ ـ **«مباحث ونصوص في الفلسفة الإسلامية** (الجزء الأول)»:

مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا، الطبعة الأولى (١٤١٧هـ/ ١٩٧٩م)، بحوث في العقيدة الإسلامية (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

١٠ ـ **«دراسات في التصوف الإسلامي** (الجزء الأول): **المقدمات والمراحل»**: (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

١١ ـ **«دراسات في العقيدة الإسلامية** (الجزء الأول): **المقدمات»**: الطبعة الأولى (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٢ ـ **«دراسات ونصوص في العقيدة الإسلامية** (الجزء الرابع): **السمعيات»**: (٢٠٠٠م).

١٣ ـ **«الثقافة الإسلامية (تعريفها ـ مصادرها ـ مجالاتها ـ تحدياتها)»**:

كتاب شاركت في تأليفه الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، نشر مؤسسة الرسالة ـ بيروت/ دار البشير ـ الشارقة، (الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م). والطبعة الثانية: مكتبة الجامعة الشارقة، وإثراء للنشر والتوزيع عمان الأردن (٢٠٠٧م). وتم تدريسه في مساق (الثقافة الإسلامية) متطلب إجباري جامعي منذ العام الجامعي (٢٠٠٤/ ٢٠٠٥م) حتى العام الجامعي (٢٠٠٨ ـ ٢٠٠٩م).

١٤ ـ **«شبهات حول عصمة الملائكة والرد عليها»**

ومعه:

١٥ ـ **«بشرية الرسل بين شبهات المنكرين والرد عليها»**:

دار البشائر الإسلامية، بيروت (الطبعة الأولى ٢٠١١ ـ ١٤٣٢م).

١٦ ـ **«شبهات وإسرائيليات حول عصمة الخليل عليه السلام والرد عليها»**

ومعه:

١٧ ـ **«عصمة النبي سليمان بن داود مما رماه به اليهود** (في العهد القديم والإسرائيليات)»:

دار البشائر الإسلامية، بيروت (الطبعة الأولى ٢٠١١م ـ ١٤٣٢هـ).

جوائز وشهادات تقدير

١ ـ الفوز بالمركز الثاني على مستوى المعاهد الأزهرية في جمهورية مصر العربية في الشهادة الثانوية الأزهرية (عام ١٩٧٦/ ١٩٧٧م).

٢ ـ الفوز بالمركز الأول على الدفعة الأولى لكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية، فرع جامعة الأزهر بطنطا، في سنوات الدراسة الأربع (مرحلة الإجازة العالية) الليسانس، بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٧ ـ ١٩٨٠م).

وقد سجل هذا الشرف في الكتاب الذي صدر عن الأزهر في احتفاله بالعيد الألفي.

٣ ـ الفوز بلقب «الطالب المثالي» على مستوى الكلية، والثالث على مستوى جامعة الأزهر.

٤ ـ الفوز بالمركز الأول في مرحلة الدراسات العليا، بتقدير جيد جداً.

٥ ـ الحصول على أول ماجستير تمنحه كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية فرع جامعة الأزهر بطنطا، وجاء بتقدير ممتاز.

٦ ـ الحصول على أول دكتوراه في كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية فرع جامعة الأزهر بطنطا، وجاء مع مرتبة الشرف الأولى.

٧ ـ شهادة تقدير من مركز الأمير عبد المحسن بن جلوي للبحوث والدراسات الإسلامية بالشارقة عن مشاركتي في تقديم دورة: «كيف تكتب بحثاً علميّاً»، (المنعقدة خلال الفترة من ١٦ إلى ١٩ إبريل/ نيسان ٢٠٠٦م).

٨ ـ شهادة تقدير من جمعية أولياء أمور المعاقين بالإمارات على

مشاركتي في إنجاح الدورة التدريبية: «كيفية إعداد البحوث والدراسات» التي أقيمت بالشارقة (خلال الفترة من ٦/ ١٠/ مايو/ أيار ٢٠٠٦م).

٩ ـ شكر وتقدير من كلية دار العلوم وكلية العلوم جامعة القاهرة ومركز الدراسات المعرفية بالقاهرة التابع للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكا على مشاركتي في المؤتمر الدولي الثاني عشر للفلسفة الإسلامية «مناهج العلوم وفلسفتها من منظور إسلامي» (في الفترة من ٢٤ ـ٢٥ إبريل/ نيسان ٢٠٠٧م)، ببحث عنوانه: «المنهج العلمي للغزالي في البحث عن الحقيقة والوصول إلي اليقين».

١٠ ـ شكر وتقدير من كلية دار العلوم جامعة القاهرة على مشاركتي في المؤتمر الدولي العاشر للفلسفة الإسلامية: «مناهج العلوم الإسلامية بين التقليد والتجديد» الحلقة الثانية: «التصوف بين الواقع والمأمول» (في الفترة من ١٩ ـ ٢٠ إبريل/ نيسان ٢٠٠٥م)، ببحث عنوانه: «دور الغزالي في إحياء وتجديد التصوف السني».

وكذلك في المؤتمر الدولي الحادي عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر للفلسفة الإسلامية، على المشاركة بالبحث والحضور.

١١ ـ شكر وتقدير من عمادة شئون الطلاب جامعة الشارقة على مشاركتي وإشرافي على مسابقة الثقافة الإسلامية التي أقيمت (في فصل الربيع ٢٠٠٥م). وتم التكريم بحضور سعادة مدير الجامعة.

١٢ ـ شهادة شكر وتقدير من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة على مساهمتي المتميزة في مؤتمر الحوار مع الآخر في الفكر الإسلامي (١٦/ ١٨/ إبريل/ نيسان ٢٠٠٧م) وشهادة تكريم خاصة من إدارة الجامعة.

شهادة شكر وتقدير من عميد كلية الآداب والعلوم جامعة الشارقة على مشاركتي في اللجنة التنظيمية واللجنة العلمية ولجنة صياغة التوصيات، ورئاسة إحدى جلسات المؤتمر الدولي الأول لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين.

شهادة تقدير من مركز الأمير عبد المحسن بن جلوي للبحوث والدراسات الإسلامية بالشارقة عن مشاركتي في تقديم دورة: «كيف تكتب بحثاً علميّاً»، (المنعقدة خلال الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ إبريل/نيسان ٢٠٠٨م).

١٣ ـ شهادة شكر وتقدير من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة على مشاركتي في مؤتمر «القضاء الشرعي في العصر الحاضر» (في الفترة من ١١ ـ ١٣ إبريل/نيسان ٢٠٠٦م).

١٤ ـ شكر وتقدير من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة الشارقة على مشاركتي في مؤتمر «الجهود المبذولة في خدمة السنة النبوية من بداية القرن الرابع عشر الهجري إلى اليوم» (في الفترة من ٤ ـ ٥ مايو/أيار ٢٠٠٥م).

١٥ ـ شهادة تقدير من المنتدى الإسلامي بالشارقة على المشاركة في الدورة العلمية العاشرة (الفقه الأكبر) بدروس في العقيدة الإسلامية (النبوات) (في الفترة من ٢٦/٦/ إلى ٨/٦/ ٢٠١٠م) على مدى أسبوعين يوميّاً عدا الجمعة، وتم نقلها ببث مباشر على موقع المنتدى وموقع اتصالات. والمحاضرات أو الدروس محملة على الموقع.

١٦ ـ شهادات شكر وتقدير من إذاعة وتلفزيون الشارقة على مشاركاتي في البرامج التلفزيونية المختلفة: برنامج: «الحديث الديني» (يومي)، وبرنامج: «وتواصوا بالحق»، وبرنامج: «من يكتب التاريخ» (أسبوعي بث مباشر)، و«الطريق إلى الجنة» (تسجيل أسبوعي جماهيري)،

وبرنامج: «صباح الشارقة»، وبرنامج: «بين الشرع والطبع» (أسبوعي مسجل ومباشر)، وبرامج الإذاعة.

كتب وبحوث تحت الطبع ـ بعون الله وتوفيقه

١ ـ موقف الإمام ابن تيمية من التصور الفلسفي للملائكة.

٢ ـ حواء من جور الأديان إلى عدل الإسلام.

٣ ـ الأخلاق عند الإمام الغزالي بين الفلسفة والتصوف.

٤ ـ البشارة بالنبي ﷺ في الكتب السابقة، واعتبارها من دلائل نبوته.

٥ ـ موسوعة «أنبياء الله بين أهواء العهد القديم وحقائق القرآن الكريم».

٦ ـ النبي أيوب عليه السلام بين العهد القديم والقرآن الكريم.

٧ ـ رياضة الصبيان وتهذيب أخلاقهم عند الإمام الغزالي (دراسة مقارنة).

٨ ـ حقيقة الملائكة والإيمان بهم، وأصنافهم، والتفاضل بينهم وبين الأنبياء.

٩ ـ التحقيق التام في ملة الخليل عليه السلام.

١٠ ـ القول التام في همِّ يوسف عليه السلام.